

مِيسَلَةُ شُرُوحَاتٍ وَمَوْلاَفَاتٍ مَعَانِي السِّيَخِ صِلَاحِ الْقُورَانِ ٤١

شَرَحَ
مَلْعَمَةُ الْأَعْيَانِ
الْمَهَادِي إِلَى سَبِيلِ الرِّشَادِ

لِلْإِمَامِ مُوَفَّقِ الدِّينِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ قُدَامَةَ الْمُقَدِّسِي
أَجَزَلَهُ اللَّهُ لَهُ الْمَثُوبَةُ وَالْغُفْرَانُ

السِّيَخِ

لِفَضِيلَةِ السِّيَخِ الْقَادِمَةِ

الدُّكْتُورِ صَالِحِ بْنِ فُوزَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْفُوزَانِ
بِقَرَارِهِ لَهُ وَالْوَالِدِيَّةِ وَطَرِيقِ السَّيَمِينِ

ابْتِغَاءً بِهِ وَاسْتَرْقَى عَلَى طَبِيعِهِ

د. سَلْمَانُ جَابِرُ عُثْمَانَ الْمُجَاهِدِ السُّوْنِيَّةِ

بِقَرَارِهِ لَهُ وَالْوَالِدِيَّةِ وَالْأَهْلِ بَيْنَهُ وَلِأَخِيهِ

مَكْتَبَةُ الْأَعْيَانِ الدِّهْيِيَّةِ

المَكْتُوبِ

الْبَرَاءَةُ الدِّهْيِيَّةِ

الرِّيَاضِ

مِيسَلَةُ شُرُوحَاتٍ وَمَوْلاَفَاتٍ مَعَانِي السِّيَخِ صِلَاحِ الْقُورَانِ

شَرَحَ
مُعْتَرِلاً عِتْقَانِ
الهادي إلى سبيل الرشاد

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الفوزان، صالح بن فوزان بن عبد الله

شرح لعة الاعتقاد الهادي الى سبيل الرشاد، / صالح بن فوزان بن عبد الله

الفوزان؛ سلمان بن جابر المجلهم - ط٢. - الرياض، ١٤٤٣ هـ

٤٠٧ ص، ٢٤/١٧ سم

ردمك: ٨-٦-٩١٥٤٠-٦٠٣-٩٧٨

١- العقيدة الاسلامية ٢- التوحيد أ. المجلهم، سلمان بن جابر (محقق)

ب. العنوان

١٤٤٣/٥٩٥

ديوي ٢٤٠

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٥٩٥

ردمك: ٨-٦-٩١٥٤٠-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

(١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م)



مكتبة الإمام الذهب للنشر والتوزيع

* الفرع الرئيسي: حولي - شارع المثني - مجمع البديري

ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦ فاكس: ٢٢٦١٢٠٠٤

* فرع المصاحف: حولي - مجمع البديري ت ٢٢٦١٥٠٤٦

* فرع الفيحيل: البرج الأخضر - شارع الديوس ت ٢٥٤٥٦٠٦٩ - ٩٥٥٥٨٦٠٧

* فرع الجبراء: الناصر مول - ت ٩٥٥٥٨٦٠٨

* فرع الرياض: الملكة العربية السعودية - التراث الذهبي: ٥٥٧٧٦٥١٣٨ - ٠٠٩٦٦

ص.ب: ١٠٧٥ - الرمز البريدي ٣٢٠١١ الكويت

الساخن: ت: ٩٤٤٠٥٥٥٩ ٠٠٩٦٥

شَرَحَ
مُعْتَبَرُ الْأَعْتِقَاتِ
الْمَهَادِي إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ

لِلْإِمَامِ مُوَفَّقِ الدِّينِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ قُدَامَةَ الْمُقَدِّسِيِّ
أَجَزَلَ اللَّهِ لَهُ الْمَثُوبَةَ وَالْغُفْرَانَ

الشَّيْخُ
لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الْعَلَامَةِ
الدَّكْتُورِ صَاحِبِ بْنِ فُوزَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْفُوزَانِ
غُفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ

اعْتَمَدَ بِهِ وَأَسْرَفَ عَلَى طَبْعِهِ
د. سَلْمَانُ جَابِرُ عُثْمَانِ الْمُجَلَّهِيُّ السُّوَلِيُّ
غُفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِأَهْلِ بَيْتِهِ وَلِسَائِرِهِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وبعد:
فقد أذنت لابننا وتلميذنا فضيلة الشيخ الدكتور سلمان بن جابر بن عثمان المجلهم
بطباعة كتابي: الملخص في شرح كتاب التوحيد
رجاء أن ينفع الله به، ويكتب لي وله الأجر.
وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

كتبه: د. صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء واللجنة الدائمة

١٤٤٠/١٢/٢١ هـ

مُقدِّمةُ الناشرِ

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه
وسلم، أما بعد:

فهذا شرح مبارك نافع لكتاب:

لِمُعْجَزِ الْأَعْتِقَاتِ الْهَادِي إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ

للإمام / موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي

أجزل الله له المثوبة والمغفرة

قام بشرحه شيخنا العلامة الحبر، فضيلة الشيخ /

الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

حفظه الله وجزاه خيرًا عن الموحدين

وقد قام فضيلته بشرحه يوم السبت الموافق التاسع عشر من جمادى
الثانية لعام تسعة عشر وأربعمائة وألف من الهجرة، بعد صلاة المغرب،
وانتهى منه -حفظه الله- يوم السبت الموافق الثالث من ذي القعدة لعام
تسعة عشر وأربعمائة وألف من الهجرة، في مسجد الأمير / متعب بن
عبد العزيز آل سعود، بالرياض.

وهذا الشرح لمتن في العقيدة في غاية الأهمية، هو متن لمعة الاعتقاد الهادي
إلى سبيل الرشاد، ألفه الإمام الحافظ صاحب التصانيف موفق الدين أبو محمد
عبد الله بن أحمد ابن قدامة المقدسي الدمشقي الصالحي رَحِمَهُ اللهُ، حيث جمع

فيه المؤلف معتقد أهل السنة والجماعة والفرقة الناجية والطائفة المنصورة، في إثباته لصفات الله عَزَّجَلَّ كما جاءت في القرآن العظيم، أو على لسان النبي الكريم محمد - عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم -، بدون تحريف، أو تأويل، أو تعطيل، أو تمثيل.

كما أن المتن احتوى على أن الإيمان قول وعمل، والإيمان بالقضاء والقدر، والرد على من أنكر القدر، واحتوى -أيضاً- على أن القرآن كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ورؤية المؤمنين لربهم يوم الدين، والإسراء والمعراج، والمعتقد في أصحاب رسول الله الطيبين - رضي الله عنهم، وأرضاهم، وأخزي الله من سبهم وعاداهم -، وأشراط الساعة، وما يكون في اليوم الآخر، والشفاعة، وفتنة القبر وعذابه ونعيمه، والبعث والحشر، والحوض والصراط، والجنة والنار، وحديث حول الخلافة وحكم طاعة الخليفة، وغير ذلك من مسائل العقيدة، التي نحن بأمس الحاجة لمعرفة، والايان بها، وظهور آثار ذلك الايمان علينا قولاً وفعلاً واعتقاداً وسلوكاً وأخلاقاً.

يقول الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ عن الإمام ابن قدامة: (شيخ الإسلام، إمام، عالم، بارع، لم يكن في عصره، ولا قبل دهره بمدة، أفقه منه).

ويقول الإمام ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ: (صنف الشيخ الموفق رَحِمَهُ اللَّهُ التصانيف الكثيرة الحسنة في المذهب، فروعاً وأصولاً، وفي الحديث واللغة والزهد والرقائق، وتصانيفه في أصول الدين في غاية الحسن، أكثرها على طريقة المحدثين، مشحونة بالأحاديث والآثار وبالأسانيد - كما هي طريقة الإمام أحمد وأئمة الحديث -، ولم يكن يرى الخوض مع المتكلمين في دقائق

الكلام، ولو كان بالرد عليهم - وهذه طريقة أحمد والمتقدمين -، وكان كثير المتابعة للمنقول في باب الأصول وغيره، لا يرى إطلاق ما لم يؤثر من العبارات، ويأمر بالإقرار والإمرار لما جاء في الكتاب والسنة من الصفات)، إلى أن قال رَحِمَهُ اللهُ: (وانتفع بتصانيفه المسلمون عموماً، وأهل المذهب خصوصاً، وانتشرت واشتهرت بحسن قصده، وإخلاصه في تصنيفها).

وقد قال الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ عن كتاب لمعة الاعتقاد: (وهذا الكتاب جمع فيه مؤلفه زبدة العقيدة،... واللمعة هي البلغة من العيش، وهذا المعنى أنسب معنى لموضوع هذا الكتاب، فمعنى لمعة الاعتقاد هنا: البلغة من الاعتقاد الصحيح الموافق لمذهب السلف - رضوان الله عليهم).

نسأل الله أن يهدينا سبيل الرشاد، وأن يرحمنا يغفر لنا يوم المعاد، وأن نحيا ونموت على عقيدة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحبه الكرام، ومن اتبعهم بإحسان من أئمتنا وعلمائنا وسلفنا الصالح، الذين هم خير سلف، رضي الله عنهم ورحمهم، وغفر لنا ولهم، وعفا عنا وعنهم، وعن الإمام ابن قدامة صاحب المتن، وعن الشارح شيخنا ووالدنا صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور/ صالح ابن فوزان بن عبد الله الفوزان، وعن المعني بالكتاب والمشرّف على طباعته العبد الضعيف الفقير!

وقد طبع الكتاب على نفقة الشيخ أبي عبد الرحمن: مساعد بن علي الشايحي، والشيخ أبي وائل: محمد بن أحمد الفرحان وزوجته الكريمة، غفر الله لهم، وتقبل منهم، وجزاهم خير الجزاء في الدنيا والآخرة.

ومما يشار إليه أن طباعة هذا الكتاب، وريعه، والعائد من بيعه، وكل ما بذل فيه هو وقف لله تعالى، وهو مشروع وقفي من أموال وقفية، تقبل الله من الجميع.

والله أعلى وأعلم وأعظم وأحكم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه

د. سَلْمَانُ جَابِرُ عَثْمَانِ الْمُجَاهِدِ السُّوُلَيْمِ
عَفَّرَ اللَّهُ لَهُ وَلَوْلَا دَرَّةُ دَلَّاهُ لَهْلَ بَيْنَهُ وَشَايَحُوهُ

مقدمة الشارح

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فهذه العقيدة المسماة بـ (لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد)، ومؤلفها هو الإمام أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة^(١)، الحنبلي من كبار شيوخ المذهب الحنبلي، وله مؤلفات في الفقه والأصول وغيرها، فله من المؤلفات في الفقه: (عمدة الفقه) مختصر، ثم (المقنع)، وهو أكبر من العمدة وأبسط، ثم (الكافي)، وهو أوسع من المقنع، ثم (المغني)، وهو الكتاب المشهور والموسوعة العظيمة في الفقه، اشتمل على كثير من فقه السلف والمذاهب الأربعة بأدلتها، ثم يُرجح القول الراجح في الغالب في هذا الكتاب، الذي صار مرجعاً من مراجع الفقه الإسلامي.

وله في الأصول: (روضة الناظر وجنة المناظر).

وله غير ذلك من المؤلفات في الوعظ وفي سائر الفنون العلمية، فهو إمام جليل، ومن مؤلفاته في العقيدة هذه الرسالة (لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد).

فقد اهتم العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ بتوضيح العقيدة الصحيحة ونفي ما علق بها من الشُّبه والتشكيكات لحاجة الناس إلى ذلك، خصوصاً بعدما ظهرت الفرق

(١) انظر مصادر ترجمته في: ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٢/ ١٣٣)، وسير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٦٦)، والبداية والنهاية (١٣/ ١٠٠)، وشذرات الذهب (٥/ ٨٨-٩٢)، ومقدمة المغني (١/ ٧-٣٦).

الضالة بعقائدها وشبهاتها، احتاج العلماء إلى أن يبينوا العقيدة الصحيحة، وأن يردوا على من خالفها، وهذا من قديم الزمان والعلماء مهتمون بأمر العقيدة، فألّفوا فيها المؤلفات الكثيرة من المتقدمين ومن المتأخرين تحت أسماء مختلفة.

منهم من يسمي كتب العقيدة كتب السنة؛ مثل: كتاب (السنة) لعبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل، وكتاب (السنة) للخلال، وكتاب (السنة) لابن أبي عاصم.

ومنهم من يسميها الشريعة؛ مثل: كتاب (الشريعة) للآجري.

ومنهم من يسميها الأصول؛ مثل: كتاب (أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) للالكائي، إلى غير ذلك.

ومنهم من يسميها بالتوحيد؛ مثل: (كتاب التوحيد) لابن خزيمة، و(كتاب التوحيد) لابن منده، و(كتاب التوحيد) لشيخ الإسلام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، و(تجريد التوحيد) للإمام العلامة المؤرخ القزويني.

ومنهم من يسميها بكتب العقيدة أو الاعتقاد؛ مثل: كتاب (العقيدة) للطحاوي، المسمى بـ(العقيدة الطحاوية)، ومثل: (العقيدة الواسطية) لشيخ الإسلام ابن تيمية، ومثل: هذا الكتاب (لمعة الاعتقاد).

واللمعة: من اللمعان، وهو الشيء الذي له نور، وله لمعان^(١)، فهي لمعة بمعنى أنها تلمع، وتنير، بخلاف الظلمة.

(١) انظر: تهذيب اللغة (٢/ ٢٥٦)، والصحاح (٣/ ١٢٨١)، ومقاييس اللغة (٥/ ٢١١).

ومناسبة تسميتها باللمعة من أجل الفرق بينها وبين الكتب المظلمة التي تشكك الناس في عقائدهم.

والاعتقاد: مصدر اعتقد، وهو اليقين الجازم الذي يعتقده القلب^(١)، ويسمى بالإيمان، فالاعتقاد والإيمان بمعنى واحد، ولهذا يقول جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(٢)، وهذه أصول الاعتقاد، وتسمى بأركان الإيمان.

ف(لمعة الاعتقاد) معناها: بيان الاعتقاد الصحيح الذي يجب الالتزام به وترك ما سواه.

(الهادي إلى سبيل الرشاد)؛ أي: المرشد، و(الرشاد): ضد الغي والضلال، فهذا الاعتقاد يهدي إلى الطريق الصحيح الموصل إلى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، بخلاف عقائد أهل الضلال؛ فإنها تهدي إلى الهلاك وإلى الغواية.

(١) انظر: مادة «عقد» في: لسان العرب (٣/ ٢٩٦)، ومختار الصحاح (ص ١٨٦)، والقاموس المحيط (٣٨٣).

(٢) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَحْمُودِ بِكُلِّ لِسَانٍ، الْمَعْبُودِ فِي كُلِّ زَمَانٍ، الَّذِي لَا يَخْلُو مِنْ عِلْمِهِ مَكَانٌ، وَلَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ، جَلَّ عَنْ الْأَشْبَاهِ وَالْأَنْدَادِ، وَتَنَزَّ عَنْ الصَّاحِبَةِ وَالْأَوْلَادِ، وَنَفَذَ حُكْمَهُ فِي جَمِيعِ الْعِبَادِ، لَا تُمَثِّلُهُ الْعُقُولُ بِالتَّفْكِيرِ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ الْقُلُوبُ بِالتَّصْوِيرِ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشُّورَى: ١١].

الشرح

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) بدأ رَحِمَهُ اللَّهُ كتابه بـ(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)؛ عملاً بالسنة في أن (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) يُبدأ بها في كل أمر ذي بال^(١)؛ يعني: في كل أمر له شأن وأهمية، يُبدأ فيه بـ(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، يُبدأ بها بالنطق، ويبدأ بها في الكتابة؛ كما بدأ الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى كتابه القرآن الكريم بها، وبدأ بها كل سورة من القرآن الكريم، وكما كتبها سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في كتابه إلى بلقيس ملكة سبأ: ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٩-٣٠]، وهي آية من

(١) عملاً بحديث: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَهُوَ أَقْطَعُ»، ورد هذا الحديث بالفاظ متقاربة، منها المرفوع إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنها المرسل، وقد أخرجه أبو داود (٤٨٤٠)، والنسائي في الكبرى (١٢٧/٦)، وابن ماجه (١٨٩٤)، وأحمد في المسند (٣٥٩/٢)، وابن حبان في صحيحه (١٧٣/١)، وابن أبي شبة في مصنفه (٣٣٩/٥)، والدارقطني (٢٢٩/١)، والبيهقي في الكبرى (٢٠٨/٣)، وفي شعب الإبان (٩٠/٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كتاب الله؛ لأنها نزلت مع القرآن، فهي آية من كتاب الله، لكنها آية مستقلة -على الصحيح-، إلا في سورة النمل، فإنها بعض آية، وإلا فهي آية مستقلة، ليست من الفاتحة، ولا من غيرها من السور، وإنما تُقرأ قبل السورة، تُبدأ بها، وليست من سورة معينة، إلا في سورة النمل، فهي بعض آية^(١).

وقوله: (بِسْمِ اللَّهِ) الجار والمجرور متعلق بمقدر، تقديره: أستعين ببسم الله، أو أتبرك ببسم الله.

والاسم: مأخوذ من السمو، وهو الارتفاع، أو من السمة، وهي العلامة، وهو ما يتميز به الشيء^(٢)، فإن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى وضع الأسماء، وعلمها آدم عَلَيْهِ السَّلَام؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]؛ أسماء الأشياء، فكل شيء له اسم يتميز به.

وقوله: (بِسْمِ اللَّهِ) «اسم» مضاف، و«الله» مضاف إليه، والمراد جميع أسماء الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن المفرد إذا أضيف، فإنه يعم، فقوله: (بِسْمِ اللَّهِ) أي: بجميع أسماء الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أستعين بها، وأتبرك بها^(٣).

وأسماء الله كثيرة، لا يعلمها إلا الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، و«الله» علم على الذات المقدسة، لا يسمى بهذا الاسم إلا

(١) انظر هذه المسألة في: تفسير الطبري (١/ ١١٢)، وتفسير السمعاني (١/ ٣٢)، وتفسير البغوي (١/ ٥١)، وزاد المسير (١/ ١٤)، وابن كثير (١/ ١١٦-١١٧)، والتحرير والتنوير (١/ ١٣٨)، والقرطبي (١/ ٩٢-٩٣)، وأحكام القرآن للجصاص (١/ ١١)، ومجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٧٦، وما بعدها، ٤٣٨، ٤٤٠).

(٢) انظر: العين (٧/ ٣١٨)، وتهذيب اللغة (١٣/ ٧٨)، ولسان العرب (١٤/ ٣٩٧).

(٣) انظر: مدارج السالكين (١- ٨٩).

هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يُطلق هذا الاسم «الله» إلا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن «الله» من الألوهية، وهي العبودية^(١)، فهو المعبود سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، المألوه الذي تأله القلوب، وتجه إجلالاً وتعظيماً^(٢).

قوله: (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) اسمان من أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتضمنان الرحمة، والرحمة صفة من صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تليق بجلاله، و«الرحمن» أيضاً لا يُسمى به إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأما «الرحيم»، فقد يسمى به بعض الخلق؛ كما في قوله تعالى في وصف نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، و«الرحمن» أعم من «الرحيم»؛ لأن «الرحمن» رحمة عامة لجميع المخلوقات، وأما «الرحيم»، فهو رحمة خاصة بالمؤمنين؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، فهما اسمان عظيمان، يتضمنان وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالرحمة على ما يليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(٣).

(١) انظر: لسان العرب (١٣/٤٦٧)، ومختار الصحاح (ص ٩)، والمصباح المنير (ص ١٩).
(٢) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٠/٣٥٧) عند تفسير ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، يقول: (لا معبود بحق تجوز عبادته وتصلح الألوهية له إلا الله الذي هذه الصفات صفاته، فادعوه أيها الناس مخلصين له الدين). اهـ. وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ في فتح القدير (١/٢٧١) في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: (أي لا معبود بحق إلا هو وهذه الجملة خبر المبتدأ). اهـ.
انظر: الدر المصون (١/٢٣)، والبحر المحيط (١/٢٧)، والتحرير والتنوير (١/٦٣)، وتفسير ابن كثير (١/١٢٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١/١٢٦)، وتفسير السمعاني (١/٣٣)، والمحزر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/٦٣-٦٤)، وزاد المسير (١/١٦)، وتفسير ابن كثير (١/١٢٤).

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ)، بدأ بالحمد بعد (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، وهذا -أيضاً- من السنة أن يُبدأ الكلام بالحمد لله؛ كما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعل ذلك، وكما بدأ الله كتابه ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في سورة الفاتحة.

والحمد: معناه الثناء، فالله جَلَّ وَعَلَا يُثنى عليه، ويُحمد لذاته ولأسمائه ولصفاته ولأفعاله جَلَّ وَعَلَا، يُحمد عليها، ويُثنى عليه بها^(١).

وقوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (الْحَمْدُ)، الألف واللام للاستغراق^(٢)؛ أي: جميع المحامد لله عَزَّ وَجَلَّ، فهو المستحق للحمد على الإطلاق، والحمد أعم من الشكر؛ لأن الشكر يكون على الأفعال فقط، وأما الحمد، فيكون على أوسع من ذلك؛ على الأسماء والصفات والأفعال^(٣).

فقوله: (الْحَمْدُ لِلَّهِ)؛ أي: الثناء الكامل مستحق لله عَزَّ وَجَلَّ وحده لا شريك له.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (المحمود بكلِّ لسانٍ)؛ أي: المثنى عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِكلِّ لغة من اللغات التي علمها مخلوقاته، فكل المخلوقات تحمده وتسبحه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

(١) انظر: مادة (حمد) في: العين (٣/١٨٨)، وتهذيب اللغة (٤/٢٥١)، ومقاييس اللغة (٢/١٠٠)، ولسان العرب (٣/١٥٥). وانظر الكلام على الحمد في: تفسير ابن جرير (١/١٣٥)، وزاد المسير (١/١٧)، والمفردات للراغب (ص٢٥٦)، وتفسير ابن كثير (١/١٠١)، وبدايع الفوائد (٢/٩٢-٩٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/١٣٧)، والدر المصون (١/٣٧)، وتفسير ابن كثير (١/١٣١).

(٣) انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس (٢/٧٨)، ومعجم الفروق اللغوية (١/٢٠١)، والمخصص (٥/٢٣١)، وتاج العروس (١٢/٢٢٦).

﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فكل المخلوقات تحمده
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بلغاتها التي يعلمها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (المعبود في كُلِّ زَمَانٍ)؛ أي: المستحق للعبادة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دائماً وأبداً، ولا يزال خلقه يعبدونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى أن تقوم الساعة، فلا يخلو زمان من وجود عباد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعبدونه ويوحّدونه إلى أن تقوم الساعة، (المعبود في كُلِّ زَمَانٍ) وكذلك في كل مكان، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعبد في السماوات، ويُعبد في الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٨٤]؛ أي: معبود، فهو معبود في السماء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومعبود في الأرض، يعبده العالم العلوي والعالم السفلي، والجن والإنس في كل مكان من مخلوقاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا تختص عبادته بمكان دون مكان، ولهذا يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»^(١)، ولكن الله خص بعض الأماكن لمزيد فضل عبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإلا فإنه يُعبد سبحانه في كل مكان من أرضه وسماائه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (الَّذِي لَا يَخْلُو مِنْ عِلْمِهِ مَكَانٌ)، يعلم ما في السماوات وما في الأرض: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١)، بلفظ: «أُعْطِيَتْ حَسَّامٌ يُعْطِيهِمْ أَحَدٌ قَيْلٍ نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّ، وَأَحَلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَيْلٍ، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعثُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً». واللفظ للبخاري.

تَجْوَى ثَلَاثَةً إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنْشِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿المجادلة: ٧﴾، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿الحديد: ٤﴾، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴿البقرة: ٢٥٥﴾، فهو يعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، ويعلم كل شيء، لا يخفى عليه شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿آل عمران: ٥﴾، علم ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْأَزَلِ، ثم كتب في اللوح المحفوظ كل شيء، وهو يعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دَائِمًا وَأَبَدًا، لا ينفك عن علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، صفة أزلية أبدية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. علمه في كل مكان، هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في السماء فوق العرش، وعلمه في كل مكان جَلَّ وَعَلَا، لا يخفى عليه شيء من مخلوقاته وأرضه وسماواته، ولا من الماضي ولا من المستقبل، يعلم ما كان، وما يكون، وأين يكون، وكيف يكون، لا يخفى على علمه شيء، قال تعالى: ﴿عَلِمِ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿سبا: ٣﴾، ففرق بين ذاته سبحانه وعلمه، ذاته في العلو فوق السماوات، وأما علمه، فهو في كل مكان، لا يخلو منه مكان.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولا يشغله شأن عن شأن)؛ يعني: لا يشغله فعل عن فعل، يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفقر ويغني، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُدَبِّرُ

أمر مخلوقاته، ولا يُشغله فعل عن فعل، بخلاف المخلوق؛ فإن المخلوق إذا اشتغل بعمل، فإنه لا يمكن أن ينشغل بعمل آخر، أما الله جَلَّ وَعَلَا، فلا يمكن أن يشغله فعل عن فعل؛ وذلك لكمال قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَكَمَالِ عِلْمِهِ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (جَلَّ عَنِ الْأَشْبَاهِ وَالْأَنْدَادِ)، (جَلَّ) أي: عظم شأنه سبحانه (عَنِ الْأَشْبَاهِ)، فلا يشبهه شيء من مخلوقاته.

(وَالْأَنْدَادِ): جمع ند، وهو الشبيه -أيضاً-، فلا شبيه له، ولا ند له، ولا كفاء له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يشبهه شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَتَنَزَّهَ عَنِ الصَّاحِبَةِ)، الصاحبة هي الزوجة، (وَتَنَزَّهَ): يعني تقدس سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن الزوجة، (وَالْأَوْلَادِ)؛ لغناه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن خلقه؛ لأنه لا يحتاج للزوجة والأولاد إلا المخلوق لضعفه وحاجته إلى من يعينه، فالله جَلَّ وَعَلَا غني عن خلقه، ليس بحاجة إلى الصاحبة -وهي الزوجة-، ولا إلى الولد؛ ولأن الولد جزء من الوالد والله جَلَّ وَعَلَا لا شبيه له، ولا ند له، ولا كفاء له، فهو غني عن خلقه، وأيضاً هو لا شبيه له من خلقه، ما اتخذ الله من ولد.

فالله جَلَّ وَعَلَا ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿[الإخلاص: ٣-٤]، وهذا في آيات كثيرة نزه نفسه عن الولد؛ ردًا على الذين وصفوه بأن له ولدًا؛ كالتنصاري الذين قالوا: (المسيح ابن الله)، واليهود الذين قالوا: (عزيز ابن الله)، وكأهل الجاهلية من المشركين الذين يقولون: (الملائكة بنات الله).

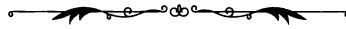
الله جَلَّ وَعَلَا منزله؛ ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]؛ يعني: زوجة. فهو منزله عن ذلك، وإنما هذا لا تقي بالمخلوقين، هم الذين يحتاجون إلى التزاوج، ويحتاجون إلى الذرية والأولاد، أما الله جَلَّ وَعَلَا، فإنه غني عن خلقه، وخلقه محتاجون إليه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨) ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ (٨٩) ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ (٩٠) ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ (٩١) ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (٩٢) ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٩٣) ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ (٩٤) ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥]، كلهم عبيده، ليس منهم أحد ولد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كما يقوله الكافرون والضالون من اليهود والنصارى والمشركين.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَنَفَذَ حُكْمُهُ فِي جَمِيعِ الْعِبَادِ)؛ أي: قضاؤه وقدره، والمراد بالحكم هنا الحكم القدري نافذ في جميع العباد، فلا أحد يستعصي على قضاء الله وقدره؛ المؤمن والكافر، والحي والجماد، جميع المخلوقات كلها ينفذ فيها قضاء الله وقدره، لا أحد يستعصي على ذلك، أو يمتنع من ذلك، فأحكامه القدريّة نافذة في خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا محيد لهم عنها.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَا تُمَثِّلُهُ الْعُقُولُ بِالتَّفَكِيرِ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ الْقُلُوبُ بِالتَّصْوِيرِ)، فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا مثل له، ولا شبيه له، ولا أحد يعلم ذاته سبحانه، إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يجوز لأحد أن يتصور الله أنه كذا وكذا، أو أن يُشَبِّهه بكذا وكذا، لا يجوز هذا، ولا يمكن هذا -أيضاً-، ولا يحيطون به علماً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشُّورَى: ١١]، هذه الآية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فيها نفى للمماثلة عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا أحد يماثله، ولا أحد يشبهه، ولا أحد يكافئه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه أعظم من كل شيء، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وهذا فيه استغراق للنفي؛ لأن النكرة إذا ذكرت في سياق النفي، تعم^(١)، فلا أحد يشبه الله عَزَّجَلَّ من جميع المخلوقات؛ لعظمته وكبريائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وغناه وقدرته، فلا أحد يشبهه الله عَزَّجَلَّ من الخلق.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾: وصف نفسه بالسمع والبصر، ونفى عن نفسه المشابهة، فدل على أن إثبات الصفات لله عَزَّجَلَّ لا يقتضي التشبيه - كما يقوله أهل الضلال -، ونفى عن نفسه المشابهة، وأثبت لنفسه السمع والبصر، فدل على أنه لا تلازم بين إثبات الصفات وبين المشابهة، وإن كانت أسماء هذه الصفات موجودة في المخلوقين، السمع والبصر والكلام والقدرة والوجه واليدان موجودة في المخلوقين، ولكن هذه خاصة بالمخلوقين، وأما صفات الله جَلَّ وَعَلَا، فهي لائقة به، لا تشابهها صفات المخلوقين، وإن اتفقت في الاسم والمعنى، إلا أنها في الحقيقة والكيفية مختلفة تماماً ومتباينة.



(١) انظر: روضة الناظر (٢/ ١٣٢)، وبدائع الفوائد (٤/ ٢، ٣)، ومذكرة الشنقيطي (٢٠٤ - ٢٠٧).

لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، وَالصِّفَاتُ الْعُلَى، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ٥ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ٦ وَإِنْ يَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿طه: ٥-٧﴾،

الشرح

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)، هذا فيه إثبات الأسماء لله عزَّ وجلَّ؛ كما أثبتنا لنفسه، ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٨]، فأخبر أن له الأسماء، وأخبر أن كلها حسنى؛ يعني: تامة كاملة، لا يعترينا نقص.

(والصفات العلى)؛ أي: العلية، والصفات كالرحمة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، فهذه يقال لها: الصفات، أما السميع، البصير، الخبير، فهذه أسماء، وكل اسم منها يُشتق منه صفة لله جلَّ وعلا، فالقدير فيه إثبات القدرة، والسميع فيه إثبات السمع، والبصير فيه إثبات البصر، والعليم فيه إثبات العلم، والحكيم فيه إثبات الحكمة، وهكذا كل اسم من أسمائه، فإنه يتضمن صفة من صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) التي سمى بها نفسه، أو سماه بها رسولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وله (الصفات العلى) العلية الرفيعة، التي لا يشبهها شيء.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ٥ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ٦ وَإِنْ يَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ

وَأَخْفَى ﴿طه: ٥-٧﴾، هذه الآيات من أول سورة (طه)؛ كما قال سبحانه: ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ ﴿طه: ٤﴾؛ أي: القرآن منزل من عند الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو كلامه.

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ هذه الآية هي إحدى الآيات السبع التي أثبت الله فيها استواءه على العرش ^(١) استواءً حقيقياً يليق بجلاله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو علوه على العرش، والعرش مخلوق من مخلوقاته سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، استوى: أي استقر، وعلا، وارتفع سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ارتفع عليه، وعلا عليه، واستقر عليه جَلَّ وَعَلَا ^(٢)، لكن كل هذه المعاني تليق بجلاله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ليس كاستقرار المخلوق على المخلوق، أو علو المخلوق على المخلوق، أو ارتفاع المخلوق على المخلوق، فالمخلوق إذا ارتفع على شيء، فإنه بحاجة إلى هذا الشيء يرفعه؛ لئلا يسقط، أما الله جَلَّ وَعَلَا، فليس بحاجة إلى العرش ولا إلى السماوات، بل العرش محتاج إليه، والسماوات محتاجة إليه، فهو الذي يمسكها سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو الذي خلقها، فهي بحاجة

(١) هي: (الأعراف: ٥٤)، (يونس: ٣)، (الرعد: ٢)، (طه: ٥)، (الفرقان: ٥٩)، (السجدة: ٤)، (الحديد: ٤).

(٢) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَدْ خُصِّلَتْ لِلْفَارِسِ الطَّعَانِ	فَلَهُمْ عِبَارَاتٌ عَلَيْهَا أُرْبَعُ
تَفَعَّ الْأَذَى مَا فِيهِ مِنْ نُكَرَانٍ	وَهِيَ اسْتَقَرَّ وَقَدْ عَلَا وَكَذَلِكَ أَر
وَأَبُو عُبَيْدَةَ صَاحِبُ الشَّيْبَانِي	وَكَذَلِكَ قَدْ صَعِدَ الَّذِي هُوَ رَابِعُ
أَذَى مِنَ الْجَهْمِيِّ بِالْقُرْآنِ	يَخْتَارُ هَذَا الْقَوْلَ فِي تَفْسِيرِهِ

انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (١/ ٤٤٠).

إليه، وهو ليس بحاجة إليها، فلا يُشبهه استواؤه على العرش استواء المخلوق على المخلوق، وإن كان المعنى واحداً، لكن الكيفية والحقيقة مختلفة.

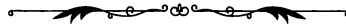
﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، هذا خبر منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آيَاتِ سَبْعٍ، كلها مضطردة بهذا اللفظ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، (الأعراف: ٥٤)، (يونس: ٣)، (الرَّعْدُ: ٢)، (طه: ٥)، (الفرقان: ٥٩)، (السَّجْدَةُ: ٤)، (الحديد: ٤).

وقوله في سورة (طه) ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ⑤ لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ⑥ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾؛ له ما في السماوات السبع من المخلوقين من الملائكة وغيرهم، ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من المخلوقات كلها له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ من آدميين وبهائم، وجن وإنس، وحيوانات وطيور، وغير ذلك، كل ما يدب على الأرض، ويمشي على الأرض، ويوجد على الأرض، فإنه ملك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يتصرف فيه ويدبره ويرزقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: ما بين السماوات والأرض من المخلوقات التي لا يعلمها إلا هو، فهي ملك له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾: وما تحت أديم الأرض وسطح الأرض من المخلوقات، ومن المعادن، ومن الأموات، كلها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هي ملكه، وهو الذي خلقها.

﴿وَأِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾: يستوي في علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
 الجهر والسر؛ يسمع الجهر، ويسمع السر، ويعلم ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿فَأِنَّهُ
 يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾؛ أي: أخفى من السر، لا يخفى عليه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
 ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [طه: ٨]، لا معبود بحق سواه ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ
 الْحُسْنَى﴾ [طه: ٨]، هذا إثبات الأسماء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنها حسنى كلها،
 حسنى تامة كاملة منزهة عن النقص والعيب.



﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وَقَهَرَ كُلَّ مَخْلُوقٍ عِزَّةً وَحُكْمًا،
وَوَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ
بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، مَوْصُوفٌ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسُهُ فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ، وَعَلَى
لِسَانِ نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ.

الشرح

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، أَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ مِمَّا كَانَ وَمَا يَكُونُ؛ فِي الْمَاضِي، وَفِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَفِيهَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كُلُّ شَيْءٍ يَعْلَمُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَا يَكُونُ شَيْءٌ إِلَّا يَعْلَمُهُ.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَقَهَرَ كُلَّ مَخْلُوقٍ عِزَّةً وَحُكْمًا)؛ أَي: أَخْضَعَ لِسُلْطَانِهِ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كُلَّ مَخْلُوقٍ، لَا يَسْتَتِنِي مِنْ هَذَا أَيِّ مَخْلُوقٍ؛ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ،
وَالْمُلُوكِ وَالصَّعَالِيكِ، وَالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، كُلِّهَا مَقْهُورَةٌ لِلَّهِ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَحْتَ تَصَرُّفِهِ وَقَهْرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَدْبِيرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَا أَحَدٌ يُخْرِجُ
عَنْ ذَلِكَ.

فَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ هُنَاكَ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَقْطَابِ مَا
يَتَصَرَّفُونَ فِي الْكَوْنِ؛ كَمَا يَقُولُهُ الْمَلَا حِدَةُ مِنَ الصُّوفِيَّةِ.
(عِزَّةً)؛ أَي: قُوَّةً.

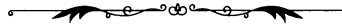
قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَحُكْمًا)؛ أَي: كُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ حُكْمِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَخْضَعَهُ
لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يَتَصَرَّفُ فِيهِ وَيُدْبِرُهُ، لَا يَسْتَعِصِي شَيْءٌ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَوَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا)؛ أي: وسعت رحمته كل شيء، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وعلمه -أيضًا- وسع كل شيء؛ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٢٩]، فلا يخفى شيء على علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فعلمه وسع الأشياء كلها، بخلاف المخلوق، فإنه يعلم شيئًا، ويجهل أشياء كثيرة، أما الله جَلَّ وَعَلَا، فإنه يعلم كل شيء، لا يخفى عليه شيء، فكل الأشياء يعلمها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ورحمته وسعت كل شيء، حتى الكفار وسعتهم رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بمعنى أن الله يرزقهم، ويعافيههم، ويعطيهم ما يحتاجون إليه، هذا من رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وحتى الحيوانات تعيش تحت رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يعطيها، ويرزقها، ويعافيهها، ويشفيها من الأمراض، ويسخرها للعطف على أولادها، مع أنها لا ترجو من أولادها شيئًا، ومع هذا تشفق على أولادها، وتحن وتحنو على أولادها؛ رحمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا من رحمة الله التي وسعت كل شيء؛ الحيوانات، والمؤمنين، والكفار، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة، فإن رحمته خاصة بالمؤمنين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أما الكفار، فلا طمع لهم برحمة الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: يعلم ما مضى ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يعني: ما يأتي في المستقبل ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ لا يحيط العباد بالله عَزَّ وَجَلَّ علمًا، فلا يعلمون ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بمعنى أنهم لا يحيطون بذاته وأسمائه وصفاته وشأنه سبحانه، فهذا لا يعلمه العباد إلا ما أطلع الله العباد عليه؛

من أجل أن يعرفوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويعبدوه وحده لا شريك له، فلا علم لهم إلا ما علمهم الله جَلَّ وَعَلَا، حتى الملائكة يقولون: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (مَوْصُوفٌ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ، وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ)، موصوف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما وصف به نفسه في كتابه الكريم، وهو القرآن، وبما وصفه به نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته، فالأسماء والصفات توقيفية، لا يجوز لنا أن نحدث له اسماً لم يثبت له لنفسه، ولم يثبت له رسوله، ولا أن نحدث له صفة لم يصف بها نفسه، ولم يصفه بها رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا معنى قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (مَوْصُوفٌ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ، وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ)؛ لأنه لا أعلم بالله جَلَّ وَعَلَا من الله، ولا أعلم بالله بعد الله من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنحن متبعون ومقتدون، لا نحدث شيئاً من عند أنفسنا واستحساناتنا وأفكارنا وعقولنا، هذا ممنوع في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



وَكُلُّ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ، أَوْ صَحَّ عَنِ الْمُصْطَفَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ صِفَاتِ الرَّحْمَنِ وَجَبَ الْإِيْمَانُ بِهِ، وَتَلَقَّيْهِ بِالتَّسْلِيمِ وَالْقَبُولِ، وَتَرَكُ التَّعَرُّضَ لَهُ بِالرَّدِّ وَالتَّأْوِيلِ، وَالتَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ.

الشرح

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَكُلُّ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ، أَوْ صَحَّ عَنِ الْمُصْطَفَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ صِفَاتِ الرَّحْمَنِ وَجَبَ الْإِيْمَانُ بِهِ)، هذا شرح للجملة التي قبله، كل ما جاء في القرآن الكريم وصح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما يخبر به عن ربه سُبحَانَهُ وَتَعَالَى وجب الإيمان به.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَتَلَقَّيْهِ بِالتَّسْلِيمِ وَالْقَبُولِ)، تلقي الإيمان بالتسليم؛ فثبته كما أثبته الله وكما أثبته رسول الله، ولا نتدخل بأفكارنا وعقولنا وتساؤلنا في ذلك؛ لأن هذا أمر توقيفي، لا يجوز أن نتدخل فيه، وإنما يجب علينا التسليم والإيمان والانقياد، هذا شأن العبد.

وأيضاً لا فرق بين ما أثبته الله لنفسه في كتابه وبين ما أثبته له رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته، وكل ما صح في السنة من أسماء الله وصفاته وجب الإيمان به؛ كما يجب الإيمان بما في القرآن، بخلاف الذين لا يحتاجون بالسنة عموماً، أو لا يحتاجون بخبر الأحاد، خصوصاً من أهل الضلال، فهذه طريقة ضالة.

فكل ما صح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -سواء كان متواتراً أو آحاداً- في أسماء الله وصفاته وجب الإيمان به والتسليم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ

الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَأْنِهُوا ﴿٧﴾ [الحشر: ٧]، ولقوله سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى: ﴿٨﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٩﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿١٠﴾ [النجم: ٣-٤].

فكل ما صح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الباب -باب الأسماء والصفات-، فإنه يجب الإيمان به والتصديق به، وتسمية الله ووصفه بذلك؛ كما في القرآن الكريم، لا فرق في ذلك، ومن فرق، فإنه يكون من أهل الضلال مكذبا للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن كذب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كفر.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَتَلْقِيهِ بِالتَّسْلِيمِ وَالْقَبُولِ)؛ يعني: قبوله، وتلقيه يعني: حفظه وروايته والتحدث به، وقبوله من غير اعتراض؛ لأنه من عند الله، أو من عند رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشأننا في ذلك التسليم والانقياد، لا الاعتراض والتدخل بأفكارنا وعقولنا؛ كما يفعل أهل الضلال.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَتَرْكُ التَّعَرُّضِ لَهُ بِالرَّدِّ وَالتَّأْوِيلِ، وَالتَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ)؛ ترك التعرض لما ثبت عن الله في كتابه، أو ثبت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته من أسماء الله وصفاته بالرد والرفض؛ كالذين يقولون: (لا نقبل الاحتجاج بالسنة، لا نقبل الاحتجاج بخبر الآحاد). هذا رد لما جاء عن الله وعن رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإيمان ببعض الكتاب وكفر ببعض - نسأل الله العافية-، وبعضهم لا يرد ما جاء في الكتاب والسنة لا يرد لفظه، ولكن يرد معناه، فيأخذ في التأويل، ويفسره بغير تفسيره، فهذا رد للمعنى، وهو مثل رد اللفظ.

فهم ما بين أمرين: إما أن يردوا النص، ولا يقبلوه، وإما أن يقبلوا النص في الظاهر، لكن يؤولونه، ويحرفونه عن معناه الصحيح إلى ما يوافق أهواءهم ويوافق تصورهم، أو يوافق قواعدهم المنطقية والكلامية والعقليات التي يسمونها، فيخضعون النصوص للعقول والاصطلاحات البشرية، فهذا في الحقيقة يتنافى مع الإيمان بما جاء عن الله وجاء عن رسوله.

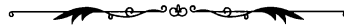
والواجب أن نؤمن بما جاء عن الله ورسوله لفظاً ومعنى، وأن نقبل اللفظ، وأن نقبل المعنى، ولا نتدخل في تأويله أو تحريفه أو تفسيره بغير معناه؛ كما فعل أهل الضلال من المؤولة والمعطلة^(١).

. قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (والتأويل)، هذا مذهب طائفة، (والتشبيه) هذا مذهب طائفة أخرى، هناك طائفة أخرى تثبت اللفظ والمعنى، ولا تتصرف في المعنى، فتثبت اللفظ والمعنى، لكن تُشبه الله بخلقه، وهؤلاء هم المشبهة^(٢)، الذين يُشبهون الله بخلقه، ويُشبهون صفاته بصفاتهم وأسماءه بأسمائهم، هؤلاء غلاة غلو في الإثبات.

(١) المعطلة هم الذين عطلوا الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عن صفاته، ونفوها عنه، ويسمون أيضاً بالنفاة، وهم كثير، فمنهم الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية. انظر: قانون التأويل (١/٣٥٤)، وتبيين كذب المفتري (ص ١٤٩)، والفتاوى الكبرى (٦/٣٣٧)، ومجموع الفتاوى (١٢/٥٩٨، ١٦/٢٤١).

(٢) قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص ٥٣٧): (المُشَبَّهَةُ: هُمُ الَّذِينَ شَبَّهُوا اللَّهَ سُبحَانَهُ بِالْخَلْقِ فِي صِفَاتِهِ، وَقَوَّيْنَاهُمْ عَكْسُ قَوْلِ النَّصَارَى، شَبَّهُوا الْمَخْلُوقَ - وَهُوَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِالْخَالِقِ وَجَعَلُوهُ إِلَهًا، وَهَؤُلَاءِ شَبَّهُوا الْخَالِقَ بِالْمَخْلُوقِ، كَذَاوَدَ الْجَوَارِيَّ وَأَشْبَاهِهِ).

والصنف الأول المعطلة غلوا في التنزيه والنفي، وكلتا الطائفتين خارجة عن الحق والصواب، والحق هو ما عليه أهل السنة والجماعة من إثبات ما أثبتته الله لنفسه، أو أثبتته له رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تشبيه ولا تمثيل. هذا هو الصواب الذي عليه أهل الحق، وأما ما خالفهم من التعطيل والتأويل أو التشبيه والتمثيل، فإنه ضلال وباطل.



وَمَا أَشْكَلَ مِنْ ذَلِكَ وَجَبَ إِبْثَاتُهُ لَفْظًا، وَتَرَكَ التَّعَرُّضَ لِمَعْنَاهُ^(١)، وَنَرَدُّ
عِلْمَهُ إِلَى قَائِلِهِ، وَنَجْعَلُ عَهْدَتَهُ عَلَى نَاقِلِهِ، إِتِّبَاعًا لَطَرِيقِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ،
الَّذِينَ أَثْنَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ
يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]،

الشرح

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَمَا أَشْكَلَ مِنْ ذَلِكَ وَجَبَ إِبْثَاتُهُ لَفْظًا، وَتَرَكَ التَّعَرُّضَ
لِمَعْنَاهُ، وَنَرَدُّ عِلْمَهُ إِلَى قَائِلِهِ، وَنَجْعَلُ عَهْدَتَهُ عَلَى نَاقِلِهِ)، هذه الجملة غير
مسلمة من الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ؛ كأنه يقسم نصوص الصفات إلى قسمين:
القسم الأول: يظهر لنا معناه وتفسيره، فهذا نؤمن به، ونؤمن بمعناه
وتفسيره.

(١) قال سماحة الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ تعقيباً على قول المؤلف هنا:
(وجب الإيذان به لفظاً وترك التعرض لمعناه): (أما كلام صاحب اللمعة هذه الكلمة مما
لوحظ في هذه العقيدة، وقد لوحظ فيها عدة كلمات أخذت على المصنف؛ إذ لا يخفى أن
مذهب أهل السنة والجماعة هو الإيذان بما ثبت في الكتاب والسنة من أسماء الله وصفاته
لفظاً ومعنى، واعتقاد أن هذه الأسماء والصفات على الحقيقة لا على المجاز، وأن لها معاني
حقيقية تليق بجلال الله وعظمته، وأدلة ذلك أكثر من أن تُحصر، ومعاني هذه الأسماء
ظاهر معروفة من القرآن كغيرها ليس فيها إشكال ولا غموض...) إلى أن قال: «...أما ما
ذكره في اللمعة فإنه ينطبق على مذهب المفوضة، وهو من شر المذاهب وأخبثها، والمصنف
رَحْمَةُ اللَّهِ إمام في السنة، وهو أبعد الناس عن مذهب المفوضة، وغيرهم من المبتدعة، والله
أعلم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم). اهـ. انظر: فتاوى ورسائل سماحة
الشيخ محمد بن إبراهيم رَحْمَةُ اللَّهِ، جمع وترتيب محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، (١/ ٢٠٢،
٢٠٣).

والقسم الثاني: لا يظهر لنا معناه، فهذا نفوضه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا غلط؛ لأن جميع نصوص الأسماء والصفات كلها معلومة المعنى، ليس فيها شيء مشتبه أو من المتشابه، فليست نصوص الأسماء والصفات من المتشابه، ولا تدخل في المتشابه؛ كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، وأخبر أنه لم يجد في كلام السلف ولا في كلام العلماء المعتبرين من قال: إن الأسماء أو الصفات أو شيئاً منها من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، فكل نصوص الأسماء والصفات من المحكم الذي يُعلم معناه، ويُفسر، ويُوضح، وليس فيها شيء من المتشابه، الذي لا يُعلم معناه - كما يقول هنا -، وإنما الله جَلَّ وَجَلَّ أخبر أنه أنزل الكتاب ﴿ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ [آل عمران: ٧] ^(١)، ما معنى المتشابهات والمحكمات؟ قالوا:

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٩٤ - ٢٩٥): (وَأَمَّا إِذْخَالَ أَسْمَاءَ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ أَوْ بَعْضَ ذَلِكَ فِي الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ. أَوْ اعْتِقَادُ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمُتَشَابِهُ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِ تَأْوِيلِهِ كَمَا يَقُولُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَوْلَيْنِ طَوَائِفٌ مِنْ أَصْحَابِنَا وَغَيْرِهِمْ. فَإِنَّهُمْ وَإِنْ أَصَابُوا فِي كَثِيرٍ مِمَّا يَقُولُونَهُ وَنَجَّوْا مِنْ بَدَعٍ وَقَعَ فِيهَا غَيْرُهُمْ فَالْكَلَامُ عَلَى هَذَا مِنْ وَجْهَيْنِ: الْأَوَّلُ: مَنْ قَالَ: إِنَّ هَذَا مِنَ الْمُتَشَابِهِ وَأَنَّهُ لَا يُفْهَمُ مَعْنَاهُ فَنَقُولُ أَمَّا الدَّلِيلُ عَلَى بُطْلَانِ ذَلِكَ فَإِنِّي مَا أَعْلَمُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ سَلَفِ الْأُمَمِ وَلَا مِنْ الْأَئِمَّةِ لَا أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ وَلَا غَيْرَهُ أَنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ الدَّاخِلِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَنَفَى أَنْ يَعْلَمَ أَحَدٌ مَعْنَاهُ. وَجَعَلُوا أَسْمَاءَ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ بِمَنْزِلَةِ الْكَلَامِ الْأَعْجَمِيِّ الَّذِي لَا يُفْهَمُ وَلَا قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ كَلَامًا لَا يُفْهَمُ أَحَدٌ مَعْنَاهُ وَإِنَّمَا قَالُوا كَلِمَاتٍ لَهَا مَعَانٍ صَحِيحَةٌ. قَالُوا فِي أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ: تَمَرٌ كَمَا جَاءَتْ. وَتَمَرٌ عَنْ تَأْوِيلَاتِ الْجَهْمِيَّةِ وَرَدُّوَهَا وَأَبْطَلُوهَا الَّتِي مَضْمُونُهَا تَعْطِيلُ النُّصُوصِ عَمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ. وَنُصُوصُ أَحْمَدَ وَالْأَئِمَّةِ قَبْلَهُ بَيِّنَةٌ فِي أَنَّهُمْ كَانُوا يُبْطِلُونَ تَأْوِيلَاتِ الْجَهْمِيَّةِ وَيُقِرُّونَ النُّصُوصَ عَلَى مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ مَعْنَاهَا وَيَفْهَمُونَ مِنْهَا =

(المحكم: هو الواضح المعنى، الذي لا يحتاج في تفسيره إلى شيء غيره، وأما المتشابه: فهو الذي يحتاج في تفسيره وبيان معناه إلى نص آخر يفسره).

هناك نصوص مشككة، لكن إذا رُدت إلى النصوص الأخرى التي توضحها، زال الإشكال، واتضح الحق.

قالوا: (وهذا مثل العام والخاص، والمطلق والمقيد، والناسخ والمنسوخ، والمجمل والمفصل)، هذا هو معنى المحكم والمتشابه^(١).

وهذا موجود في القرآن وفي السنة، هناك نصوص أو أدلة مشككة، فترد إلى النصوص الأخرى، وكلام الله يفسر بعضه بعضاً، وكلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفسر بعضه بعضاً. هذا معنى المحكم والمتشابه.

=بَعْضُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ كَمَا يَفْهَمُونَ ذَلِكَ فِي سَائِرِ نُصُوصِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالْفَضَائِلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَأَحَدٌ قَدْ قَالَ فِي غَيْرِ أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ: تَمَرُّ كَمَا جَاءَتْ وَفِي أَحَادِيثِ الْوَعِيدِ مِثْلُ قَوْلِهِ: «مَنْ عَشَنَّا فَلَيْسَ مِنَّا» وَأَحَادِيثِ الْفَضَائِلِ وَمَقْصُودُهُ بِذَلِكَ أَنَّ الْحَدِيثَ لَا يُحَرِّفُ كَلِمَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ كَمَا يَفْعَلُهُ مَنْ يُحَرِّفُهُ وَيُسَمِّي تَحْرِيفَهُ تَأْوِيلًا بِالْعُرْفِ الْمُتَأَخَّرِ. فَتَأْوِيلُ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخَّرِينَ عِنْدَ الْأَئِمَّةِ تَحْرِيفٌ بَاطِلٌ وَكَذَلِكَ نَصُّ أَحَدٍ فِي كِتَابِ «الرَّدِّ عَلَى الزَّائِدَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ» أَنَّهُمْ تَمَسَّكُوا بِمُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ وَتَكَلَّمَ أَحَدٌ عَلَى ذَلِكَ الْمُتَشَابِهِ وَبَيَّنَ مَعْنَاهُ وَتَفْسِيرَهُ بِمَا يُجَالَفُ تَأْوِيلَ الْجَهْمِيَّةِ وَجَرَى فِي ذَلِكَ عَلَى سُنَنِ الْأَئِمَّةِ قَبْلَهُ. فَهَذَا اتِّفَاقٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ عَلَى أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مَعْنَى هَذَا الْمُتَشَابِهِ وَأَنَّهُ لَا يُسَكَّتُ عَنْ بَيَانِهِ وَتَفْسِيرِهِ بَلْ يُبَيَّنُ وَيُفَسَّرُ بِاتِّفَاقٍ الْأَئِمَّةِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ لَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ أَوْ إِلْحَادٍ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ).

(١) انظر في معنى المحكم والمتشابه: تفسير الطبري (١٩٢/٥-٢٠١)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/٣٧٦-٣٧٧)، وزاد المسير (١/٢٥٨-٢٦٠)، والقرطبي (٤/٩-١١)، وابن كثير (٢/٦-٧).

فقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾؛ أي: القرآن ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُخَكَّمَةٌ﴾ [آل عمران: ٧]، المحكم: هو الواضح في معناه، الذي لا يحتاج في تفسيره إلى غيره، هذا هو المحكم، مثل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، هذا ما يحتاج في تفسيره إلى غيره، ﴿حُرِّمَتْ﴾ معناه: حرام، والتحريم: المنع. ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾، هذا واضح في معناه أن البيع حلال ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، هذا واضح أن الربا حرام، واضح ما يحتاج في تفسيره إلى شيء آخر، واضح في نفسه.

ومنه آيات الأسماء والصفات من هذا النوع، من المحكم الواضح في معناه، الذي لا يحتاج في تفسيره إلى شيء آخر، (السميع) معروف في لغة العرب الذي يسمع، (البصير) الذي يبصر، (القدير) الذي يقدر، (الحكيم) الذي له الحكمة في أفعاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَقْدَارُهُ، واضح ما يحتاج إلى غيره في تفسيره. نصوص الصفات كلها من هذا القسم؛ من المحكم.

﴿وَأُخْرُ مُتَشَبِهَةٌ﴾ [آل عمران: ٧]، المتشابه قالوا فيه أقوال كثيرة، لكن أقربها: أنه الذي يحتاج في تفسيره إلى غيره، المتشابه: هو المشكل الذي لا يتضح معناه بنفسه، وإنما يفسره غيره من النصوص الأخرى، هذا هو المتشابه؛ ولهذا قال عن المحكمات: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، وأم الشيء أصله الذي يُرجع إليه ﴿وَأُخْرُ مُتَشَبِهَةٌ﴾؛ يعني: مشكلات في معانيها، فترد إلى المحكم، ترد إلى الأصل، فتفسرها النصوص المحكمة، وذلك مثل المُجْمَل، فالمُجْمَل يحتاج في بيانه إلى غيره؛ مثل:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، الأمر هنا مجمل، الصلاة ما هي؟ يحتاج في تفسيرها إلى الرجوع إلى سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تفسرها سنة الرسول الذي أوكل إليه البيان في التفسير.

﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، زكاة ماذا؟ ما بينها في القرآن، بينها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسنة، فهذه تحتاج في تفسيرها إلى نصوص أخرى من الكتاب أو من السنة النبوية.

كذلك المطلق الذي جاء ما يقيده؛ مثل: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المجادلة: ٣]؛ مطلقة، وفي آية أخرى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، إذا قيدها بالمؤمنة، فيحمل المطلق على المقيد، ويبيّن أن المراد الرقبة المؤمنة لا الكافرة؛ مثل: النص المنسوخ يُرجع فيه إلى الناسخ؛ لأن القرآن فيه ناسخ ومنسوخ، والسنة فيها ناسخ ومنسوخ، فيُرجع الناسخ إلى المنسوخ، فيُعمل بالمنسوخ؛ مثل: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْلَعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، لو أخذنا بظاهر هذه الآية، لصارت المتوفى عنها تعتد سنة، لكن نسخها قوله تعالى في الآية التي قبلها: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرَبِّصْنَ أَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، فهذه الآية ناسخة لآية: ﴿وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْلَعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾، فنسختها هذه الآية، وصارت العدة أربعة أشهر وعشرة أيام.

إذا تكون آية: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْلَعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ من المشابهة، وآية ﴿يَرَبِّصْنَ أَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ

أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴿ من المحكم، فأية الحول تنسخها آية أربعة أشهر وعشرة أيام، فيعمل بالناسخ، ويترك المنسوخ.

وهكذا آيات كثيرات من هذا النوع الناسخ والمنسوخ في القرآن، تكفل العلماء، فألفوا فيه مؤلفات في الناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، وبيان المخصصات وأنواع المخصصات، هذا مفصل في كتب أصول التفسير وأصول الفقه، وكذلك أصول الحديث، أو ما يسمى بالمصطلح، فهذا هو المحكم والمتشابه.

فالراسخون في العلم يردون المتشابه إلى المحكم، ويفسرون كلام الله بعضه ببعض، ويفسرون كلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعضه ببعض، أو يفسرون كلام الله بسنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويفسرون سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكلام الله؛ لأنه كل من عند الله، ولهذا يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٧]؛ أي: المحكم والمتشابه.

أما أهل الزيغ -والعياذ بالله-، فإنهم يأخذون المتشابه، ويستدلون به، ويتركون المحكم، ولا يردون المتشابه إلى المحكم لمقصد سيء عندهم؛ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾؛ فتنه للناس عن دينهم، ويقولون: (هذا كلام الله، وهذا كلام الرسول)، فيفتنون الناس عن دينهم، إذا جاءوا لهم بآية متشابهة، أو بحديث متشابه، قالوا: (هذا كلام الله، وهذا كلام الرسول، ماذا تقولون؟!)، فيشبهون على الناس أنهم يستدلون بكلام الله وكلام رسوله؛ فيفتنونهم عن دينهم.

مثال ذلك: بعض الجهال الآن الذين يبحثون عن نصوص متشابهة من الحديث، ثم يخرجون بها على الناس، يقولون: (نستدل بهذا الحديث)؛ ليشوشوا على الناس أنهم ليسوا على الحق، وهذه الأحاديث التي جاءوا بها ما خفيت على أهل العلم، فأهل العلم فسروها، وبينوا المراد منها، لكن هؤلاء يقطعون هذا عن هذا؛ ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧] هذه طريقة أهل الزيغ في كل زمان ومكان؛ يفصلون كلام الله بعضه عن بعض، وكلام الرسول بعضه عن بعض، ويقولون: (نحن نستدل بكلام الله وكلام رسوله).

نقول: لا. لم تستدلوا بكلام الله وكلام رسوله، لو استدللتم بكلام الله وكلام الرسول، لأرجعتم التشابه إلى المحكم، أما أنكم تأخذون بطرف، وتتركون الطرف الآخر، فهذا ليس استدلالاً بكلام الله، ولا بكلام رسوله صلى الله عليه وسلم؛ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾، هذه طريقة أهل الزيغ دائماً وأبداً، نسأل الله العافية!

أنواع التأويل:

النوع الأول: أن المراد بالتأويل: التفسير وبيان المعنى، وهذا هو المعروف عند المتقدمين كابن جرير^(١) وغيره، يسمون التفسير بالتأويل،

(١) محمد بن جرير بن يزيد أبو جعفر الطبري، الإمام العلم المجتهد، أحد أئمة العلماء يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان ثقة صادقاً حافظاً رأساً في التفسير إماماً في الفقه والإجماع والاختلاف علامة في التاريخ وأيام الناس عارفاً بالقراءات وباللغة وغير ذلك، توفي سنة ٣١٠ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٦٧)، وطبقات الشافعية (٢/ ١٠٠)، وطبقات السبكي (٣/ ١٢٠).

فعلى هذا المعنى يكون الراسخون في العلم معطوفين على لفظ الجلالة؛ ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾؛ أي: تفسيره ﴿إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ يعلمون ذلك، بخلاف غير الراسخين في العلم؛ فإنهم لا يعلمون معنى المحكم والمتشابه، وهذه قراءة لبعض القراء أن الوقف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ **إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**، فيكون الله جلَّ وعَلَا يعلم ما أنزل، والراسخون في العلم يعلمون ذلك بما علمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنهم ورثة الأنبياء، وأما من دونهم من المتعلمين والمبتدئين، فإنهم لا يصلون إلى هذه الدرجة.

والمعنى الثاني للتأويل: معرفة الحقيقة التي يؤول إليها الشيء في المستقبل^(١)، وعلى هذا المعنى يتعين الوقف على لفظ الجلالة؛ ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ **إِلَّا اللَّهُ**؛ لأنه لا يعلم حقائق هذه الأشياء التي ذكرها الله في القرآن من الجنة والنار وما يكون في يوم القيامة وما يكون في المستقبل لا يعلم حقيقته وكيفيته إلا الله جلَّ وعَلَا، وكذلك الأسماء والصفات لا يعلم حقيقتها وكيفيتها إلا الله جلَّ وعَلَا، فيتعين الوقف على لفظ الجلالة.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾؛ أي: هل ينتظرون، ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾؛ أي: ما يؤول إليه في المستقبل، ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾؛ أي: حقيقته وكيفيته التي أخبر الله عنها ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣]، إذا عاينوا يوم

(١) انظر: مادة: (أ ول) في لسان العرب (١١/٣٢)، مختار الصحاح (ص ٢٠)، القاموس المحيط (١٢٤٤).

القيامة حقائق ما أخبر الله عنه من المغيبات، عرفوا أنهم قد أخطؤوا، وأنهم قد قصرُوا، وأنهم قد أهملُوا، فيتمنون الرجوع، أو أن أحداً يشفع لهم.

وكذلك قوله تعالى في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام لما رفع أبويه على العرش، وخروا له سجداً: ﴿وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]؛ أي: هذا بيان حقيقتها ومآلها قد وقع الآن واتضح؛ لأنه في أول السورة يقول: ﴿يَتَابَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، ما وقع تأويل هذا وبيانه، إلا بعد مدة طويلة حينما ذهب أبوه وأمه وإخوته إلى مصر بعد أن صار ملكاً عليها، ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَاهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ١١ ﴿وَرَفَعَ أَبَوَاهُ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: ٩٩-١٠٠]، العرش: كرسي الملك ومجلس الملك ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾؛ سجود تحية، وهذا كان جائزاً في دينهم، فنسخ ذلك في شريعتنا، ومنع من السجود للمخلوق، فهذا تأويل الرؤيا السابقة، هذا تأويلها وحقيقتها.

هذا معنى التأويل في القرآن أنه على قسمين:

القسم الأول: معرفة المعنى.

القسم الثاني: أنه معرفة الحقيقة والكيفية التي يؤول إليها الشيء في المستقبل.

أما الأول، فيعلمه العلماء، وأما الثاني، فلا يعلمه إلا الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهناك معنى ثالث للتأويل مُحدث، أحدثه علماء الكلام: وهو صرف

اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر بدليل يقترب بذلك - بزعمهم^(١). فهذا معنى التأويل عند المتأخرين من أهل الكلام ومن اقتدي بهم، ولا أصل له في كتاب الله ولا في سنة رسول الله، وإنما هو اصطلاح اصطلاحوه، لذلك يؤولون اليد بالقدرة، ويؤولون الوجه بالذات، ويؤولون الرحمة بإرادة الإنعام، والغضب بإرادة الانتقام، والنزول والمجيء بمجيء أمره ونزول أمره، وهكذا يحولون اللفظ ويفسرونه بغير معناه، هذا هو التأويل المذموم، وهو اصطلاح محدث. أما التأويل الصحيح فهو ما ذكر في القرآن، وهو على نوعين؛ كما أسلفنا^(٢). أما أهل الزيغ الذين في قلوبهم زيغ فإنهم يأخذون بالمتشابه، ولا يردونه إلى المحكم، يأخذون بالمتشابه، ويتركون المحكم، ويقولون: (نحن استدللنا بالقرآن).

فيقول الخوارج^(٣): ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، فيقولون: هذه الآية تدل على أن العاصي كافر، وأنه

(١) انظر: المختصر في أصول الفقه لابن اللحام (ص ١٣١)، والمدخل لابن بدران (١٨٨)، وروضة الناظر (ص ١٧٨)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص ١٨٢-١٨٥).
(٢) انظر معاني التأويل في: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ٦٨-٦٩)، (١٣/ ٢٨٨ - ٢٩٤)، ودرء التعارض له (١/ ٢٠١-٢٠٨)، والصفدية (١/ ٢٩١).

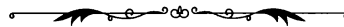
(٣) هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه حين جرى أمر المحكمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، وفيهم قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَمُرُّونَ مِنَ الدِّينِ، كَمَا يَمُرُّ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَةِ». أخرجه البخاري (٢٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وكل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان. انظر: مقالات الإسلاميين (ص ٤، ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص ٥٤)، والمثل والنحل (١/ ١١٤).

مخلد في النار)، ولا يردون هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وإلى قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجَتَنَّبُوا كِبَارَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، وكذلك يأخذون قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»^(١) في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]، فيكفرون القاتل، ولا يرجعون إلى قوله تعالى: ﴿وَلِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، سباهم مؤمنين، وهم يتقاتلون، وأمر بالإصلاح بينهم، وجعلهم من إخواننا، وهم يتقاتلون، فدل على أن القاتل لا يكفر، فلما ذكر القصاص: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [البقرة: ١٧٨]؛ من أخيه: القاتل، فجعل القاتل أخًا للقاتل، فدل على أن القاتل لا يكفر، وأنه أخ للقاتل بالإيمان ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فأهل الزيف يأخذون طرفاً من الأدلة، وهو متشابه، ويتركون الطرف الآخر الذي يوضحه ويفسره؛ ابتغاء الفتنة، من أجل صرف الناس عن الحق وتشكيك الناس في الدين.

ويقولون: (إننا نستدل بالقرآن)، أو (نستدل بالأحاديث)، والصواب أنهم لم يستدلوا لا بالقرآن ولا بالأحاديث؛ لأن هذا ليس استدلالاً صحيحاً، قطع النصوص بعضها عن بعض ليس استدلالاً صحيحاً، بل هو استدلال

(١) أخرجه البخاري (١٢١)، ومسلم (١١٨) (٦٥) من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

باطل؛ ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧]، فترجع الأدلة بعضها إلى بعض، ولا يضرب كتاب الله بعضه ببعض، أو كلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يضرب بعضه ببعض، وإنما يرجع بعضه إلى بعض، ويُفسر بعضه ببعض، ولهذا يقول الراسخون في العلم: ﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]؛ المحكم والمتشابه، فما دام أن كله من عند ربنا، فإنه يفسر بعضه بعضًا، وكلام الله جَلَّ وَعَلَا لا يتناقض؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلُفْقَرَأَنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فكلام الله ليس فيه اختلاف، وليس فيه تناقض، ولكن يحتاج إلى إيمان وإلى علم راسخ بوجوه الاستدلال وكيفية الاستدلال بالنصوص، ويحتاج إلى بصيرة وإلى رسوخ في العلم، بحيث يعرف المجتهد، ولذلك يشترطون في المجتهد أن يكون عالمًا بكتاب الله وبسنة رسول الله، ويعرف الناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، والمحكم والمتشابه، يجب عليه أن يعرف هذه الأمور، وإلا فإنه لا يسوغ له الاجتهاد والكلام في مسائل العلم، حتى يعرف هذه الأمور؛ لئلا يقع فيما وقع فيه أهل الزيغ.



وَقَالَ فِي ذَمِّ مُبْتَغِي التَّأْوِيلِ لِمُتَشَابِهِ تَنْزِيلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران: ٧]، فَجَعَلَ ابْتِغَاءَ التَّأْوِيلِ عَلَامَةً عَلَى الزَّيْغِ، وَقَرَنَهُ بِابْتِغَاءِ الْفِتْنَةِ فِي الذَّمِّ، ثُمَّ حَجَبَهُمْ عَمَّا أَمَلُوهُ، وَقَطَعَ أَطْمَاعَهُمْ عَمَّا قَصَدُوهُ، بِقَوْلِهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧].

الشرح

قال رحمه الله: (وَقَالَ فِي ذَمِّ مُبْتَغِي التَّأْوِيلِ لِمُتَشَابِهِ تَنْزِيلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران: ٧]، فَجَعَلَ ابْتِغَاءَ التَّأْوِيلِ عَلَامَةً عَلَى الزَّيْغِ، وَقَرَنَهُ بِابْتِغَاءِ الْفِتْنَةِ فِي الذَّمِّ)، ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِ الْمُتَشَابِهِ عَلَامَةً عَلَى الزَّيْغِ، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾؛ أي: انحراف، والزَّيْغُ معناه: الانحراف عن الحق، ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾؛ يأخذون بطرف واحد فقط من الأدلة، ويتركون الطرف الآخر، ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾، ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ أي: تفسيره على المعنى الأول، أو ما يؤول إليه في المستقبل، وهو التفسير الثاني، وكلاهما باطل، سواء ابتغوا التفسير الذي هو بيان المعنى، فإن المعنى لا يتضح إلا برده إلى المحكم، أو بالمعنى الثاني، وهو ابتغاء الحقيقة والمآل الذي يؤول إليه، فإنهم لا يدركون هذا.

الأول: يعلمه الله والراسخون في العلم، أما الثاني: فلا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، سواء أرادوا هذا أو هذا، هم أهل زيغ، ما داموا يأخذون

بعض النصوص، ويتركون بعضها الآخر، يأخذون ما يصلح لهم، ويتركون ما لا يصلح لهم، ويخالف أهواءهم، فهم أهل زيغ، يريدون الفتنة بالناس وصرف الناس عن الدين، ويريدون التشكيك في كلام الله وكلام رسوله، بحجة أنهم يستدلون بالقرآن أو السنة؛ بأن أخذوا طرفاً منهما، وتركوا الطرف الآخر، وهذا ليس استدلالاً بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما هو تمويه على الناس، والنبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ»^(١)؛ أي: الذين سمى الله في هذه الآية: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾، فاحذروهم، لا تقبلوا كلامهم، أو يروج عليكم كلامهم؛ لأنه باطل.

حذرنا النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا الصنف من الناس، وهم المتعاملون الذين لم يبلغوا درجة من العلم تؤهلهم للكلام في العلم، أو أنهم على علم، لكن يريدون تضليل الناس وصرفهم عن الحق.

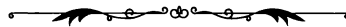
فهؤلاء بين أمرين: إما أنهم جهال، دخلوا فيما لا يحسنون، وإما أنهم ضلال، يريدون ضرب كلام الله وكلام رسوله ببعضهما ببعض.

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ».

فهم أهل زيغ على كل حال -نسأل الله العافية-، سواء قصدوا هذا الزيغ، أو لم يقصدوه.

فلا يسوغ لأحد أن يتكلم في كلام الله وكلام رسوله، إلا إذا كان لديه ملكة علمية تؤهله لأن يكون من الراسخين في العلم الذين رسخت علومهم -والرسوخ معناه: الثبوت-؛ أي: رسخت قلوبهم وأقدامهم بالعلم النافع، فهؤلاء هم الذين لهم الحق في الكلام، وهذا ينطبق على علماء السلف وعلى من تبعهم واقتفى آثارهم من علماء الخلف، هؤلاء هم الراسخون في العلم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثُمَّ حَبَّبَهُمْ عَمَّا أَمَلُوهُ، وَقَطَعَ أَطْمَاعَهُمْ عَمَّا قَصَدُوهُ، بِقَوْلِهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧])، بين سبحانه أنهم لن يبلغوا ما أرادوا؛ حيث قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، أما هؤلاء، فلم يبلغوا هذه المرتبة التي يحاولونها من غير مؤهلات، ومن غير بصيرة، فالتعلم لا يمكن أن يكون علماً أبداً، مهما حاول، ولو أكثر الحفظ والكلام والكتابات والتعليقات، فلن يكون علماً أبداً، وكذلك الزائع -والعياذ بالله- الضال المنحرف، فإنه لن يكون من العلماء الراسخين في العلم، بل يُجرم نور العلم، ويُجرم هداية العلم؛ كحال أهل الكتاب، فإنهم عندهم علم، لكن ليسوا راسخين في العلم؛ لأنهم يريدون الضلال، ويريدون الزيغ، ويريدون التشكيك في كتاب الله عَزَّجَلَّ.



قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا»^(١)، وَ«إِنَّ اللَّهَ يُرَى فِي انْقِيَامَةِ»^(٢)، وَمَا أَشْبَهَ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ، قَالَ: نُؤْمِنُ بِهَا وَنُصَدِّقُ بِهَا، لَا كَيْفَ وَلَا مَعْنَى^(٣)، وَلَا نَرُدُّ شَيْئًا مِنْهَا، وَنَعْلَمُ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ حَقٌّ، وَلَا نَرُدُّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا نَصِفُ اللَّهَ بِأَكْثَرِ مِمَّا وَصَفَ بِهِ نَفْسُهُ، بَلَا حَدٍّ وَلَا غَايَةٍ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وَنَقُولُ كَمَا قَالَ، وَنَصِفُهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسُهُ، لَا نَتَعَدَّى ذَلِكَ، وَلَا يَبْلُغُهُ وَصْفُ الْوَاصِفِينَ، نُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ كُلِّهِ مُحْكَمِهِ وَمُتَشَابِهِهِ، وَلَا نُزِيلُ عَنْهُ صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ لِشِنَاعَةٍ شُنِعَتْ، وَلَا نَتَعَدَّى الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ، وَلَا نَعْلَمُ كَيْفَ كُنْهَ ذَلِكَ إِلَّا بِتَصَدِيقِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَثْبِيتِ الْقُرْآنِ^(٤).

(١) حديث النزول رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ». هذا لفظ البخاري.

(٢) أحاديث الرؤية متواترة كما ذكر هذا عدد من أهل العلم، منهم العلامة ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص ١٥٨-١٦٠)، وانظر: صحيح البخاري (٥٧٣)، ومسلم (٢٩٦) (١٨٠)، (٢٩٧) (١٨١)، (٢٩٨) (١٨٢).

(٣) انظر: ذم التأويل (ص ٢٠)، وإثبات صفة العلو (ص ٢٥)، لابن قدامة، ومجموع الفتاوى (٨٦/٥)، وفتح الباري (١٣/٤٠٧)، ولمعة الاعتقاد (ص ٣٢).

(٤) ذكر معنى هذا الكلام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ (ص ٨٧) تَرْجُمَةُ الْإِمَامِ أَحْمَد رَحِمَهُ اللَّهُ، وَانْظُرْ: بَيَانُ تَلْبِيسِ الْجَهْمِيَةِ (١/٤٣١) لَشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ. وَاجْتِمَاعُ الْجِيُوشِ الْإِسْلَامِيَّةِ لَابْنِ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ (ص ١٣٢).

الشرح

قال رحمه الله: (قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، أحد الأئمة الأربعة، وإمام أهل السنة الصابر على المحنة، الذي ابتلي، فصبر، وثبت حتى نصر الله به هذه العقيدة، وقمع به أهل الزيغ من الجهمية^(١) والمعتزلة^(٢)، فلم يتمكنوا من تنفيذ فكرتهم الخبيثة، وهي القول بخلق القرآن؛ حيث وقف رحمه الله سداً حائلاً، ووقف معه الأئمة الموقف الحازم، لكن هو أقوى من وقف في هذا

(١) هم أتباع الجهم بن صفوان أبي محرز الراسبي، مولا هم السمرقندي، الضال المبتدع رأس الجهمية هلك في زمان صغار التابعين، وقد زرع شراً عظيماً، وهو رأس في التعطيل، قُتل سنة ١٢٨ هـ، قتله سلم بن أحوز. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/٨٦)، والفرق بين الفرق (ص ١٩٩)، وميزان الاعتدال للذهبي (٢/١٥٩)، والتعريفات للجراني (ص ١٠٨)، وفتح الباري (١٣/٣٤٥)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (٥٣٩).

(٢) هي إحدى الفرق الضالة المخالفة لأهل السنة والجماعة، ورأس هذه الفرقة واصل بن عطاء الغزال، كان تلميذاً في مجلس الحسن البصري، فأظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين وأن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر، فطرده الحسن من مجلسه، وانضم إليه عمرو ابن عبيد، واعتزلا مجلس الحسن، فسموا بالمعتزلة لذلك، ويلقبون بالقدرية لإسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم وإنكارهم القدر فيها.

وقد افترقت المعتزلة إلى فرق شتى يجمعهم القول بنفي الصفات، والقول بخلق القرآن، وأن العبد يخلق فعل نفسه، ولهم أصول خمسة جعلوها بمنزلة أركان الإيمان عند أهل السنة، وهي: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإنما أرادوا بهذه المسميات معاني باطلة.

انظر: الملل والنحل (١/٣٠ - ٣٢)، والفرق بين الفرق (ص ١٨، ٩٣، ٩٤)، والبدء والتاريخ (٥/١٤٢)، وسير أعلام النبلاء (٥/٤٦٤)، ووفيات الأعيان (٦/٨)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص ٥٣٧-٥٣٩).

المقام، وصبر على الأذى، وضرب، وسُجن، وحُمل إلى المشرق للقتل، ولكنه صبر رَحْمَةُ اللَّهِ حتى نصر الله به الملة، وقمع به الجهمية والمعتزلة، ولم يستفيدوا من قوتهم واستمالتهم للحاكم في وقتهم، ورد الله كيدهم في نحورهم بسبب موقف هذا الإمام الجليل الإمام أحمد بن حنبل رَحْمَةُ اللَّهِ^(١).

لما ذكر المصنف رَحْمَةُ اللَّهِ وجوب الإيمان بنصوص الأسماء والصفات على ما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أراد أن يذكر مذهب السلف، ونماذج من أقوالهم في هذا المقام، فذكر كلاماً للإمام أحمد، وكلاماً للإمام الشافعي، وكلاماً لعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكلاماً لأmir المؤمنين الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رَحْمَةُ اللَّهِ، وكلاماً للأوزاعي إمام أهل السنة في وقته، كل هذا سيأتي -إن شاء الله، فهذه نماذج من أقوال السلف الصالح في هذا الباب.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (فِي قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا»، وَ«إِنَّ اللَّهَ يُرَى فِي الْقِيَامَةِ»، وَمَا أَشْبَهَ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ، قَالَ: نُوْمِنُ بِهَا وَنُصَدِّقُ بِهَا)، يقول الإمام أحمد رَحْمَةُ اللَّهِ: (نُوْمِنُ بِهَا)؛ أي: بهذه النصوص؛ نزول الله جَلَّ وَعَلَا إلى سماء الدنيا، وما أشبه ذلك، وأنه يُرى يوم القيامة عياناً بالابصار، يراه المؤمنون بأبصارهم عياناً، وما أشبه هذه النصوص.

(١) هو أحد الأعلام من أئمة الإسلام، إمام المحدثين، والناصر للدين، والمناضل عن السنة، والصابر في المحنة، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الذهلي الشيباني المروزي ثم البغدادي، ولد ببغداد سنة أربع وستين ومائة، وتوفي في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين ومائتين. انظر: سيرة الإمام أحمد بن حنبل لأبي الفضل صالح بن أحمد بن حنبل (ص ٢٩ وما بعدها)، وتاريخ دمشق (٢٥٢/٥)، وسير أعلام النبلاء (١١/١٧٨)، والبداية والنهاية (١٠/٣٢٥)، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢/٢٧).

يقول: (نُؤْمِنُ بِهَا، وَنُصَدِّقُ بِهَا)؛ خِلَافًا لِلْمُبْتَدِعَةِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، وَيَقَابِلُونَهَا بِالتَّكْذِيبِ أَوْ بِالتَّأْوِيلِ وَالتَّحْرِيفِ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَا كَيْفَ)؛ لَا نَبْحَثُ عَنْ كَيْفِيَّتِهَا، يُقَالُ: يَنْزِلُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، كَيْفَ يَنْزِلُ؟! الْكَيْفِيَّةُ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ، فَهُوَ يَنْزِلُ كَمَا شَاءَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ عَظَمَتَهُ سُبْحَانَهُ وَقُدْرَتَهُ إِلَّا اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا، فَنَحْنُ لَا نَبْحَثُ عَنْ كَيْفِيَّةِ نَزْوِلِهِ؛ هَلْ يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ؟ أَوْ لَا يَخْلُو؟ وَهَلْ وَهَل؟ وَكَيْفَ يَنْزِلُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، وَثَلْثُ اللَّيْلِ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَقَالِيمِ؟ مِنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَقَالِيمَ؟ وَمَنِ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ؟ هُوَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا؛ فَهُوَ الْقَادِرُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَنْزِلَ كَيْفَ يَشَاءُ، وَإِنْ كَانَتْ تَخْتَلِفُ الْأَقَالِيمُ فِي ثَلْثِ اللَّيْلِ، هَذَا بِالنِّسْبَةِ لَنَا، أَمَا بِالنِّسْبَةِ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَلَا تَدْخُلُ فِي كَيْفِيَّةِ نَزْوِلِهِ.

ومثل: يُرَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَيْفَ يُرَى؟ نقول: لَا نَبْحَثُ فِي هَذَا، تُثَبَّتْ أَنَّهُ يُرَى بِالْأَبْصَارِ عَيْنَانًا؛ كَمَا يُرَى الْقَمَرُ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَكَمَا تُرَى الشَّمْسُ صَحْوًا، لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ^(١)، نُؤْمِنُ بِهَذَا، وَلَا نَبْحَثُ فِي كَيْفِيَّةِ الرُّؤْيَا؛ لِأَنَّ هَذَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٨٠٦، ٦٥٧٣)، وَمُسْلِمٌ (١٨٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ أَنَسٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ»، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ...».

وحديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٥٤)، وَمُسْلِمٌ (٢١١) (٦٣٣) عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَظَنَرُ إِلَى الْقَمَرِ =

يحيى؛ ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، كيف يحيى؟ نقول: لانبث عن
الكيفية كيف يحيى، لكن ثبت أنه يحيى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كما يليق بجلاله، فنحن
نؤمن بالصفات، ونعرف معناها، ولكن لا نبث في كيفيتها، ولهذا قال:
(لا كَيْفَ).

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَلَا مَعْنَى)، المراد بهذه اللفظة أي: المعنى الذي يفسره به
المبتدعة، وهو التأويل، ليس المراد نفي المعنى الحقيقي؛ فإن معناها معروف؛
كما يقول الإمام مالك: «الاستِواءُ معلومٌ، والكَيْفُ مجهولٌ، والإيمانُ بهِ
واجِبٌ، والسُّؤالُ عنه -أي: عن الكيفية- بدعةٌ»^(١).

فمعنى قوله: (وَلَا مَعْنَى)؛ أي: المعنى الذي يريده أهل الضلال، وهو
التأويل؛ مثل: تأويل اليد بالقدرة، والمجيء بمجيء أمره، والتزول بتزول
أمره، وما أشبه ذلك.

هذه معانٍ جاؤوا بها هم، ونحن ننفيها، وليست هي المعاني التي أرادها
الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهو لا يريد نفي المعنى الذي هو معنى الكلام في اللغة العربية، وإنما
يريد نفي المعنى المحدث؛ لأنه يرد على المبتدعة، فهو يرد المعنى الذي قصدوه
وأحدثوه.

=لَيْلَةً -يَعْنِي الْبَدْرَ- فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُصَاثُونَ فِي
رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»،
ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات
(٢/ ٣٠٤ - ٣٠٥)، وفي الاعتقاد (ص ١١٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والذهبي
في سير أعلام النبلاء (٨/ ١٠٠)، وفي العلو (ص ١٣٩).

فلا يتعلق بهذه العبارة من يريد التلبيس، ويقول: (إن الإمام أحمد مُفوض، يقول: «لا معنى»، هذه طريقة المفوضة)، والإمام أحمد ليس من المفوضة، هو من المفوضة في الكيفية؛ لأن الكيفية يجب تفويضها، أما المعنى اللغوي، فهذا واضح، لا يُفوض، بل يُفسر ويبين.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا نَرُدُّ شَيْئًا مِنْهَا)؛ لا نرد شيئاً منها؛ كما يرده المبتدعة؛ لأنها تخالف عقولهم، فيردون النصوص، ويحكمون العقول.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَنَعْلَمُ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ حَقٌّ)، ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق، ليس فيه خطأ، وليس فيه تضليل ولا تلبس، وإنما هو حق على حقيقته، جاء به أصدق الخلق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي لا ينطق عن الهوى، الأمين المأمون صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما جاء به حق على ظاهره وعلى حقيقته.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا نَرُدُّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)؛ كما يفعل أهل الضلال، الذين يردون على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «يُنْزِلُ رَبُّنَا»، وهم يقولون: (ينزل أمره)، فيستدركون على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقولون: (ما بين الرسول الحقيقة، قال: «يُنْزِلُ رَبُّنَا»، والواقع أنه ينزل أمره)، فهذا استدراك على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكذلك: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] يقولون: (يجيء أمره)، هذا استدراك على القرآن، واستدراك على رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا نَصِفُ اللَّهَ بِأَكْثَرِ مِمَّا وَصَفَ بِهِ نَفْسُهُ)، كذلك نحن نتبع، ولا نبتدع، لا نصف الله بغير ما وصف به نفسه؛ لأن الأسماء والصفات

توقيفية، فنحن لا نسمي ربنا، ولا نصفه إلا بما جاء في الكتاب والسنة، ولا نُحدث له أسماء من عند أنفسنا، ولا نُحدث له صفات من عند أنفسنا، هذه قاعدة أن الأسماء والصفات توقيفية، لا يُثبت منها إلا ما جاء في الكتاب والسنة.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (بَلَا حَدَّ وَلَا غَايَةَ)؛ أي: أننا لا نكيف صفات الله سُبحَانَهُ وتَعَالَى، فنذكر حدودها وغاياتها وكيفيتها، هذا ليس من علمنا، ولا من مقدورنا، لا يعلم حدودها وغاياتها وكيفيتها إلا الله سُبحَانَهُ وتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ اللهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، هذه الآية الكريمة هي القاعدة في هذا الباب؛ أن الله جَلَّ وَعَلَا ليس كمثله شيء، وله أسماء وصفات، لا تُشبهها صفات وأسماء المخلوقين، وإن كانوا يوصفون بها، ويسمون بها، لكن مع الفارق العظيم؛ فالخالق له سمع والمخلوق له سمع، الخالق له بصر والمخلوق له بصر، الله يتكلم، والمخلوق يتكلم، لكن مع الفارق بين صفات الخالق وصفات المخلوق.

فنحن لا نُشبه صفات الرب جَلَّ وَعَلَا بصفات الخلق، بل نؤمن أن صفات الخالق تليق به، وخاصة به جَلَّ وَعَلَا، وصفات المخلوقين خاصة بهم، وتليق بهم؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ليس السمع كالسمع، ولا البصر كالبصر، ولا القدرة كالقدرة، ولا اليد كاليد، ولا الوجه كالوجه، فلا مشابهة بين صفات الخالق وصفات المخلوقين.

فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، هذا رد للتشبيه، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، هذا رد للتعطيل، رد على الذين ينفون أسماء الله وصفاته، وقد أثبت الله لذاته الأسماء والصفات، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، السميع: هذا اسم من أسمائه، والبصير: اسم من أسمائه، والسمع والبصر: صفتان من صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، فهو يسمع ويُبصر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما يفعله الخلق.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]؛ يبصر ما تعملونه، لا تخفون عليه - سبحانه.

﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ ۖ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢٢٠].

ويقول لموسى وهارون: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]؛ يسمع ما يقوله لهم فرعون، ويرى ما يقابلهم به من الجبروت والطغيان.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَنَقُولُ كَمَا قَال)، نقول كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، هذه الآية نتخذها قاعدة، ونرد بها على المشبهة، ونرد بها على المعطلة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَنَصِفُهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسُهُ، لَا نَتَعَدَّى ذَلِكَ)؛ نصفه بما وصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا نتعدى ذلك؛ لأن هذا الباب توقيفي، لا مدخل فيه للعقول والأفكار والاستحسانات.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا يَبْلُغُهُ وَصْفُ الْوَاصِفِينَ)، لا أحد يستطيع أن يصف الله جَلَّ وَعَلَا، وإنما الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي يصف نفسه، أو يصفه نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما غير النبي من الخلق، فلا يستطيع أن يصف الله جَلَّ وَعَلَا، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ [طه: ١١٠] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾؛ أي: بالله جَلَّ وَعَلَا، ﴿عِلْمًا﴾؛ أي: لا يعلمون عنه إلا ما علمهم إياه، أنت إذا كنت تجهل الشيء، هل تستطيع أن تصفه؟! لا تستطيع أن تصف شيئاً لا تعلمه، فأنت لا تعلم ذات الله جَلَّ وَعَلَا وأسمائه وصفاته، ولا تستطيع أن تصف ذاته سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وإنما هو الذي يصفها، أو يصفها رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما يوحيه إليه؛ لأنه أعلم بنفسه وبغيره جَلَّ وَعَلَا.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (تُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ كُلِّهِ مُحْكَمِهِ وَمُتَشَابِهِهِ)، هذه طريقة الراسخين في العلم، يقولون: (تُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ كُلِّهِ مُحْكَمِهِ وَمُتَشَابِهِهِ)؛ فنرد المتشابه إلى المحكم، ونفسره به؛ ﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، أما الذي يأخذ المتشابه، ويترك المحكم، فهذا يؤمن ببعض الكتاب، ويكفر ببعض، فالذي يأخذ أول الآية، ويقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ويقول: (هذا يدل على نفي الصفات؛ لأننا لو أثبتنا الصفات، أثبتنا المشابهة)، هذا من الذين في قلوبهم زيغ؛ لأنه لم يأخذ بالآية كلها، وفي آخرها يقول: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، أثبت لنفسه الأسماء والصفات، فدل على أن إثباتها لا يقتضي المشابهة.

وكذلك الذي يأخذ آخر الآية، ويقول: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾، هذا معناه أنه مشابه لخلقه، لا فرق بين سمع وبصر الخلق وسمع وبصر الخالق)،

نقول: هذا مشبه -والعياذ بالله-؛ لأنه يترك أول الآية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ويأخذ بآخرها، والذي يأخذ بأولها، ويترك آخرها هذا معطل، وأما المؤمن الموحد، فهو الذي يأخذ الآية كلها، ويقول: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا نُزِيلُ عَنْهُ صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ لِشَنَاعَةِ شُنْعَتِ)، ونحن ثبت ما وصف الله به نفسه، ولو شنع علينا المعطلة، وقالوا: (أنتم مشبهة، أنتم مجسمة، أنتم حشوية)... إلى آخر ما يقولون، فأهل الضلال يصفون أهل التوحيد والإثبات يصفونهم بأنهم مجسمة، ويصفونهم بأنهم مشبهة، إلى آخر ما يقولون، فنحن لا نعبأ بهذه المقالات، ما دمنا متمسكين بكتاب الله وسنة رسوله، فلا يضيرنا أن يقولوا فينا ما قالوا من الألقاب؛ لأننا نريد إرضاء ربنا، فلا نريد إرضاء الخلق.

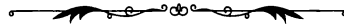
قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا نَتَعَدَّى الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ)، هذا يؤكد ما سبق؛ أن السماء والصفات توقيفية، وكذلك كل علم الغيب وأمور الآخرة، وأمور القبر، كلها من علم الغيب، لا نتدخل إلا حسب الدليل، ولا نتعدى الأدلة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا نَعْلَمُ كَيْفَ كُنْهُ ذَلِكَ إِلَّا بِتَصْدِيقِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَثْبِيتِ الْقُرْآنِ)، لا نعرف الكيفية، نحن نعرف المعنى، ونثبتها، لكن لانعرف كيفية الأسماء والصفات، ولذلك لما قال رجل للإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: (الرحمن على العرش استوى، كيف استوى؟)، يسأله عن الكيفية، فأطرق الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، ثم رفع رأسه، وقد علتة الرخصاء -يعني: العرق-؛ حياءً من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقال: «الاستواءُ معلومٌ، والكَيْفُ مجهولٌ، والإيمانُ به

وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا رَجُلَ سُوءٍ»، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَأُخْرِجَ مِنَ الْمَجْلِسِ^(١).

فنحن نُصدق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن لم نعلم كيفية ذلك، نصدق لأنه رسول الله، مبلغ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَمَا ءَانَتْكُمْ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، فالذي لا يُصدق الرسول في هذه الأمور، وهي أعظم الأمور، وهي الأسماء والصفات؛ لأنها من العقيدة، بل هي صلب العقيدة، فالذي لا يُصدق الرسول فيها لا يكون مطيعاً للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يكون مؤمناً أنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

نحن نتبع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونتبع القرآن، فما أثبتته القرآن، أثبتناه وما أثبتته الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أثبتناه، وما نفاه القرآن أو نفاه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نفيناه، ولا نتعدى القرآن والسنة في النفي والإثبات. هذه طريقة السلف الصالح.



قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَمَنْتُ بِاللَّهِ، وَبِمَا جَاءَ عَنِ اللَّهِ عَلَى مُرَادِ اللَّهِ، وَأَمَنْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ، وَبِمَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ عَلَى مُرَادِ رَسُولِ اللَّهِ»^(١).

الشرح

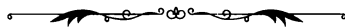
قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ)، وبعد أن انتهى كلام الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ ينقل الآن عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي، وسمي الشافعي نسبة إلى جده شافع، والإمام الشافعي من بني المطلب بن عبد مناف، فهو مطلبي من أهل البيت رَحِمَهُ اللَّهُ، ولذلك يلقبونه بعالم قريش، هذا الإمام العظيم له موقف عظيم في الدفاع عن سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والرد على أهل الزيغ والضلال.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَمَنْتُ بِاللَّهِ، وَبِمَا جَاءَ عَنِ اللَّهِ»، الذي لا يؤمن بما جاء عن الله لا يؤمن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، «عَلَى مُرَادِ اللَّهِ»؛ أي: على ما أراده الله جَلَّ وَعَلَا، ولا نتدخل في شيء من عندنا، ونُفسر تفسيراً من عندنا، وإنما نتوقف على ما جاء عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على مراد الله، فنقول: سمي الله جَلَّ وَعَلَا نفسه بأسماء، ووصف نفسه بصفات، فنحن نؤمن بها على مراده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا نؤولها، ولا نحرفها عما جاءت، فنثبت له السمع، والبصر، والحياة، والقدرة، والكلام، والإرادة، وسائر الصفات؛ لأنه هو الذي سمي ووصف نفسه بها.

(١) ذكر هذا الأثر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في الرسالة المدنية، انظر: مجموع الفتاوى (٣٥٤/٦).

قال رَحِمَهُ اللهُ: «وَأَمَنْتُ بِرَسُولِ اللهِ، وَبِمَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللهِ عَلَى مُرَادِ رَسُولِ اللهِ»، كذلك بعد الإيمان بالله، وبما جاء عن الله، على مراد الله، نؤمن برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبما جاء عن رسول الله من الأحاديث الصحيحة، على مراد رسول الله، لا نفسرهما بشيء يخالف مراد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من التأويلات والتحريفات الباطلة، بل نثبتها على مراد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا هو معنى شهادة أن محمداً رسول الله؛ طاعته فيما أمر، وتصديقه بما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع^(١)، فالذي يشهد أن محمداً رسول الله، لكن لا يصدقه فيما أخبر، كاذب في شهادته، متهم للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأعظم ما جاء به الأسماء والصفات، جاء بها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سمي الله بأسماء، ووصفه بصفات، فنحن نؤمن بها، ونصدقه في ذلك، ولا نرد عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو نحرف ما جاء عنه بالتأويلات الباطلة والتشكيكات والتزييفات، التي ضل بها أكثر الخلق.

وكلام الإمام أحمد وكلام الشافعي هو المنهج الذي تسير عليه أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



(١) انظر: ثلاثة الأصول وأدلتها وشروط الصلاة والقواعد الأربع (ص ١٥).

وَعَلَى هَذَا دَرَجَ السَّلَفُ، وَأَثَمَةُ الْخَلَفِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى
 الْإِقْرَارِ، وَالْإِمْرَارِ، وَالْإِثْبَاتِ لِمَا وَرَدَ مِنَ الصِّفَاتِ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ،
 مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِتَأْوِيلِهِ. وَقَدْ أَمَرْنَا بِالِاقْتِفَاءِ لِأَثَارِهِمْ، وَالِاهْتِدَاءِ بِمَنَارِهِمْ،
 وَحُذَرْنَا الْمُحَدَّثَاتِ، وَأُخْبِرْنَا أَنَّهَا مِنْ الضَّلَالَاتِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
 «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَصُوا عَلَيْهَا
 بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ
 ضَلَالَةٌ»^(١).

الشرح

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَعَلَى هَذَا دَرَجَ السَّلَفُ، وَأَثَمَةُ الْخَلَفِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ)، على
 هذا الكلام، وهو الإيذان بما جاء عن الله، على مراد الله، والإيذان بما جاء
 عن رسول الله، على مراد رسول الله، درج عليه السلف - وهم صدر هذه
 الأمة - من الصحابة، والتابعين، وأتباع التابعين، والقرون المفضلة، لم يتوقف
 أحد منهم في هذا، يقرؤون القرآن، ويروون الأحاديث، ولم يعترضوا على
 شيء من هذا، مضت على هذا القرون المفضلة، ما اعترضوا على هذه الآيات
 وعلى هذه الأحاديث، وإنما حدث الاعتراض بعد انقضاء القرون المفضلة،
 حينما جاء علماء الكلام والفلسفة، فأدخلوا في الدين ما ليس منه، وحكّموا

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه

(٤٢، ٤٣)، وأحمد (٤/ ١٢٦، ١٢٧)، والدارمي (٩٥ - البغا)، وابن حبان: (٥ -

الإحسان) من حديث العرياض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القواعد المنطقية والبراهين العقلية - كما يسمونها-، حكموها في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأُئِمَّةُ الْخَلْفِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ)، من جاء بعد السلف ممن سار على نهجهم، فإنهم على هذا المذهب، سلكوا هذا المذهب؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»^(١)، فيكون هناك من الخلف من يقتدي بالسلف، ويسير على نهجهم، إلى أن تقوم الساعة، ولا تخلو الأرض - والله الحمد - منهم؛ لأنهم يقومون بنشر هذا الدين، ويبلغون هذا الدين بعد السلف الصالح، فهم حجة الله على خلقه، هذا من حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ يَقِيمُ لَهُدَّةَ الْعَقِيدَةِ وَلِهَذَا الْمَنْهَجُ السَّلَفِيُّ مِنْ يَتَمَسَّكُ بِهِ، ويعلمه للناس إلى أن تقوم الساعة؛ رحمة منه بعباده.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى الْإِقْرَارِ، وَالْإِثْبَاتِ لِمَا وَرَدَ مِنَ الصِّفَاتِ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِتَأْوِيلِهِ) الإقرار بها وإمرارها؛ كما جاءت من غير تعرض لتأويلها وتحريفها، وإنما يمرونها كما

(١) أخرجه بهذه الزيادة: أبو داود (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، وأحمد (٢٧٨/٥) عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «وَأَتَانَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأُئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تُعْبَدَ فِتْنًا مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانُ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَابُونَ ثَلَاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيُّهُمْ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى». وأصله في مسلم (٢٨٨٩).

جاءت على ألفاظها ومعانيها، ولا يعترضون عليها، هذه طريقة السلف ومن سار على نهجهم من الخلف من أئمة الهدى.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَدْ أُمِرْنَا بِالِاقْتِفَاءِ لِآثَارِهِمْ، وَالِاهْتِدَاءِ بِمَنَارِهِمْ؛ الْاِقْتِفَاءُ لِآثَارِهِمْ فِي الدِّينِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّيْقُوتَ الْأُولُونَ مِنَ الْأُمَّهِجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنِ رِضَى اللهِ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَصُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(١)، هَذَا أَمْرٌ بِاقْتِفَاءِ آثَارِهِمْ، وَالسَّيْرِ عَلَى مَنَارِهِمْ.

والمنار: هو العلامات التي تكون على الطريق، يستدل بها السالك^(٢).

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَحُذِّرْنَا الْمُحَدَّثَاتِ، وَأُخْبِرْنَا أَنَّهَا مِنَ الضَّلَالَاتِ)، حُذِرْنَا مِنَ الْمُحَدَّثَاتِ، وَذَلِكَ بِقَوْلِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(٣)، هَكَذَا حَذَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) سبق تخريجه (ص ٦٠).

(٢) انظر: الصحاح (٢/ ٨٣٩)، ولسان العرب (٥/ ٢٤٠ - ٢٤١)، والقاموس المحيط (١/ ٤٨٨)، وتاج العروس (١٢/ ٣٠٤).

(٣) أخرجه مسلم (٨٦٧) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ أَحْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاسْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَانَتْهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «صَبَحَكُمْ وَمَسَاكُمْ»، وَيَقُولُ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، وَيَقْرَأُ بَيْنَ إِبْصَعَيْهِ السَّبَّابَةِ، وَالْوُسْطَى، وَيَقُولُ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ =

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي»)، والمراد بسنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما ثبت عنه من قول أو فعل أو تقرير^(١)، كل ما ورد عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه سنة، يجب الأخذ به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، ولقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ولقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، إلى غير ذلك من الأدلة، التي تأمر باتباع الرسول وطاعته، والأخذ بما ورد عنه.

وكذلك سنة خلفائه الراشدين، وهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، هؤلاء هم الخلفاء الراشدون، الذين أمرنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأخذ بسنتهم؛ لأنها سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم الذين يحققون الاتباع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي»، وصفهم بالراشدين، والرشد ضد الغي، وهو الهدى واتباع الحق^(٢)، والغى: هو الضلال والانحراف عن الحق^(٣)، فهم راشدون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ثم وصفهم

=مُحَدَّثَاتِهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ ثُمَّ يَقُولُ: «أَنَا أَوَّلُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، مَنْ تَرَكَ مَا لَا فَلَهِ، وَمَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضِيَاعًا فَلَيْ وَعَلَيَّ».

(١) انظر: المنهل الروي في مختصر علوم الحديث النبوي (ص ٤٠)، والتعريفات (١/ ١٢٢)، وفيض القدير (١/ ١٣٢)، والكليات (١/ ٣٧٠).

(٢) انظر مادة (رشد) في: العين (٦/ ٢٤٢)، وتهذيب اللغة (١١/ ٢٢٠)، والصحاح (٢/ ٤٧٤)، ومقاييس اللغة (٢/ ٣٩٨)، ولسان العرب (٣/ ١٧٥).

(٣) انظر مادة (غوى) في: العين (٤/ ٤٥٦)، وتهذيب اللغة (٨/ ١٨٦)، والصحاح (٦/ ٢٤٥٠)، ومقاييس اللغة (٤/ ٣٩٩)، ولسان العرب (١٥/ ١٤٠).

بوصف آخر، فقال: «الْمَهْدِيَيْنِ»؛ أي: الذين هداهم الله لاتباع الحق، ومن اتبع المهدي، فقد اهتدى.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ»؛ يعني: سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسنة خلفائه الراشدين، هذا يراد به شدة التمسك بالشيء. يقال: (عض عليه بالنواجذ)، إذا اشتد تمسكه به؛ كالغريق إذا وقع ومعه حبل، فإنه يتمسك بهذا الحبل؛ لئلا يغرق، فإذا خشي أن ينفلت من يديه، عض عليه بنواجذه -يعني بأضراسه-؛ من الحرص على الإمساك بهذا الحبل؛ لأنه سبيل النجاة، فسنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل هذا الحبل، الذي بيد الغريق، لو أطلقه، لهلك.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَايَاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ»، لما حث على التمسك بسنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نهى عن المحدثات، جمع محدثة، وهي كل بدعة أحدثها المبتدعة، والبدعة ومحدثات الأمور هي إحداث شيء في الدين لم يكن منه، هذه هي البدع؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»^(١)، وفي رواية: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ، فَهُوَ رَدٌّ»^(٢).

فأمور الدين لا تقبل بالإحداث والزيادة، بل يجب التمسك بها نصاً وروحاً من غير زيادة ولا نقصان.

فكلمة «إِيَّاكُمْ» كلمة تحذير.

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨)، ورواه البخاري معلقاً في كتاب البيوع - باب النجش (٣٥٦/٤) مع الفتح، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ (٣١٧/١٣) مع الفتح.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) واللفظ له، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «(فَإِنْ كُلُّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٍ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)»، هذه كلية عامة، كل محدثة في الدين فهي بدعة، وليس هناك محدثة في الدين حسنة أو بدعة في الدين حسنة؛ كما يقول أهل الضلال، أو المنخدعون بها يقال: (إن هناك بدعة حسنة)، الدين ليس فيه بدعة حسنة أبداً، يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «(فَإِنْ كُلُّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٍ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)»^(١)، فالذي يقول: (هناك بدعة حسنة)، يرد على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «(فَإِنْ كُلُّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٍ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)»، وهذا يقول: (هناك بدع حسنة ما هي بضلالة)، هذا من المحادة لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فليس هناك في الدين بدعة حسنة أبداً، فكل البدع ضلال.

هذا الحديث أصل عظيم، يرد على كل مبتدع يُحَسِّنُ البدع للناس، ويقول: (إنها خير، وإنها فيها أجر، وفيها تنشيط على العبادة، وفيها وفيها)، نقول: البدع ليس فيها خير، وليس فيها أجر، كلها ضلالة، وكلها شر، وكلها مردودة على أصحابها، كفانا ما جاء به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيه الخير والكفاية، يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، ما توفي الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلا وقد أكمل الله به الدين، فمن جاء يريد أن يُحدث زيادة بعد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه يتهم ربه بالكذب، يقول الله: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فيضيف إلى الدين شيئاً من عنده، هذا مكذب لله عَزَّوَجَلَّ، أو متهم للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالكتمان؛ أن الله أنزل عليه هذه الأمور، التي يراها هذا المبتدع، والرسول كتمها، ولم يبينها لأمته.

(١) سبق تخرجه (ص ٦٠).

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا، فَقَدْ كُفِيتُمْ»^(١).

الشرح

عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من السابقين الأولين المهاجرين، ويمتاز بالعلم والورع والعبادة والافتداء بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو من أكبر علماء الصحابة وفقهائهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اتَّبِعُوا»؛ يعني: ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣].

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ولا تَبْتَدِعُوا»، نهى عن الابتداع، فهو يطابق -أيضاً- قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ، عَصُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»، «وَأَيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ»^(٢)، ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَقَدْ كُفِيتُمْ»؛ أي: كفيتم المؤونة، لا تحتاجون إلى زيادة وإلى تكلف، يكفيكم أن تعملوا بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما قاله صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالواجب الاقتداء بكتاب الله وسنة رسوله، والاقتداء -أيضاً- بصحابة رسول الله، الذين هم تلاميذ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا واحد من أكابرهم

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٢٠٩)، والطبراني في المعجم الكبير (٨٧٧٠)، وقال الهيثمي في المجمع عقبه: رجاله رجال الصحيح (١٨٦/١)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة [(١/٩٦) (ح ١٠٤)]، ورواه ابن بطة في الإبانة الكبرى - كتاب الإبان (١٧٤) (ح ٣٢٧)].

(٢) سبق تخريجه (ص ٦٠).

وأفاضلهم يوصينا بهذه الوصية العظيمة: «اتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كُفِّتُمْ»، لم يبق لأحد مجال في أنه يزيد وينقص، ويخترع للناس أمورًا يظن أنها خير، وأنها تُقرب إلى الله.

ومن هنا يجب على طالب العلم إذا عرض في نفسه شيء يستحسنه، ويريد أن يقوله، أو يكتبه، فعليه أن ينظر هل هذا الشيء ورد في كتاب الله وفي سنة رسول الله؟ هل قال به أحد من السلف؟ فإن وجده، فالحمد لله لقد وفق للصواب، وأما إذا لم يجده، فعليه أن يحذر، وأن يتعد عن هذا الذي عرض له، ويعلم أنه بدعة.

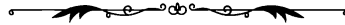
بعض طلبة العلم يأتون بعبارات جديدة وألفاظ جديدة، وقد أخطؤوا الصواب في هذا، فلا يجوز لأحد أنه يجيء بعبرة من عنده، أو يتقعر ويتعمق، ويجيء بمعان ما قالها السلف، ولا فهموها، خصوصًا في باب الأسماء والصفات عليه أن يحذر من أن يقول كلمة لم يقلها من سبق من السلف الصالح، يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَقَدْ كُفِّتُمْ»، ما لنا مجال في أن نتعمق في النصوص، ونجيء بشرح لها لم يقله السلف الصالح، أو نقول عبارات ما نطق بها السلف الصالح.

هذه قاعدة عظيمة أنك لا تطلق لنفسك العنان -خصوصًا في باب الأسماء والصفات-، أو تذكر معاني لم يذكرها السلف الصالح، تجنب هذا؛ لأن هذا مزلة أقدام، وأنت بعافية -والحمد لله.

كم رأينا بعض كتاب العصر والمؤلفين قد ارتكبوا أخطاء في استخدام عبارات واصطلاحات استحسنوها وكتبوها، وهي أخطاء لم يسبقوا إليها

-خصوصًا في كتب العقائد-، وهذا غلط كبير، والواجب الوقوف، فكل شيء لم يقله السلف الصالح يجب علينا أن نتجنبه، هذا هو طريق النجاة، هل نحن بلغنا علم السلف أو ساويناهم في العلم حتى نباريهم في العبارات وفي فقه النصوص؟! ما بلغنا هذه المرتبة.

ثم -أيضًا- هم أعمق منا علمًا وفهما؛ لأنهم أخذوا عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مباشرة، ولهذا يقول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلَيْسَتْ بِيَمَنْ قَدْ مَاتَ، أَوْلَيْكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانُوا خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَبْرَهَا قُلُوبًا، وَأَعَمَّقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَقَلَ دِينَهُ، فَتَشَبَّهُوا بِأَخْلَاقِهِمْ وَطَرَائِفِهِمْ، فَهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ»^(١)، فأعز الناس علمًا هم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأقلهم تكلفًا، لا يتكلفون، ولا يتقعون في الألفاظ، وإنما يأخذون من مقتضى الكتاب والسنة بدون تكلف وتشقيق للعبارات.



(١) رواه رزين كما في المشكاة (١/ ٦٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٠٥).

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَلَامًا مَعْنَاهُ: «قِفْ حَيْثُ وَقَفَ الْقَوْمُ، فَإِنَّهُمْ عَنْ عِلْمٍ وَقَفُوا، وَبِصَرٍ نَافِذٍ كَفُّوا، وَلَهُمْ عَلَى كَشْفِهَا كَانُوا أَقْوَى، وَبِالْفَضْلِ لَوْ كَانَ فِيهَا أُخْرَى، فَلَيْنَ قُلْتُمْ حَدَثَ بَعْدَهُمْ، فَمَا أَحَدَنَهُ إِلَّا مَنْ خَالَفَ هَدْيِهِمْ، وَرَغَبَ عَنْ سُنَّتِهِمْ، وَلَقَدْ وَصَفُوا مِنْهُ مَا يُشْفِي، وَتَكَلَّمُوا مِنْهُ بِمَا يَكْفِي، فَمَا فَوْقَهُمْ مُحَسَّرٌ، وَمَا دُونَهُمْ مُقَصَّرٌ، لَقَدْ قَصَرَ عَنْهُمْ قَوْمٌ، فَجَنَفُوا، وَتَجَاوَزَهُمْ آخَرُونَ فَنَغَلَوْا، وَإِنَّهُمْ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ»^(١).

الشرح

قال رحمه الله: (وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَلَامًا مَعْنَاهُ)، هو عمر ابن عبد العزيز بن مروان، من خلفاء بني أمية، خليفة عادل، وإمام جليل، وعالم رباني رحمه الله، يعتبر من رؤوس المجددين لهذا الدين، تولى الخلافة بعد عمه سليمان بن عبد الملك.

قال رحمه الله: (قِفْ حَيْثُ وَقَفَ الْقَوْمُ)، هذا مثل كلام ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «قِفْ حَيْثُ وَقَفَ الْقَوْمُ»، شيء ما قاله صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا قاله تلاميذهم من التابعين وأتباع التابعين لا يجوز لك أن تُحدثه، وأن تقول به.

(١) رواه أبو داود في سننه، باب لزوم السنة، (٤٦١٢) مطولاً، ورواه ابن بطة في الإبانة الكبرى - كتاب الإبان [ح ١٦٤] (١/٣٢٢)، وذكره المؤلف في كتابه ذم التأويل [١/٣٤] (ح ٦٨)، ورواه أيضاً فيه عن عبد العزيز الماجشون (٦٧).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَإِنَّهُمْ عَنْ عِلْمٍ وَقَفُوا)، لا عن جهل، بل رأوا أن هذا لا يجوز الدخول فيه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَبِصَرٍ نَافِذٍ كَفُّوا)، المراد بالبصر هنا: بصر القلب وهو العلم، والمراد به: البصيرة، فهم رأوا أن هذا الشيء الذي توقفوا فيه، وكفوا عنه، رأوا أنه لا خير فيه، فتركوه، فأنت عليك أن تترك ما تركوه ولا تُحدث عبارات من عندك، أو ألفاظاً من عندك، أو فهماً من عندك، لا تُحدث شيئاً لم يقولوه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَهُمْ عَلَى كَشْفِهَا كَانُوا أَقْوَى)؛ أي: عندهم قدرة علمية، لكن كونهم وقفوا على هذا الشيء؛ لأنهم يرون أنه لا خير فيه، ولا يجوز الدخول فيه، فقف أنت معهم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَبِالْفَضْلِ لَوْ كَانَ فِيهَا أُخْرَى)، ولو كان بهذه الأشياء، التي سكتوا عنها، لو كان فيها فضل، لكانوا هم أخرى بالفضل، فدخلوا فيها، فدل على أن الدخول فيها ليس من الفضل، وإنما هو من الجهل والضلال.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَلَيْسَ قُلْتُمْ حَدَثَ بَعْدَهُمْ، فَمَا أَحَدْنَاهُ إِلَّا مَنْ خَالَفَ هَدْيَهُمْ، وَرَغِبَ عَنْ سُنَّتِهِمْ)، هذا جواب عن اعتراض قد يرد على كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو إن قلتم: (إنه حدث بعدهم أشياء، فنحن نُحدث ألفاظاً، ونُحدث عبارات لم يقولوا بها؛ لأن هذه الحوادث ما حصلت في وقتهم)، فنقول: لا نجاة إلا باتباعهم، فإذا أردت أن ترد على هذه المحدثات، فرد عليها بأن ما أحدث بعدهم لا خير فيه.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَلَقَدْ وَصَفُوا مِنْهُ مَا يُشْفِي، وَتَكَلَّمُوا مِنْهُ بِمَا يَكْفِي)، هم لم يقصروا رَحْمَتَهُ اللَّهِ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ، وَلَا سِيَّما فِي أُمُورِ الْعَقِيدَةِ؛ الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ، مَا قَصَرُوا فِي هَذَا، وَلَا تَكَاسَلُوا، بَلْ بَيَّنُّوا، وَوَضَحُوا، وَسَكَتُوا عَنْ أَشْيَاءَ لَا يَجُوزُ الْبَحْثُ فِيهَا، فَتَكَلَّمْ أَنْتَ بِكَلَامِهِمْ، وَانْقُلْ كَلَامَهُمْ، وَلَا تَتَصَرَّفْ فِيهِ، وَمَا سَكَتُوا عَنْهُ، اسْكُتْ عَنْهُ، لَا تَدْخُلْ فِيهِ، إِذَا عَرَضَ لَكَ شَيْءٌ، وَلَمْ تَجِدْ فِيهِ كَلَامًا لِلْسَلَفِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ سَكَتُوا عَنْهُ، وَوَقَفُوا عَنْهُ، فَقِفْ أَنْتَ عَنْهُ، وَلَا تَدْخُلْ فِيهِ.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (فَمَا فَوْقَهُمْ مُحَسَّرٌ، وَمَا دُونَهُمْ مُقَصَّرٌ):

(فَمَا فَوْقَهُمْ): يَعْنِي مَا زَادَ عَنْ هَدْيِهِمْ.

(مُحَسَّرٌ): يَعْنِي الْغَالِي الْمَتَجَاوِزَ لِلْحَدِّ.

(وَمَا دُونَهُمْ مُقَصَّرٌ): الَّذِي تَكَاسَلَ عَنْ اتِّبَاعِهِمْ وَعَنْ عِلْمِهِمْ مُقَصَّرٌ

وَكَسْلَانٌ.

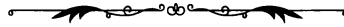
فَالَّذِينَ خَالَفُوا السَّلَفَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: إِمَّا غَالٍ، وَإِمَّا جَائِفٌ، الْأَوَّلُ مُحَسَّرٌ؛ يَعْنِي: غَالِيٌّ وَمَتَجَاوِزٌ لِلْحَدِّ، وَالَّذِي قَصَرَ دُونَهُمْ مُقَصَّرٌ، لَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ مَذْمُومٌ، وَالسَّلَامَةُ فِي السَّيْرِ مَعَهُمْ، لَا التَّقَدُّمُ عَلَيْهِمْ وَلَا التَّأَخُّرُ عَنْهُمْ، السَّيْرُ مَعَهُمْ بِمَنْهَجِهِمْ.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (لَقَدْ قَصَرَ عَنْهُمْ قَوْمٌ، فَجَفَوْا)، هَذَا هُوَ الْجَفَاءُ وَالْكُسْلُ.

هَذَا شَرْحٌ لِلْعِبَارَةِ (فَمَا فَوْقَهُمْ مُحَسَّرٌ، وَمَا دُونَهُمْ مُقَصَّرٌ)، فَالْمُقَصَّرُ جَفَا،

وَالْمُحَسَّرُ غَلَا.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَتَجَاوَزَهُمْ آخَرُونَ فَغَلَوْا، وَإِنَّهُمْ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ)؛ يعني: فيما بين المحسر والمقصر، فالسلف بين المحسر، وهو الغالي، وبين المقصر، وهو الجافي، وهم على هدى مستقيم، هدى بين ضلالتين، وحق بين باطلين، هذه طريقة السلف رَحْمَةُ اللَّهِ بَيْنَ الْغَالِي وَالْجَافِي، ودين الله بين الغالي والجافي، دين الاعتدال والاستقامة، وهو الذي أمرنا الله أن نسأله أن يهدينا إليه؛ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]؛ المعتدل بين الغالي والجافي.



وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَمْرٍو الْأَوْزَاعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عَلَيْكَ بِأَثَارِ مَنْ سَلَفَ، وَإِنْ رَفَضَكَ النَّاسُ، وَإِيَّاكَ وَآرَاءَ الرَّجَالِ، وَإِنْ زَخَرَفُوهُ لَكَ بِالْقَوْلِ»^(١).

الشرح

الإمام أبو عمرو عبد الرحمن الأوزاعي هو إمام أهل الشام رَحِمَهُ اللَّهُ^(٢). قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «عَلَيْكَ بِأَثَارِ مَنْ سَلَفَ، وَإِنْ رَفَضَكَ النَّاسُ»، التزم بأثار من سلف من الصحابة والتابعين والقرون المفضلة.

(وَإِنْ رَفَضَكَ النَّاسُ)؛ يعني: إذا انتقدك الناس في اتباعك للسلف، إذا انتقدوك، وجفوك، لا تلتفت إليهم، ولا تعباً بدمهم؛ لأنك على حق، وما دمت على حق، فالحمد لله، لا تريد أنت إرضاء الناس ومدح الناس، وإنما تريد إرضاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتريد الحق، والحق لا شك أنه في اتباع السلف، فإذا رأيت من يصفك بالجمود، ويصفك بالتخلف والرجعية... إلى آخره،

(١) رواه الآجري في الشريعة (١١٩)، ورواه الخطيب في شرف أصحاب الحديث (٧/١)، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمة الأوزاعي (٧/١٢٠)، وأورده المؤلف في كتابه ذم التأويل [ح ٦٩ (١/٤٣)].

(٢) هو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمّد أبو عمرو الأوزاعي، إمام أهل الشام في الحديث والفقه، ولد في حياة الصحابة سنة ثمان وثمانين، وكان رأساً في العلم والعمل جم المناقب، ومع علمه كان بارعاً في الكتابة والترسل، كان يسكن دمشق خارج باب الفرديس بمحلة الأوزاع، ثم تحول إلى بيروت، فسكنها مرابطاً إلى أن مات بها سنة سبع وخمسين ومائة. انظر: تاريخ دمشق (٣٥/١٤٧)، ووفيات الأعيان (٣/١٢٧)، والوفاء بالوفيات (١٨/١٢٣)، وسير أعلام النبلاء (٧/١٠٧)، والبداية والنهاية (١٠/١١٥)، وشذرات الذهب (١/٢٤١).

وبالعصور الوسطى، وبكلام من هذا القبيل، لا تلتفت إليهم أبداً؛ لأنك على الحق، وهم على الباطل، فلا يهمنوك.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإِيَّاكَ وَآرَاءَ الرِّجَالِ، وَإِنْ زَخْرَفُوهُ لَكَ بِالْقَوْلِ»، هذا تحذير من أن تترك هدي السلف، وتأخذ بآراء الرجال، التي أحدثت من بعدهم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَإِنْ زَخْرَفُوهُ)، الزخرفة: التزيين، وأصل الزخرف: الذهب^(١)؛ ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُثْبِتَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾^(٢٣) وَلِيُثْبِتَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ^(٢٤) وَزُخْرَفًا ﴿[الزخرف: ٣٣-٣٥]، فهم يزخرفون مقالاتهم، ويزينونها؛ حتى تظهر كأنها حق؛ كما قال الله سبحانه في أمثالهم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْاَلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]، فيأتيك كلامهم مزخرفاً على أنه براهين عقلية، وأدلة يقينية، وأن وأن إلخ...، وقد يكون عندهم فصاحة وبلاغة، يجذبون بها السامع، لكن ما داموا ليسوا على هدي السلف، لا تلتفت إليهم، ولا تعباً بكلامهم؛ لأنه زخرف، والشاعر يقول^(٢):

(١) انظر مادة (زخرف) في: العين (٣٣٨/٤)، وتهذيب اللغة (٢٧١/٧)، والصحاح (١٣٦٩/٤)، ولسان العرب (١٣٢/٩).

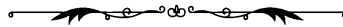
(٢) نظم ابن الرومي، علي بن العباس بن جريج أبو الحسن، الشاعر المشهور، في ديوانه (ص ٢٢٦٩). وانظر: الإيضاح في علوم البلاغة (ص ٢٢٥)، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لأبي الفتح الموصلي (١/ ٣٧٩).

فِي زُخْرَفِ الْقَوْلِ تَزْيِينٌ لِبَاطِلِهِ وَالْحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ بَعْضُ تَغْيِيرِ
تَقُولُ هَذَا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدُحُهُ وَإِنْ تَشَأْ قُلْتَ ذَا قَيِّءِ الزَّنَابِيرِ

فزخرف القول يزين الباطل عند الناس، لكن البصير ينظر في الحقائق، ولا ينظر إلى المظاهر.

فما دام أن هذا الكلام لم يقله السلف الصالح في هذا الباب -باب الأسماء والصفات-، فاعلم أنه باطل، وإن تزين بالألفاظ وحسن النطق، فلا تعباً به، ما دام أنه مخالف لهدي السلف الصالح، وهذا ينطبق على علم الكلام وعلم المنطق، الذي زوقوه وزخرفوه، وسموه براهين عقلية وقواعد يقينية، إلى آخر ما يقولون، فلاتلفت إليه.

كيف تعادل قواعد المنطق وعلم الكلام بكلام رب العالمين وكلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكلام السلف الصالح؟! كيف يعادل هذا بهذا؟!



وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأُذْرَمِيُّ^(١) لِرَجُلٍ تَكَلَّمَ بِبِدْعَةٍ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَيْهَا: هَلْ عَلِمَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ أَوْ لَمْ يَعْلَمُوهَا؟ قَالَ: لَمْ يَعْلَمُوهَا، قَالَ: فَشَيْءٌ لَمْ يَعْلَمَهُ هَؤُلَاءِ أَعْلِمْتَهُ أَنْتَ؟ قَالَ الرَّجُلُ: فَإِنِّي أَقُولُ قَدْ عَلِمُوهَا، قَالَ: أَفَوَسِعَهُمْ أَنْ لَا يَتَكَلَّمُوا بِهِ وَلَا يَدْعُوا النَّاسَ إِلَيْهِ، أَمْ لَمْ يَسْعَهُمْ؟ قَالَ: بَلْ وَسِعَهُمْ، قَالَ: فَشَيْءٌ وَسِعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخُلَفَاءَهُ، لَا يَسْعُكَ أَنْتَ؟ فَانْقَطَعَ الرَّجُلُ، فَقَالَ الْخَلِيفَةُ -وَكَانَ حَاضِرًا-: لَا وَسَّعَ اللَّهُ عَلَى مَنْ لَمْ يَسْعُهُ مَا وَسِعَهُمْ.

وَهَكَذَا مَنْ لَمْ يَسْعُهُ مَا وَسِعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَالْأَئِمَّةَ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَالرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ، مِنْ تِلَاوَةِ آيَاتِ الصِّفَاتِ وَقِرَاءَةِ أَخْبَارِهَا، وَإِمْرَارِهَا كَمَا جَاءَتْ، فَلَا وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

الشرح

قال رحمه الله: (وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأُذْرَمِيُّ)، محمد بن

(١) هكذا مذكور هنا ويقال: عبد الله بن محمد بن إسحاق الجزري أبو عبد الرحمن الأذرمي، بفتح الهمزة وسكون المعجمة وفتح الراء، كذا في التقريب، نسبة إلى أذرمة قرية بنصيبين، روى عن وكيع وابن عيينة وابن مهدي، وروى عنه أبو داود والنسائي وأبو حاتم، قال أبو حاتم والنسائي: ثقة. كذا في تهذيب الكمال، وفيه قال الخطيب: كان الواثق أحضر شيخاً من أهل أذنة للمحنة، ناظر ابن أبي دؤاد بحضرته، واستعلى عليه الشيخ بحجته، فأطلقه الواثق، وردّه إلى وطنه، ويقال إنه كان أبا عبد الرحمن الأذرمي، قال الحافظ ابن حجر: (القصة مشهورة حكاها المسعودي وغيره). اهـ. انظر المناظرة بكاملها بين الأذرمي وابن أبي دؤاد بحضرة الواثق في تاريخ بغداد (١٠/٧٦)، والبداية والنهاية (١٠/٣٣٥)، وسير أعلام النبلاء (١١/٣١٢-٣١٥)، ورواها الآجري بإسناده في الشريعة [٩٩] ح (١٨٧م).

عبد الرحمن الأدرمي - هكذا سُمي - قال لرجل يناظره عند الخليفة الواثق ابن المعتصم العباسي؛ لأنه في عهد المأمون ظهرت بدعة القول بخلق القرآن بتأثير المعتزلة، فتبناها المأمون؛ كما تبني غيرها من الأمور التي تحملها - والله المستعان -، لكن من أخطرها فتنة القول بخلق القرآن، وتعذيبه للأئمة، وقتله لبعضهم، لما لم يستجيبوا له، ومن هؤلاء رجل شيخ كبير، ولقد ذكر الذهبي في «سير أعلام النبلاء» القصة ولم يسم الشيخ^(١)، يقول: (شيخ من «أذنة» - اسم بلد -، دخل على الواثق، وعنده رأس الفتنة أحمد بن أبي دؤاد، الذي آذى الناس بعد بشر المريسي، آذى الناس بحملهم على هذا الكفر، فأتى الله بهذا الشيخ، فخصمه عند الواثق بهذه المناظرة، التي ذكر الشيخ طرفاً منها).

قال رَحِمَهُ اللهُ: (لِرَجُلٍ تَكَلَّمَ بِبِدْعَةٍ)، هو أحمد بن أبي دؤاد، رأس الفتنة عند الواثق العباسي؛ لأنه توالى على المسلمين فتنة القول بخلق القرآن على أيدي ثلاثة من الخلفاء العباسيين: المأمون، وأخوه المعتصم، والواثق بن المعتصم، حتى جاء المتوكل، فناصر السنة، وقمع أهل البدعة.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَدَعَا النَّاسَ إِلَيْهَا)، وهي بدعة خلق القرآن.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (هَلْ عَلِمَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ أَوْ لَمْ يَعْلَمُوهَا؟)، قال له: هذا المذهب الذي تقوله الآن - وهو القول بخلق القرآن - هل علمه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلمه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، أو لم يعلموه؟ فإن قال: (لم يعلموه)، وصف

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/٣٠٩ - ٣١٠).

الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه بالجهل، وإن قال: (علموه، ولكن لم يبينوه للناس)، وصفهم بالكتنان، فألجمه بحجر في هذه المناظرة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (قَالَ: لَمْ يَعْلَمُوهَا، قَالَ: فَشَيْءٌ لَمْ يَعْلَمَهُ هَؤُلَاءِ أَعْلَمْتُهُ أَنْتَ؟)، إذا كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لم يعلموا هذا القول، فهل أنت الذي علمته؟! فأنت جئت بشيء لم يأت به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يكن عليه خلفاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (قَالَ الرَّجُلُ: فَإِنِّي أَقُولُ قَدْ عَلِمْتُوهَا)، رجع، وقال: (قد علموها)، قال له: إذا كانوا علموها، لماذا لم يبينوها للناس!؟

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (قَالَ: أَفَوَسِعَهُمْ أَنْ لَا يَتَكَلَّمُوا بِهِ وَلَا يَدْعُوا النَّاسَ إِلَيْهِ، أَمْ لَمْ يَسْعَهُمْ؟ قَالَ: بَلْ وَسِعَهُمْ، قَالَ: فَشَيْءٌ وَسِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخُلَفَاءَهُ، لَا يَسْعُكَ أَنْتَ؟ فَانْقَطَعَ الرَّجُلُ، فَقَالَ الْخَلِيفَةُ -وَكَانَ حَاضِرًا-: لَا وَسَعَ اللَّهُ عَلَى مَنْ لَمْ يَسْعُهُ مَا وَسِعَهُمْ)، هذا الشيخ خصم هذا الملحد، وأخزاه عند الخليفة، حتى إن الخليفة اعترف بخطأ هذا الخبيث، ويقال: (إن الواثق تاب عن هذه المقالة)، والله المستعان! لكن هذا الشيخ خصم هذا الملحد؛ لأنه أتى بشيء لم يعلمه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يعلمه صحابته وخلفاؤه الراشدون.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَهَكَذَا)، هذا تعليق من المؤلف.

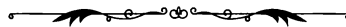
قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (مَنْ لَمْ يَسْعُهُ مَا وَسِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، هذا دعاء بأن الله يضيق عليه في الدنيا والآخرة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَصْحَابُهُ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَالْأَئِمَّةَ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَالرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ)، والأئمة الذين جاؤوا من بعدهم كالأئمة الأربعة، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، وأئمة المحدثين الذين جاؤوا من بعد الصحابة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (مِنْ تِلَاوَةِ آيَاتِ الصِّفَاتِ وَقِرَاءَةِ أَخْبَارِهَا، وَإِمْرَارِهَا كَمَا جَاءَتْ، فَلَا وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ)، من قراءة آيات الصفات التي في القرآن؛ مثل: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]، وغير ذلك من الآيات التي فيها إثبات الصفات الذاتية كالوجه واليدين، وإثبات الصفات المعنوية كالعلم والإرادة والقدرة، والصفات الفضيلة كالخلق والرزق والكلام والاستواء.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقِرَاءَةِ أَخْبَارِهَا)؛ أي: والآثار؛ يعني بها أحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تسمى بالآثار، وتسمى بالأحاديث، وتسمى بالسنة، كلها أسماء لأحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قرؤها، وأقروها على ما جاءت، لم يتعرضوا لتأويلها، ولم يتكلفوا شيئاً لمعرفة كيفيتها، بل أمروها كما جاءت، ولم تُشكل عليهم؛ لأنهم يعلمون معناها؛ لأنها نزلت بلسانهم، وهم عرب فصحاء، ولم يسألوا عنها، ولم يبحثوا فيها؛ لعلمهم بما تدل عليه، ولم يعترضوا عليها، وما وقع في أفهامهم أن هذا فيه تشبيه؛ فهم يعلمون الفرق بين صفات الخالق وصفات المخلوق.

ما قالوا في قوله: ﴿السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾: (والمخلوق سميع بصير، فيلزم التشبيه)، ما قالوا هذا؛ لأنهم يعلمون أن صفات الخالق تختص به، وصفات المخلوقين تختص بهم، فليس سمع المخلوق كسمع الخالق، ولا بصر المخلوق كبصر الخالق، ولهذا قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ما أشكلت هذه الآية على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا على أهل العلم في القرون المفضلة، بل قرؤوها وأقروها كما جاءت، مثبتين ما دلت عليه، حتى جاءت خلوف من الأعاجم وأولاد الأعاجم، الذين في فطرهم تلوث من الوثنية ومن مذاهب الكفار، وصاروا يخبطون خبط عشواء، ويتحذلقون فيها، وأما أهل العلم الراسخون في العلم، فإنهم لم يتعرضوا لها كالأئمة الأعلام، ومنهم من هو من الأعاجم، لكن عندهم بصيرة، وعندهم علم، وعندهم رسوخ في العلم، لم يتعرضوا لها، وإنما تعرض لها هؤلاء الذين تلوث فطرهم، وتكدرت أفهامهم بقيح الوثنية وقبح الكفر، وصاروا يقولون ما يقولون.



فَمِمَّا جَاءَ مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وَقَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وَقَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿إِنْخَبَرَا عَنْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وَقَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

الشرح

قال رحمه الله: (فَمِمَّا جَاءَ مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ)، لما انتهى من بيان منهج السلف في أسماء الله وصفاته، شرع يذكر أمثلة لنصوص الصفات من الكتاب والسنة.

قال رحمه الله: (قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾) فكما جاء من صفات الله في القرآن الوجه، وصف الله نفسه بأن له وجهًا: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، هذا فيه إثبات الوجه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالسلف قرؤوا هذه الآية، ولم يتعرضوا لها، ولم تُشكَل عليهم، أثبتوها كما جاءت، فدل على وجوب إثبات الوجه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أما من جاء من أهل الضلال، فإنهم قالوا: (المراد بالوجه الذات؛ لأننا لو أثبتنا الوجه للخالق، وهو موجود في المخلوق، للزم التشابه بين الخالق والمخلوق)، تعالى الله عما يقولون! فنقول: كلا، لا يلزم من إثبات الوجه لله مشابته لوجه المخلوق، بل الله جَلَّ وَعَلَا له وجه يليق بجلاله، ولا نعلم كيفيته، وللمخلوقين وجه يليق بهم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤])، هذه الآية فيها إثبات اليمين لله جَلَّ وَعَلَا، لما ذكر الله مقالة اليهود فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، يصفون الله بالبخل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال تعالى: ﴿عُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]، فاليهود هم أبخل الناس بالمال، وأحرص الناس، وأجشع الناس على جمع المال؛ ولذا يجمعونه من كل صوب؛ من حلال ومن حرام، عندهم جمع المال لا يتوقف على حلال وحرام، استباحوا الربا، واستباحوا الميسر، واستباحوا البغاء، وإيجار البغي، وفتح دور البغاء للاستثمار، هذه صفة اليهود، يجمعون من كل ما هب ودب، ولكن لا ينفقون؛ فهم أبخل الناس، فهذا وصف ينطبق عليهم: ﴿عُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]، بمعنى أنهم ضربوا بالبخل، وليس معناها أن أيديهم معلقة بأعناقهم، هذا مقصود به البخل؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾؛ يعني: بالبخل، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]؛ يعني: بالإسراف.

فالإمساك عن النفقة بخل وغل لليد، والبسط في النفقة كل البسط هذا إسراف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

﴿وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا﴾؛ لعنهم الله بما تنقصوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، واللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(١)، فدل على شناعة هذه المقالة

(١) انظر: النهاية في غريب الأثر (٤/ ٢٥٥)، ومقاييس اللغة (٥٥/ ٢٥٣).

-والعياذ بالله-، ثم قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، فكل الخلائق تعيش على فضله سبحانه وعلى رزقه، كل الخلائق من البهائم والادميين والحشرات وكل المخلوقات، كلها تعيش على رزق الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، يده سحاء الليل والنهار^(١) سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧]، فكل ما يقتات به المخلوقات فإنه من رزقه ومن فضله؛ ﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك: ٢١]، فكل الخلائق تعيش على رزقه سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، حتى الكفار أعداء الله يعيشون على رزقه سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، فوصف نفسه بأن له يدين، وأنه ينفق سبحانه كيف يشاء، لا أحد يعترض عليه، ولا يمنعه، ولا يمنع فضله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

الشاهد من الآية: ﴿يَدَاهُ﴾، وصف نفسه بأن له يدين؛ كما في الآية الأخرى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]؛ حيث خلق آدم بيديه سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وأما بقية الخلائق، فإنه يخلقها بأمره، يقول للشيء: (كن)، فيكون، تتكون الأشياء بأمره سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، أما آدم، فإن الله خلقه بيده سبحانه، وهذا تشریف لآدم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بين سائر الخلق؛ أن الله خلقه بيده جَلَّ وَعَلَا؛ ﴿لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾، قال: ﴿خَلَقْتُ﴾، ثم قال: ﴿بِيَدَيَّ﴾، هذا صريح في إثبات اليدين لله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٦٨٤، ٧٤١١، ٧٤١٩)، ومسلم (٩٩٣): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفِقْ أَنْفِقْ عَلَيْكَ»، وَقَالَ: «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةُ سَحَاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ».

أهل الضلال يقولون: (المراد بيد الله قدرته؛ أي: خلقته بقدرتي)، فيرد عليهم: أنه لو كان كذلك، لم يكن لأدم مزية على غيره من المخلوقات، كل المخلوقات خلقت بقدره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثانياً: أنه قال: ﴿بِيَدَيَّ﴾، هل يقال: بقدرتي؟ هل الله قدرتان أو قدرة واحدة؟ قدرة واحدة، فدل على أن قوله: ﴿بِيَدَيَّ﴾ تنثية يد الحقيقة؛ كما يفهم هذا من المعنى اللغوي والمعروف في الحس، لكن له يدان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تختصان به، لا تُشبهان يدي المخلوق، فidah تليقان به جَلَّ وَعَلَا، ولا يعلم كيفيتهما إلا الله، وليستا كيدي المخلوقين.

فهم ينفون عن الله اليدين؛ خشية من التشبيه -بزعمهم-، فنقول: لا تشبيه أبداً؛ لأنه لا تشابه بين يد الله وبين يد المخلوق -حاشا وكلا-، وإنما يقع التشابه عند من لا يعقل، ولا يفهم كلام الله، وأما أهل العلم، فلا يُشكل هذا عليهم.

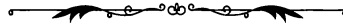
قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦])، هذا في إثبات النفس لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كما أن المخلوق له نفس: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾، عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مخلوق له نفس، ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾، يقول لربه: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾، فعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ خاطب ربه بأنه لا يعلم ما في نفسه، ولم يُنكر الله عليه ذلك، ففيه إثبات النفس لله تعالى، وفي الآية الأخرى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] فيه إثبات النفس لله، ولا يلزم من كون

المخلوق له نفس أن تتشابه النفسان - نفس الله جَلَّ وَعَلَا ونفس المخلوق - أبداً.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢])، هذا من صفات الأفعال، فالوجه واليدان والنفس من صفات الذات، وأما قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾، هذا من صفات الأفعال، وهذه الآية في سياق ذكر أهوال يوم القيامة في سورة الفجر، قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾؛ كلمة ردع وزجر، ﴿إِذَا ذُكِّتِ الْأَرْضُ ذِكًّا ذَكًّا﴾ [الفجر: ٢١] رُجفت الأرض، واندك ما عليها من الجبال والمباني، وصارت قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً؛ ﴿وَيَسْتَلُونَا عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٦]، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾، جاء مجيئاً حقيقياً لفصل القضاء بين عباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ففيه إثبات المجيء لله.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾ [البقرة: ٢١٠]) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾؛ أي: ما ينتظر الكفار، ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾؛ يجيء لفصل القضاء ﴿فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾؛ من السحاب ﴿وَالْمَلَكُ﴾، تأتي مع مجيئه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَفُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، يأتي لفصل القضاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وذلك أن الناس يقفون موقفاً طويلاً قدره خمسين ألف سنة، شاخصة أبصارهم، تدنو منهم الشمس، ويلجمهم العرق، بعضهم يُلجمه العرق، وبعضهم دون الإلجام؛

حسب أعمالهم^(١). فإذا طال عليهم الوقوف، طلبوا من يشفع لهم إلى ربهم؛ ليفصل بينهم، فيندافع الأنبياء الشفاعة، إلى أن تأتي إلى محمد ﷺ، فيخر ساجداً بين يدي ربه، ويسأل الله أن يفصل بين عبادته، وأن يُريحهم من الموقف، فيأتي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للفصل بينهم^(٢).



(١) كما في حديث المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه مسلم (٦٢) (٢٨٦٤) أن النبي ﷺ قال: «تُدْنِي الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ - قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ؟ أَمَسَافَةَ الْأَرْضِ، أَمْ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ - قَالَ: فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْحِمُهُ الْعَرَقُ إِنْجَامًا». قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ».

(٢) كما في حديث الشفاعة الذي ورد بعدة ألفاظ، منها: ما رواه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (٣٢٢) (١٩٣)، و[٣٢٦] (١٩٢)، بلفظ أتم، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ورواه البخاري (٤٧١٢) ومسلم [٣٢٧] (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ورواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم [٣٠٢] (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨]، وَقَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وَقَوْلُهُ عَزَّجَلَّ فِي الْكُفَّارِ: ﴿وَعُذِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٦]، وَقَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿اتَّبِعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ﴾ [محمد: ٢٨]، وَقَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿كَرِهَ اللَّهُ أَنْيَعَانَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦].

الشرح

قال رحمه الله: (وَقَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾)، فوصف نفسه بالرضا، وأنه يرضى عن عباده المؤمنين، فالرضا صفة من صفاته سبحانه الفعلية، قد جاء ذلك في عدة آيات: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩، التوبة: ١٠٠، المجادلة: ٢٢، البينة: ٨]، وغير ذلك، ففيه إثبات الرضا لله جَلَّ وَعَلَا؛ كما يليق بجلاله، ولا يُشبهه ذلك رضا المخلوقين، فإن الله وصف نفسه بالرضا، ووصف المخلوقين بالرضا؛ ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾، هذا فيه إثبات الرضا للمخلوقين، وأنهم يرضون، ولكن لا تشابه بين الرضائيين؛ رضا الله جَلَّ وَعَلَا يختص به، ورضا المخلوق يختص به وبحسبه.

قال رحمه الله: (وَقَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾) كذلك من صفاته سبحانه: المحبة؛ أنه يحب عباده بمقتضى أعمال يعملونها، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، بهذه الأعمال استحقوا محبة الله لهم على هذه الأعمال؛ موالاتهم للمؤمنين، ومعاداتهم للكفار، ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، فهم

في جانب المؤمنين أذلة، يذلون لهم، ويلينون لهم، ويرحمونهم، ويتواضعون لهم، أعزة على الكافرين، أقوياء على الكافرين، لا تلين لهم شوكة مع الكفار؛ لأنهم أعداء الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، هذه من أعظم صفاتهم الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ لإعلاء كلمة الله.

﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾، هذه -أيضاً- من صفاتهم أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، فهذه الصفات استحقوا هذه المنقبة العظيمة؛ أن الله أحبهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كذلك في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]، ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، إلى غير ذلك، فالله يحب أهل الأعمال الصالحة والأفعال الطيبة، وإذا أحبهم الله عَزَّوَجَلَّ، سعدوا في الدنيا والآخرة، ونالوا كرامة الله جَلَّوَعَلَا.

كذلك في الآية إثبات المحبة لله، وإثبات المحبة للمخلوقين؛ ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، فدل على أنه لا تشابه بين الصفتين؛ صفة المخلوق وصفة الخالق؛ لأن الله جَلَّوَعَلَا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وإن وجدت الصفة في المخلوقين، لكنها توجد على ما يليق بهم، ولا تكون مثل صفة الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذه قاعدة في جميع الأسماء والصفات.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَقَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ فِي الْكُفَّارِ: ﴿وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾﴾ [الفتح: ٦]، من صفات الله جَلَّوَعَلَا الفعلية الغضب؛ أنه يغضب سبحانه على الكفار: ﴿عَبَّرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، فالله جَلَّوَعَلَا يغضب على الكفار، ويغضب على بعض أهل الكبائر؛ لأنه سبحانه يغار على حرَماته، فيغضب إذا انتهكت حرَماته، ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ﴾ [النساء: ٩٣]، غضب الله عليه بسبب جريمة القتل للمؤمن عمداً وعدواناً.

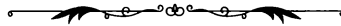
فalgضب من صفات الله جَلَّوَعَلَا، فالله يغضب، والمخلوق يغضب، ولكن ليس غضب الله جَلَّوَعَلَا كغضب المخلوق؛ لما بين الخالق والمخلوق من الفرق العظيم، فلا تشابه بين غضب الله وغضب المخلوق، وإن اشتركت هذه الصفة في اللفظ والمعنى، لكنها لا تشترك في الكيفية والحقيقة كسائر الصفات.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَقَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ﴾﴾ [محمد: ٢٨]، في هذه الآية وُصف الله بأنه يسخط، والسخط: نوع من الغضب؛ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ، فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨]، والذي يُسخط الله جَلَّوَعَلَا هو المعاصي والكفر والشرك، فالله يوصف بأنه يسخط على أعدائه والمخالفين لأوامره المرتكبين لما نهى عنه؛ ﴿لَيْسَ مَا قَدَمْتُمْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: ٨٠].

والمخلوق يسخط -أيضاً- ولكن لا تشابه بين سخط الخالق وسخط المخلوق، وإن اشتركت هذه الصفة في اللفظ، واشتركت في المعنى، لكن الكيفية مختلفة تماماً بين الخالق والمخلوق، هذه قاعدة في كل الصفات.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿كَرِهَ اللَّهُ أَنْيَعَاثَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦])، كذلك فيه وُصف الله أنه يكره؛ ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ أَنْيَعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٤٦) ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٦-٤٧]، هذه في المنافقين في غزوة تبوك، لما تخلف المنافقون بين الله للمؤمنين أن الله هو الذي خلفهم، وأخبرهم؛ لأنهم لو خرجوا، لحصل على المؤمنين منهم ضرر، ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾؛ يعني: للغزو مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ أَنْيَعَاثَهُمْ﴾؛ أي: خروجهم، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾، ثبطهم عن الخروج وكسلهم، ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾، ثم بين المفاصد في خروجهم فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، بين سبحانه المفاصد التي تترتب على خروجهم مع المسلمين للغزو؛ أنهم يوقعون الشقاق بين المسلمين، وأنهم يريدون إيقاع الفتنة وتفريق الكلمة، وأن من المسلمين من يستمع لهم، ويتأثر بكلامهم، ويصدقهم، فالله جَلَّ وَعَلَا منعه من الخروج؛ حكمة منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الشاهد من الآية: ﴿كَرِهَ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ﴾، ففيه أن الله يكره بعض الأعمال، ويكره بعض الأشخاص، والمخلوق يكره -أيضاً- ولكن مع الفرق بين كراهة المخلوق وكراهة الخالق سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كسائر الصفات.



وَمِنَ السُّنَّةِ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ نَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا»^(١).

الشرح

قال رحمه الله: (قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ نَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا»)، هذا الحديث الصحيح في النزول حديث مشهور جاء من عدة طرق عن جماعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ نَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»^(٢)، ولذلك يُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ -أَي: فِي ثُلُثِ اللَّيْلِ الْآخِرِ- أَنْ يَكُونَ مُسْتَقِظًا، يَدْعُو اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا، وَيَتَهَجَّدُ، وَيَسْتَغْفِرُ، حَتَّى يَحُوزَ عَلَى هَذِهِ الْمُنْقَبَةِ الْعَظِيمَةِ؛ فَإِنَّهُ وَقْتُ إِجَابَةِ: «مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»، فَإِذَا وَافَقَ الْعَبْدُ هَذِهِ السَّاعَةَ، يَتَضَرَّعُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ، وَيَسْتَغْفِرُ، وَيَسْأَلُ، وَيَتُوبُ إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِيهِ مَا طَلَبَ.

وهذا الحديث ثابت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا كَلَامَ فِي ثُبُوتِهِ، وَلَا مَطْعَنَ فِي سَنَدِهِ، وَفِيهِ وَصْفُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا بِالنُّزُولِ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، فَهُوَ حَدِيثٌ عَظِيمٌ، نَشَبَتْ كَمَا جَاءَ، وَأَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ؛ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِذَلِكَ، وَلَكِنْ لَا نَتَعَرَّضُ لِكَيْفِيَّتِهِ، فَنَقُولُ: كَيْفَ يَنْزِلُ؟ وَلَا نَتَعَرَّضُ لَهُ؛ كَسَائِرِ الصِّفَاتِ،

(١) سبق تخريجه (ص ٤٧).

(٢) سبق تخريجه (ص ٤٧).

لا نتعرض لكيفيتها، فالله ينزل كما يشاء سُبحَانَهُ وَتَعَالَى وكيف يشاء، استوى على العرش كيف شاء، فنحن لا نبحث في كيفية النزول، وإنما نثبت النزول، ونكل كيفيته إلى الله جَلَّ وَعَلَا.

«يَنْزِلُ رَيْنًا»، أسند النزول إلى الله جَلَّ وَعَلَا، وفي هذا رد على الذين يقولون: (ينزل أمره)؛ لأن هذا تأويل باطل، أسند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النزول إلى الرب، ولم يسنده إلى أمر الله، أيضًا أمر الله جَلَّ وَعَلَا دائمًا ينزل، ليس هو بخاص بثلاث الليل الآخر.

أيضًا مما يُبطل هذا التأويل: أن الله جَلَّ وَعَلَا يقول: «مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»، هل الأمر يقول هذا؟ الأمر يقول: هل من سائل فأعطيه؟ الأمر يعطي؟ الأمر يغفر الذنوب؟ الأمر يتوب على من تاب؟ هذه كلها صفات لله جَلَّ وَعَلَا، وليست صفات لأمره سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

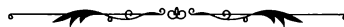
ثبت ما جاء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونعتقد، ولا ندخل في كيفيته، ونقول: كيف ينزل؟ هل يخلو منه العرش أو لا يخلو؟ هل نزوله بحركة أو بغير حركة؟ هل وهل... إلى آخر التساؤلات؟ ثلث الليل يختلف باختلاف الأقاليم؟ كل هذا لا دخل لنا فيه، الذي خلق الأقاليم، وخلق الليل والنهار هو الله جَلَّ وَعَلَا، فهو ينزل كيف يشاء، وهو على كل شيء قدير سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، لا ندخل في هذه المتاهات وهذه الأباطيل، ونتقول على الله وعلى رسوله ما لا نعلم، نحن لسنا مكلفين بذلك، كفاك أن تعلم أن الله ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل، وأن تتعرض لهذه النفحات، ولا تحرم نفسك

منها، فتقوم كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر، وتسأل الله، وتستغفره، وتتوب إليه، أما إنك تجيء بهذه التساؤلات: كيف ينزل؟ كيف كذا؟ وكيف كذا؟ الليل يختلف؟ تشغل نفسك بهذه الأمور، وتحرم نفسك من هذا الأجر وهذه النفحات العظيمة، هذا حرمان -والعياذ بالله!

بلغك هذا الأمر، فعليك بالمبادرة والامتنال؛ لئلا تفوتك الفرصة، ولا تتسائل وتفكر، وتسأل فلانًا وفلانًا، هذه مشغلة، ولا طائل تحتها.

ما أخبرنا الله بهذا، إلا من أجل أن نستغل هذه الفرصة في كل ليلة، ونبادر إليها، ونتحراها، فهي نعمة من الله جَلَّ وَعَلَا وفرصة ثمينة، هذا هو المطلوب منا.

المطلوب منا العمل، وليس المطلوب منا الاستشكالات والقول على الله بلا علم، هذا ضلال -والعياذ بالله!



وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَعْجَبُ رُبُّكَ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبُوءٌ»^(١)،

الشرح

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلُهُ: «يَعْجَبُ رُبُّكَ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبُوءٌ»)، هذا فيه إثبات العجب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه يعجب للشاب؛ يعني: يحب هذا الشيء جَلَّ وَعَلَا، ويعجبه.

والعجب: هو خروج الشيء عن المألوف^(٢)، هذا الذي يسبب العجب، والله يوصف بالعجب، والمخلوق يوصف بالعجب، مع الفرق بين العجيبين.

والصبوة: هي الميل إلى الشهوات والمستلذات^(٣)؛ لأن من عادة الشاب -بسبب قوة الشباب فيه وقوة الشهوة فيه- أنه يميل إلى الشهوات، وإلى الغفلة، واللهو، والتمتع بهذه الدنيا، فإذا جاء شاب على خلاف هذا المألوف،

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/ ١٥١)، وأبو يعلى (٣/ ٢٨٨)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٠٩)، ابن أبي عاصم في السنة [٥٧١ (١/ ٢٥٠)]، والشهاب القضاعي في مسنده (٥٧٦)، من حديث عقبة بن عامر رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ، وفي إسناده ابن لهيعة، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٧٣): إسناده حسن. اهـ.

وله شاهد من حديث أبي هريرة رواه أبو نعيم في أخبار أصبهان (٢/ ٦٩) من طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر مادة (عجب) في: العين (١/ ٢٣٥)، وتهذيب اللغة (١/ ٢٤٧)، والصحاح (١/ ١٧٧)، ومقاييس اللغة (٤/ ٢٤٣)، ولسان العرب (١/ ٥٨٠).

(٣) انظر مادة (صبو) في: العين (٧/ ١٦٨)، وتهذيب اللغة (١٢/ ١٧٩)، والصحاح (٦/ ٢٣٩٨)، ومقاييس اللغة (٣/ ٣٣١)، ولسان العرب (١٤/ ١٥٠).

وترك التصابي، وترك الميل مع الشهوات، وأقبل على عبادة الله في شبابه، فهذا يُعجب الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنه عجب.

وفي الحديث الآخر: أن من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم القيامة «شَابُّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ»^(١)، وكونه خرج عن طور الشباب، وغلبة الشهوة، وألف العبادة، هذا شيء عجيب، ودليل على قوة إيمانه؛ كما أن الشيخ كبير السن إذا حصلت منه زلة أو هفوة، فهذا مما يُستغرب منه؛ لأنه في سن لا يليق به المخالفة والميل مع الشهوات؛ لكبر سنه، فوقوعه في الحرام دليل على ضعف إيمانه، ولهذا جاء أن من الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزيكهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: الشيخ الزاني؛ «أُشِيمَطُ زَان»^(٢)، وأُشِيمَطُ: تصغير أشمط، وهذا التصغير للتحقير، والأشمط هو المختلط سواد شعره ببياض الشيب^(٣)، فكان المؤلف في مثل هذا أنه يُقبل على العبادة،

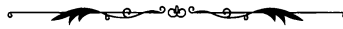
(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (٩١) (١٠٣١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابُّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ».

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (٨٢/٢) من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولفظه: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشِيمَطُ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ بَضَاعَةً فَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِبَيْعِهِ وَلَا يَشْتَرِي إِلَّا بِبَيْعِهِ».

(٣) انظر مادة (شمط) في: العين (٢٤٠/٦)، وتهذيب اللغة (٢١٩/١١)، والصحاح (١١٣٨/٣)، ومقاييس اللغة (٢١٤/٣)، ولسان العرب (٣٣٥/٧).

فإذا انصرف عن العبادة إلى الشهوات، خرج عن المألوف، وصار ذنبه أعظم من ذنب الشاب؛ لأن الشاب تدفعه قوة الشهوة، أما هذا، فليس فيه قوة شهوة، لكن لحبه للمعصية وإلفه لها مال إليها.

الحاصل: أن هذا الحديث فيه إثبات العجب لله جَلَّ وَعَلَا، وأنه يعجب من بعض عباده، وتعجبه الأعمال، والمخلوق يعجب: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ يَلَفْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]، وصف نبيه بأنه يعجب، ووصف نفسه في هذا الحديث بأنه يعجب سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، مع الفرق بين العجيين؛ عجب الخالق وعجب المخلوق.



وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ يَدْخُلَانِ الْجَنَّةَ»^(١).

الشرح

هذا -أيضاً- حديث صحيح: «يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ»، فيه وصف الله بأنه يضحك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والمخلوق يضحك -أيضاً-، لكن مع الفرق بين ضحك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبين ضحك المخلوق.

«يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ يَدْخُلَانِ الْجَنَّةَ»، وقد جاء تفسير ذلك: بأن هذا الرجل القاتل كان على الكفر، والمقتول كان مؤمناً، فالكافر قتل المؤمن، ثم تاب الله على هذا الكافر، فاسلم، فدخل الجنة، فاجتمع هو والقتيل في الجنة^(٢)؛ لأنه تاب، فتاب الله عليه، فهذا دليل على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يضحك من هذا الأمر العظيم.

- (١) رواه البخاري (٨٢٦)، ومسلم [(٢٨)(١٨٩٠)]، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ، يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، يَدْخُلَانِ الْجَنَّةَ: يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْقَاتِلِ فَيُسْتَشْهِد» لفظ البخاري.
- (٢) انظر: الاستذكار (٩٦/٥)، وشرح النووي على مسلم (٢٦/١٣)، وفتح الباري (٤٠/٦)، وعمدة القاري (١٢٢/١٤).

فَهَذَا وَمَا أَشْبَهُهُ بِمَا صَحَّ سَنَدُهُ، وَعُدَّتْ رِوَاثُهُ، نُؤْمِنُ بِهِ، وَلَا نَرُدُّهُ، وَلَا نَجْحَدُّهُ، وَلَا نَتَّوَلُّهُ بِتَأْوِيلٍ يُخَالِفُ ظَاهِرَهُ، وَلَا نُشَبِّهُهُ بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَا بِسِمَاتِ الْمُحَدَّثِينَ، وَنَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا شَبِيهَ لَهُ، وَلَا نَظِيرَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وَكُلُّ مَا تُحِيلُ فِي الذَّهْنِ، أَوْ خَطَرَ بِالْبَالِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِخِلَافِهِ.

الشَّرْحُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَهَذَا وَمَا أَشْبَهُهُ بِمَا صَحَّ سَنَدُهُ)، فهذا الذي ذُكِرَ في هذه الأحاديث من هذه الصفات، وما أشبهه من الأحاديث الأخرى، التي فيها صفات الرب جَلَّ وَعَلَا بما صحَّ سنده، فلا بد أن يكون سنده صحيحًا، والحديث الصحيح: هو ما رواه عدل تام الضبط عن مثله من بداية السند إلى نهايته، مع السلامة من الشذوذ، والسلامة من العلل^(١)، هذا هو الصحيح؛ ما توفر فيه هذه الشروط الخمسة، فإذا صحَّ الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيه صفة من صفات الله جَلَّ وَعَلَا أو خبر عن الله جَلَّ وَعَلَا، فإنه يجب الإيمان به واعتقاده، سواء كان متواترًا، أو كان آحادًا؛ لأنه يفيد العلم واليقين، لا كما يقوله أهل الضلال: (إن خبر الآحاد - ولو صح - يفيد الظن عندهم)، وهذا لتلوث أفكارهم بعلم الكلام وعلم المنطق، ولو صحت أفهامهم وإيمانهم، لما قالوا هذه المقالة في أحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) انظر: المنهل الروي في مختصر علوم الحديث النبوي (١/ ٣٣)، والخلاصة في معرفة الحديث (١/ ٣٥)، ومشيخة القزويني (١/ ٩٢).

أما ما لم يصح سنده، فهو حديث ضعيف.

القدامى الحديث عندهم ينقسم إلى قسمين: صحيح أو ضعيف، والحسن داخل عندهم في قسم الصحيح. إنما قُسم الحديث إلى ثلاثة أقسام -صحيح، وحسن، وضعيف- في عهد المتأخرين من أهل الحديث، ويقولون: (أول من ذكر هذا الإمام الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ)^(١)، وإلا فالأقدمون عندهم الحديث ينقسم إلى صحيح -ويدخل فيه الحسن-، وإلى ضعيف، والضعيف لا يدخل في باب العقائد، إلا إذا كان يستند إلى أدلة أخرى.

قد يقول قائل: (هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف فيها شيء ضعيف)، فنقول: هذه ما ذكرها المؤلف، إلا لأنها تعتضد بأدلة صحيحة، وتدخل تحت أصل، والضعيف إذا كان يدخل تحت أصل صحيح، يُستأنس به، أما إذا لم يستند إلى أصل صحيح، فإنه لا يُستدل به في باب العقائد.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَعُدَّتْ رُؤَاتُهُ)، هذا داخل فيما صح سنده؛ لأنه لا يكون صحيحاً إلا إذا عدلت رواته، وهو هنا من باب التأكيد والترابط.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (نُؤْمِنُ بِهِ، وَلَا نَرُدُّهُ)، نُؤْمِنُ بِهِ نعتقد به ولا نرده، بخلاف أهل الضلال، الذين يردون ما صح عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقولون: (إنه لا يفيد العلم)؛ بناء على قواعدهم المنطقية الكلامية التي ابتدعوها، فنحن

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في مجموع الفتاوى (١/٢٥٢): (أَوَّلُ مَنْ عُرِفَ أَنَّهُ قَسَمَ الْحَدِيثَ ثَلَاثَةً أَقْسَامٍ -صَحِيحٌ وَحَسَنٌ وَضَعِيفٌ- هُوَ أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ).

لا نعمل عملهم، بل نبرأ منهم ومن عملهم، نؤمن به، ونعتقد ما دل عليه، ولا نرده؛ كما يرده هؤلاء.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا نَجْحَدُهُ)، نجحده بأن ننفي ما دل عليه من الأسماء والصفات، لا ننفي هذا، بل نُثَبِّت ما دل عليه كما أثبتته الله ورسوله، هذا واجب المسلم؛ الإيمان والتسليم والانقياد لما صح عن الله ورسوله، ولا يتدخل بعقله وفكره واعتراضاته وتشكيكاته، أو يقبل كلام المضللين وشبهات المشبهين، لا يلتفت إلى هذه الأمور ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فالمدار على الثبوت والصحة؛ فما ثبت، وجب الإيمان به، وقبوله، وإثباته، والعمل به، دون تردد، أو توقف، أو التفات إلى ما يقوله أهل الضلال.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا نَتَأَوَّلُهُ بِتَأْوِيلٍ يُخَالِفُ ظَاهِرَهُ)؛ لأن عمل المخالفين إما الرد وعدم القبول، وإما الإثبات مع التأويل، إذا عجزوا عن رد النصوص، فإنهم يلجؤون إلى التأويل، والتأويل: هو صرف اللفظ عن معناه الصحيح إلى معنى آخر غير صحيح، فيصرفون النصوص عن ظاهرها إلى معاني أخرى، مثلاً قالوا: (اليد معناها القدرة، والوجه معناه الذات، والاستواء معناه الاستيلاء على العرش)؛ لأنهم لا يقدرّون على رد هذه النصوص؛ لأنها ثابتة في القرآن والسنة، فيلجؤون إلى التأويل.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا نُشَبِّهُهُ بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ)، لا نرده، ولا نؤوله، ولا نشبهه؛ كما الطائفة الثانية من أهل الضلال، يثبتون هذه الأدلة، ولا يتكلمون في ثبوتها، ولا يتكلمون أيضًا في معانيها، لكن يشبهونها -أيضًا- بصفات المخلوقين، هؤلاء يقال لهم: المشبهة والمثلة، وهذا مذهب باطل مثل التعطيل.

والمذهب الحق: هو إثباتها بلفظها ومعانيها من غير تأويل ومن غير تشبيه، هذا مذهب أهل الحق؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فنفى عن نفسه المثلية، وأنه لا يشبهه شيء من خلقه، وأثبت له السمع والبصر.

وفي الآية الأخرى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]؛ يعني: الأشباه والنظراء، وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]؛ أي: مكافئًا ومساويًا، وفي الآية الأخرى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]؛ أي: لا تعلم أحدًا يستحق اسمه على الحقيقة ويماثله، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، والأنداد هم الأشباه والنظراء، لا في عبادته، ولا في أسمائه وصفاته، ولا في أفعاله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ليس له شبيه بوجه من الوجوه، فالمشبهة يثبتون الأدلة، ولا يؤولونها، ولكنهم زادوا في الإثبات، حتى شبهوا الله جَلَّ وَعَلَا بخلقهم، فهذا مذهب باطل، وهو عديل لمذهب المعطلة، وقول على الله بلا علم، وقول كلا الطائفتين باطل.

يرد على المشبهة قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ويرد على المعطلة قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا بِسِمَاتِ الْمُحَدِّثِينَ) السمات هي الصفات والخصائص، والمحدثون هم المخلوقون؛ لأن كل مخلوق فهو مُحَدِّث، بعد أن لم يكن. فنحن لا نُشَبِّه الله بصفات المخلوقين، ولا بسِمَاتِ المُحَدِّثِينَ، المعنى واحد، لكن هذا من باب التأكيد.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَنَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا شَبِيهَ لَهُ، وَلَا نَظِيرَ)، هذا هو اعتقاد أهل الحق؛ أن الله جَلَّ وَعَلَا لا شبيه له، ولا نظير؛ يعني: لا أحد يشبهه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والنظير هو المساوي للشيء، فلا أحد يساوي الله جَلَّ وَعَلَا، تقول: (هذا نظير هذا)؛ أي: هذا معادل لهذا، ومساوٍ له^(١)، الله جَلَّ وَعَلَا ليس له شبيه في أسمائه وصفاته ولا نظير له فيها، لا أحد يشاركه سبحانه فيما يستحقه من العبادة وصفات الكمال ونعوت الجلال.

هذا فيه رد على المشبهة، الذين غلوا في إثبات الأسماء والصفات، حتى شبهوها بصفات المخلوقين.

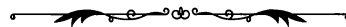
والأولون من المعطلة غلوا في التنزيه، حتى عطلوا الله جَلَّ وَعَلَا من أسمائه وصفاته، فطائفة غلت في التنزيه، وهم المعطلة، وطائفة غلت في الإثبات، وهم المشبهة، أما أهل السنة والجماعة، فإنهم وسط؛ لم يعطلوا أسماء الله، ونزهوا الله جَلَّ وَعَلَا عن النقائص تنزيهاً بلا تعطيل، وأثبتوا له الأسماء والصفات إثباتاً بلا تشبيه ولا تمثيل، فتجنبوا غلو الطائفتين؛ غلو المنزهة، وغلو الممثلة والمشبهة، كلا الطائفتين غالى في مذهبه، أما أهل السنة -والحمد لله-، فهم

(١) انظر مادة (نظر) في: العين (٨/١٥٤)، وتهذيب اللغة (١٤/٢٦٤)، والصحاح (٢/٨٣٠)، ومقاييس اللغة (٥/٤٤٤)، ولسان العرب (٥/٢١٥).

المعتدلون وعلى مقتضى الكتاب والسنة، وهكذا الحق دائماً هو الوسط بين الضالّتين.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] هذه الآية ميزان لأهل الحق، ترد على المعطلة، وترد على المشبهة، وتثبت لله الأسماء والصفات من غير تعطيل ومن غير تشبيه؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، هذا رد على المشبهة الذين غلوا في الإثبات، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، هذا رد على المعطلة الذين غلوا في التنزيه، حتى نفوا أسماء الله وصفاته فراراً من التشبيه عندهم، فوقعوا في تشبيه أشر مما فروا منه، وهو أنهم شبهوا الله بالمعدومات والممتنعات.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَكُلُّ مَا تُخَيَّلُ فِي الذَّهْنِ، أَوْ خَطَرَ بِالْبَالِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِخِلَافِهِ﴾، الله جَلَّ وَعَلَا لا يتصور في الذهن ولا في التفكير؛ لأنه هو أعظم من كل شيء، فلا يجوز لأحد أن يتخيل ذاته سبحانه أو صفاته، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ [طه: ١١٠]؛ لا يحيطون بالله جَلَّ وَعَلَا علماً؛ فلا يعلم ذاته سبحانه وتعالى وأسماءه وصفاته إلا هو سبحانه. فهو يحيط بالخلقين، والمخلوقون لا يحيطون به؛ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾، الله لا يحاط به، ولا يتخيل، ولا يتصور سبحانه وتعالى؛ لأنه أعظم من كل شيء، فكل ما خطر ببالك، أو دار في خيالك في حق الله جَلَّ وَعَلَا وعن ذاته، فإن الله بخلاف ذلك، لا تحيط به الأفكار والتخيلات.



وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾ [طه: ٥].

الشرح

من الآيات الدالة على إثبات الصفات هذه الآيات السبع في كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ وردت أيضًا في [الأعراف: ٥٤]، و[يونس: ٣]، و[الرعد: ٢]، و[السجدة: ٤]، و[الحديد: ٤]، كلها تُثبت الاستواء لله جلَّ وعلا.

والعرش: هو سقف المخلوقات^(١)، وأعظم المخلوقات، والمخلوقات بالنسبة له صغيرة جدًا، وهو أعظمها: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾

(١) كما في حديث الأبطح الذي أخرجه أبو داود (٤٧٢٦)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٥٢/١)، والطبراني في الكبير (١٢٨/٢)، وأبو الشيخ في العظمة (٥٥٦/٢)، وابن عبد البر في التمهيد (١٤١/٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦١/١)، وابن أبي شيبة في العرش (ص ٥٧)، والآجري في الشريعة (٣٠٧)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/٣٩٤) من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جُهِدْتَ الْأَنْفُسَ، وَصَاعَتِ الْعِيَالُ، وَنُهِكَتِ الْأَمْوَالُ، وَهَلَكْتَ الْأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقِ اللَّهَ لَنَا، فَإِنَّا نَسْتَشْفَعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ وَنَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟» وَسَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيَحْكَ أَتَدْرِي مَا اللَّهُ، إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَواتِهِ لَهَكَذَا». وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقَبَّةِ عَلَيْهِ، «وَإِنَّهُ لَيَطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلُ بِالرَّاكِبِ».

[البقرة: ٢٥٥]، والكرسي غير العرش^(١)، وقد جاء وصفه أنه بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة^(٢)، الكرسي وسع السماوات والأرض، ومع هذا نسبته إلى العرش كحلقة بأرض فلاة، ماذا تستغرق الحلقة من الفلاة؟ فالعرش مخلوق عظيم، وهو أعلى المخلوقات، وتحتة جنة الفردوس؛ لأن جنة الفردوس سقفها عرش الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(٣).

والعرش في اللغة: السرير الذي يجلس عليه الملك^(٤)، لكن عرش الله جَلَّوَعَلَا لا يتصور، ولا يتخيل عظمه وسعته، وقد ذكره الله في كثير من الآيات، ووصفه بالعظمة: ﴿الْعَرْشُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٢٩]، ﴿الْعَرْشُ الْكَرِيمُ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]، فدل على عظم هذا المخلوق، وهو العرش.

(١) انظر: مادة: (ك ر س) في لسان العرب (٦/ ١٩٤)، ومختار الصحاح (ص ٢٣٦)، وتاج العروس (١٦/ ٤٣٦).

(٢) كما في حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ». أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ٥٣٩)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٣٦).

(٣) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٧٩٠) وفيه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفَرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ».

(٤) انظر: مادة: (ع ر ش) في النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٢٠٧)، ولسان العرب (٦/ ٣١٣)، ومختار الصحاح (ص ١٧٨).

أما الاستواء، فمعناه - كما فسرهُ السلف -: العلو، والاستقرار، والصعود، والارتفاع، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ^(١):

فَلَهُمْ عِبَارَاتٌ عَلَيْهَا أَرْبَعٌ قَدْ حُصِّلَتْ لِلْفَارِسِ الطَّعَانِ
وَهِيَ اسْتَقَرَّ وَقَدْ عَلَا وَكَذَلِكَ أَرَى تَفَعَّ الَّذِي مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانٍ
وَكَذَلِكَ قَدْ صَعِدَ الَّذِي هُوَ رَابِعٌ وَأَبُو عُبَيْدَةَ صَاحِبُ الشَّيْبَانِي
يَخْتَارُ هَذَا الْقَوْلَ فِي تَفْسِيرِهِ أَدْرَى مِنَ الْجَهْمِيِّ بِالْقُرْآنِ

هذه تفسيرات السلف للاستواء على العرش.

أما أهل الضلال، فيفسرون الاستواء بالاستيلاء، فيقولون: (استوى على العرش: يعني استولى عليه)، وهذا التفسير ليس له وجه في اللغة، ولا هو معروف عند العرب، إلا بيتاً نسبوه للأخطل^(٢)، الذي يقول:

قَدْ اسْتَوَى بِشَرْ عَلَى الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَلَا دِمٍّ مُهْرَاقٍ^(٣)

والأخطل نصراني لا يُحتج بكلامه، لأن النصارى أهل ضلال، لكن مع هذا لم يثبت عن الأخطل، وليس هو في ديوانه المعروف، فليس في لغة العرب

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (١/ ٤٤٠).

(٢) هو غياث بن غوث بن الصلت بن طارق بن عمرو بن سيحان الأخطل، الشاعر النصراني، قيل للفرزدق: من أشعر الناس؟ قال: كفاك بي إذا افتخرت، ويجرير إذا هجا، وبابن النصرانية إذا امتدح. وكان عبد الملك بن مروان يجزل عطاء الأخطل ويفضله في الشعر على غيره. انظر: طبقات فحول الشعراء (٢/ ٢٩٨)، وتاريخ دمشق (٤٨/ ١٠٤)، ١٠٥، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٥٨٩).

(٣) انظر: لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة لأبي المعالي الجويني (ص ١٠٨)، ومجموع الفتاوى (٥/ ١٤٦)، وإيضاح الدليل لابن جماعة (ص ١٠٢).

تفسير الاستواء بالاستيلاء أبدًا، هذا تفسير مُحدث، وهذا البيت مُتّحل ومكذوب على لغة العرب^(١)، هذا من ناحية.

والناحية الثانية: يلزم على هذا -والعياذ بالله- لازم باطل، وهو أنه يلزم إذا فسرنا (استوى) باستوى على العرش أن العرش في الأول لم يكن لله جَلَّ وَعَلَا، ثم استوى عليه سبحانه أخيرًا، وغلب عليه، وأخذه من يد المستوي عليه الأول، وهذا فيه من الكفر والضلال ما فيه.

أيضًا لو فُسر الاستواء بالاستيلاء، لم يقتصر هذا على العرش، فالله مستولٍ على كل مخلوقاته.

وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ هذا التفسير من عشرين وجهًا تجدونها في الفتاوى^(٢).

(١) ابن الأعرابي أحد علماء اللغة أتاه رجل فقال له: ما معنى قول الله عَزَّجَلَّ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾؟ فقال: «هو كما أخبر عَزَّجَلَّ»، فقال: يا أبا عبد الله ليس هذا معناه، إنما معناه استوى، قال: «اسكت ما أنت وهذا، لا يقال استوى على الشيء إلا أن يكون له مضادًا فإذا غلب أحدهما قيل استوى. وقد سئل الخليل بن أحمد: هل وجدت في اللغة استوى بمعنى استوى؟ فقال: (هذا ما لا تعرفه العرب ولا هو جائز في لغتها). انظر: العرش للذهبي (١/ ٢٠٢-٢٠٣)، والعلو للعلي الغفاري (١/ ١٨٠)، وأقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات (١/ ١٢٤)، ولوائح الأنوار السنية (١/ ٣٦٢).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ١٤٤)، وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في نونية:

أَمْرَ الْيَهُودِ بِأَنْ يَقُولُوا حِطَّةً	فَأَبَوْا وَقَالُوا حِطَّةً لِّهَوَانٍ
وَكَذَلِكَ الْجَهْمِيُّ قِيلَ لَهُ اسْتَوَى	فَأَبَى وَزَادَ الْحَرْفَ لِنُقْصَانٍ
قَالَ اسْتَوَى اسْتَوَى وَذَا مِنْ جَهْلِهِ	لُغَةً وَعَقْلًا مَا هُمَا سَيَّانٍ
عَشْرُونَ وَجْهًا تُبْطِلُ التَّأْوِيلَ بِاس	تَوَلَّى فَلَا تَخْرُجَ عَنِ الْقُرْآنِ
قَدْ أَفْرَدَتْ بِمُصَنَّفٍ هُوَ عِنْدَنَا	تَصْنِيفُ حَبْرٍ عَالِمٍ رِيَّانِي
وَلَقَدْ ذَكَّرْنَا أَرِيعِينَ طَرِيقَةً	قَدْ أَبْطَلْتَ هَذَا بِحُسْنِ بَيَانٍ =

أيضاً الاستواء جاء في سبع آيات كلها بهذا اللفظ ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وليس فيها لفظة «استوى» حتى يُفسر بعضها ببعض، فلما جاء كله بلفظ واحد، دل على أن معناه واحد، وهو العلو والارتفاع.

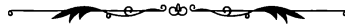
والاستواء من صفات الأفعال، ولذلك عطفه على خلق السماوات والأرض بشم، فقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤]، فهو من صفات الأفعال، التي يفعلها الله جَلَّ وَعَلَا متى شاء، وإذا شاء.

أما العلو، فإنه صفة ذات، لا ينفك عن الله جَلَّ وَعَلَا، لا يزال الله في العلو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أما الاستواء، فهو صفة فعل، يفعلها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى متى شاء.

فأهل السنة والجماعة يؤمنون باستوائه على عرشه، ويقولون: (الاستواء يأتي في القرآن على معان: يأتي لازماً غير متعدي، وذلك كما في قوله عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَأَسْتَوَىٰ﴾ [القصص: ١٤]، ومعناه الكمال والتمام، وإذا عُدي بـإلى: ﴿أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، فمعناه القصد، وإن عُدي بالواو، فمعناه المساواة، تقول: (استوى الماء والخشبة)، بمعنى تساويا، (استوى فلان وفلان)، بمعنى تساويا، وإذا عُدي بـ«على»، فمعناه الارتفاع؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٣﴾ لِّتَسْتَوُوا عَلَىٰ

= هِيَ فِي الصُّوَاعِقِ إِنْ تُرِدَ تَحْقِيقَهَا لَا تَخْتَفِي إِلَّا عَلَى الْعُمَيَّانِ
نُونُ الْيَهُودِ وَلَا مَجْهَمِي هُمَا فِي وَحْيِ رَبِّ الْعَرْشِ زَائِدَتَانِ
انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٢٦).

ظُهُورِهِ ﴿[الزخرف: ١٢-١٣]؛ أي: ترتفعوا عليها، وتستقروا على ظهور الفلك
وظهور الأنعام في السفر، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾
[الأعراف: ٥٤]؛ يعني: ارتفع، وعلا، وصعد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكل هذا على ما يليق
بجلاله، ليس مثل صعود المخلوق، أو علو المخلوق على المخلوق، أو استواء
المخلوق على المخلوق، هناك فرق بين استواء المخلوق واستواء الخالق
جَلَّ وَعَلَا.



وَقَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦]، وَقَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَبُّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ»^(١).

الشرح

قال رحمه الله: (وقوله عَزَّجَلَّ: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦]) قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾^(١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ [الملك: ١٦-١٧]، السماء: المراد بها العلو^(٢)، ف﴿مَّن فِي السَّمَاءِ﴾؛ أي: في العلو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتكون (في) بمعنى (على)، (في السماء)؛ يعني: (في العلو) على ظاهرها.

(١) رواه أبو داود (٣٨٩٢)، وأحمد (٢١/٦)، والدارمي في الرد على الجهمية (ص ٢٣)، والحاكم في المستدرک (١/٣٤٤)، (٤/٢١٨، ٢١٩)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ورواه اللالكائي من طريق أبي داود [ح ٦٤٨ (٣/٤٣١)]، من حديث فضالة بن عبيد عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولفظه: «مَنْ اشْتَكَى مِنْكُمْ شَيْئًا، أَوْ اشْتَكَاهُ أَحَدٌ لَهُ فَلْيَقُلْ رَبُّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَمَا رَحِمْتَكَ فِي السَّمَاءِ فَاجْعَلْ رَحِمَتَكَ فِي الْأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحِمَتِكَ وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجْعِ، فَيَبْرَأَ»، هذا لفظ أبي داود، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الواسطية (ص ١١٧): حديث حسن.

(٢) قال ابن منظور: «سما: السُّمُو: الارتفاعُ والعُلُو، تقول منه: سَمَوْتُ وَسَمِيتُ مِثْلَ عَلَوْتُ وَعَلَيْتُ وَسَلَوْتُ وَسَلَيْتُ؛ عَنْ ثَعْلَبٍ. وَسَمَا الشَّيْءُ يَسْمُو سُمُوًّا، فَهُوَ سَامٌ: اِرْتَفَعَ. وَسَمَا بِهِ وَأَسْمَاهُ: أَعْلَاهُ. وَيُقَالُ لِلْحَسِيبِ وَلِلشَّرِيفِ: قَدْ سَمَا. وَإِذَا رَفَعْتَ بَصْرَكَ إِلَى الشَّيْءِ قُلْتَ: سَمَا إِلَيْهِ بَصْرِي، وَإِذَا رَفَعَ لَكَ شَيْءٌ مِنْ بَعِيدٍ فَاسْتَبْتَهُ قُلْتَ: سَمَا لِي شَيْءٌ. وَسَمَا لِي شَخْصٌ فَلَانٍ: اِرْتَفَعَ حَتَّى اسْتَبْتَهُ. وَسَمَا بَصْرُهُ: عَلَا». انظر: لسان العرب (١٤/٣٩٧)، وتهذيب اللغة (١٣/٧٨)، ومقاييس اللغة (٣/٩٨).

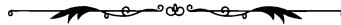
أما إذا أريد بالسما السماء المبنية، التي هي السبع الطباق، فتكون (في السماء) يعني: (على السماء)؛ لأن (في) تأتي بمعنى (على)؛ مثل: قوله: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٣٧]؛ يعني على الأرض، ﴿وَلَا تُصَلِّبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ يعني: على جذوع النخل، فإذا أريد بالسما مجرد العلو فإن (في) على ظاهرها ظرفية؛ يعني: في العلو، وإن أريد بها السماء المبنية، فيكون معنى قوله: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾؛ يعني: (على السماء)، وليس يعني ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أن الله داخل السماوات؛ لأن السماوات مخلوقة، والله جَلَّ وَعَلَا لا يحل في شيء من مخلوقاته، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، بل هو بائن من خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا فيه رد على الجهمية والمعتلة الذين يقولون: (إن الله لا يوصف بأنه في العلو، ولا داخل العالم، ولا خارج العالم)، وهذا معناه العدم؛ لأن الذي ليس داخل العالم، ولا خارج العالم هذا معناه أنه معدوم - تعالى الله عما يقولون!

وكذلك في الآية رد على الحلولية^(١)، الذين يزعمون أن الله حال في كل

شيء - تعالى الله عما يقولون!

(١) الحلولية: هم الذين يعتقدون أن الله تعالى بذاته حل في مخلوقاته كما يحل الماء في الإناء، وأنه تعالى بذاته في كل مكان، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وأما الاتحاد: فهو القول بأن الله تعالى متحد بمخلوقاته وممتزج بها كما يمتزج الماء بالطين، وأن وجود الخالق هو عين وجود المخلوقات، أي أن الوجود واحد. والقول بالحلول والاتحاد مآلها واحد، وهذه عقيدة غلاة الصوفية والفلاسفة، كابن عربي وابن سبعين والحلاج والتلمساني وغيرهم. انظر: مجموع الفتاوى (٢/ ١١١ - ٤٨٠).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَبُّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ»؛ كما أن الله وصف نفسه بأنه في السماء كذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصف ربه بأنه في السماء، فقال في حديث الرقية المعروف: «رَبُّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَمَا رَحِمْتِكَ فِي السَّمَاءِ فَاجْعَلْ رَحِمَتَكَ فِي الْأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحِمَتِكَ وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا التَّوَجُّعِ، فَيَبْرَأَ»، الشاهد منه قوله: «الَّذِي فِي السَّمَاءِ»، وصف ربه بأنه في السماء، وهذا الحديث وإن كان فيه ضعف، لكن الآية التي قبله: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦] تؤيده، والمصنف وغيره قد يذكرون أحاديث ضعيفة في باب العقائد، لكنها تدخل تحت أدلة صحيحة تؤيد معناها، فهي من باب الاعتضاد، ومن باب الاستئناس بها، لا من باب الاعتماد عليها كلياً.



وَقَالَ لِلْجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللَّهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «أَعْتَقْتُهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ». رَوَاهُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْأَثَمَةِ^(١).

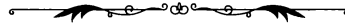
الشرح

هذا الحديث في الصحيح، وهو أن معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانت له جارية، فغضب عليها، ولطمها على وجهها، ثم ندم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأله عن إعتاقها؛ لأنه أراد أن يعتقها كفارة عما صدر منه، فقال لها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيْنَ اللَّهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ: «أَعْتَقْتُهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»، شهد لها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإيمان لما قالت: (إن الله في السماء، وأن محمداً رسول الله)، فهو أقرها على ذلك، ووصفها بالإيمان لما وصفت ربها بأنه في السماء، فهذا مثل ما جاء في الآية: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦].

(١) رواه مسلم (٥٣٧) في المساجد، وأبو داود (٩٣٠)، والنسائي (١٤/٣)، وفي الكبرى (٥٦١)، ومالك في الموطأ في العتق والولاء، باب ما يجوز في العتق من الرقاب الواجبة، (٧٧٦/٢)، وأحمد (٤٤٧/٥، ٤٤٨)، كلهم من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلَّا مَالِكًا؛ فَإِنَّهُ قَالَ: عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَكَمِ.

قال ابن عبد البر: هكذا يقول مالك في هذا الحديث، ولم يُتابع عليه، وهو مما عُدَّ من وهمه، وسائر الناس يقولون فيه: معاوية بن الحكم، وليس في الصحابة عمر بن الحكم، وقد ذكرنا في التمهيد ما فيه مخرج لمالك إن شاء الله، وأن الوهم فيه من شيخه، لا منه، انظر: تجريد التمهيد (ص ١٨٧).

وفي الحديث جواز السؤال عن الله بـ(أين) بأن يقال: (أين الله؟) وهذا أشد ما يكون على المعطلة، عندهم لا يقال: (أين الله) أبدًا؛ لأن الله عندهم ليس في جهة، والذي ليس في جهة لا يقال: (أين هو)، فهذا الحديث يطعن في أعينهم، وهو أشد حديث عليهم، ومنهم من يقول: ((أين)) معناها «من»، فمعنى قول: «أين الله؟» أي: مَنْ الله؟، سبحان الله! هل ورد في لغة العرب أو في لغة العجم أن «أين» بمعنى «مَنْ»؟ لكن هؤلاء كذبة، لا يتحاشون الكذب، فالحديث صريح مثل الآية، فدل على أن الذي يجحد أن الله في السماء ليس بمؤمن، وأن الذي يجحد علو الله ليس بمؤمن، نسأل الله العافية!



وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَمْ إِلَهًا تَعْبُدُ؟» قَالَ: سَبْعَةٌ؛ سِتَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ يَرْغَبُكَ وَرَهْبَتِكَ؟» قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «فَاتْرِكِ السَّتَّةَ وَاعْبُدِ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، وَأَنَا أَعْلَمُكَ دَعْوَتَيْنِ»، فَأَسْلَمَ وَعَلَّمَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَ: «اللَّهُمَّ أَنْهِنِي رُشْدِي وَقِنِي شَرَّ نَفْسِي»^(١).

الشرح

هذا الحديث من أدلة العلو، وهو أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لحصين والد عمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كَمْ إِلَهًا تَعْبُدُ؟»، ويريد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد أن يقرر له التوحيد، ويبطل الشرك، وذلك بالبرهان الذي يعترف به الخصم، «قَالَ: أَعْبُدُ سَبْعَةً»؛ يعني: سبعة آلهة، «سِتَّةٌ فِي الْأَرْضِ، وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ»، والواحد الذي في السماء هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، «قَالَ: مَنْ يَرْغَبُكَ وَرَهْبَتِكَ؟ قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ»، فهذا يبين ما كان عليه المشركون من تخبط في العبادة، وأنهم

(١) رواه الترمذي (٣٤٨٣)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وقدر روي هذا الحديث عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من غير هذا الوجه. اهـ. وروى أحمد بن حنبل (٤ / ٤٤٤)، والبخاري في مسنده (٣٥٧٩)، والدارمي في النقض (ح ٣٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ح ٨٩٤)، ورواه اللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة (ح ١١٨٤)، من حديث شبيب بن شيبه عن الحسن بن عمران، به. وشبيب بن شيبه قال فيه ابن معين: ليس بثقة. وقال أبو زرعة وأبو حاتم: ليس بالقوي. وقال أبو داود: ليس بشيء. وقال النسائي والدارقطني والبرقاني: ضعيف. وقال صالح بن محمد البغدادي: صالح الحديث. وقال الساجي: صدوق يهيم. انظر: تهذيب الكمال (٢ / ٥٧١) - النسخة الخطية، وتهذيب التهذيب (٤ / ٣٠٧)، وقال الحافظ في التقریب: صدوق يهيم في الحديث.

لما تركوا التوحيد، صاروا يعبدون آلهة كثيرة، قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿عَرَبَاتٌ مُتَفَرِّقَاتٌ فَخَرَّ أَمْرُ اللَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠]، وقال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩]، وذلك مثل للموحد والمشرِك، فالمشرِك مثل العبد الذي يملكه عدة أسياد، لا يدري من يرضي منهم؛ لأن رغباتهم مختلفة، كلهم له إرادة تخالف إرادة الآخر، فهو في حيرة من أمره، لا يدري من يرضي منهم؛ لتفاوت مطالبهم، وهو في قلق في حياته من هؤلاء الشركاء المتشاكسين، وأما الموحد، فهو مثل الذي يملكه سيد واحد، يعرف رغبته، ويعرف مطالبه، فهو معه في راحة، كذلك الذي يعبد إلهًا واحدًا يكون مطمئن البال، وأما الذي يعبد آلهة متعددة، فإنه يكون قلقًا مشوشًا، لا يدري بماذا يتقرب إلى كل واحد منهم.

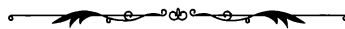
وهذا حصين يقول: (إنه يعبد ستة في الأرض -يعني: من الأصنام-، ويعبد واحدًا في السماء، الذي هو الله)، ففيه إثبات أن الله في السماء، حتى عند المشركين، وهم مشركون يعترفون أن الله في السماء، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟» يعني: عندما ترغب في شيء، عندما تحتاج إلى شيء، من الذي تطلب منه حوائجك؟ وعندما تخاف من شيء، من الذي تطلب منه أن يؤمنك من هذا الخوف؟ «قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ».

وقد تقرر التوحيد بدليله في أن هذه الآلهة المتعددة لا تنفع في الرخاء ولا في الشدة، وإنما الذي ينفع في الرخاء وفي الشدة هو الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا

-أيضاً- متقرر عند المشركين؛ أنهم إذا وقعوا في الشدة، فإنهم يخلصون الدعاء لله عَزَّوَجَلَّ، وينسون آهتهم؛ لأنهم يعلمون أنه لا يُخَلِّص من الشدائد والكربات إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(قال: «فَاتْرُكِ السُّتَّةَ وَاعْبُدِ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، وَأَنَا أُعَلِّمُكَ دَعْوَتَيْنِ»، فَأَسْلَمَ وَعَلَّمَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَ: «اللَّهُمَّ اأْهِنِّي رُشْدِي وَقِنِي شَرَّ نَفْسِي»)، فَأَسْلَمَ حَصِينٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعلمه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هاتين الكلمتين: «اللَّهُمَّ اأْهِنِّي رُشْدِي، وَقِنِي شَرَّ نَفْسِي»، فإذا ألهم الله العبد رشده، حصل له الخير في الدنيا والآخرة، ألهمه رشده: يعني وفقه للرشد، وهو الصواب، والحق في كل شيء، وإذا وقاه شر نفسه، فإنه يسلم من التعدي على الناس بأخذ أموالهم وسلب أموالهم بأي طريق، ويقتصر على ما أباح الله له، الذي وقى شر نفسه هذا يقتصر على الحلال، وأيضاً تسمح نفسه بالإنفاق في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، فيجده مدخراً له عند الله جَلَّوَعَلَا، فإذا وفق الإنسان لهاتين الخصلتين، ألهمه الله رشده، ووقاه شر نفسه، فإنه قد جمع الله له خيري الدنيا والآخرة.

الشاهد من الحديث: أن فيه إثبات العلو، فإن حصيناً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اعترف لله جَلَّوَعَلَا بالعلو، فقال: «وَاحِدًا فِي السَّمَاءِ»؛ يعني: في العلو، وأنه هو الذي يعده للرجوة والرهبة دون غيره، ففيه إثبات التوحيد وإفراد الله جَلَّوَعَلَا بالعبادة والرجوة والرهبة.



وَفِيْمَا نُقِلَ مِنْ عِلَامَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ أَنَّهُمْ يَسْجُدُونَ بِالْأَرْضِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ إِلَهُهُمْ فِي السَّمَاءِ.
وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةٌ كَذَا وَكَذَا - وَذَكَرَ الْخَبَرَ إِلَى قَوْلِهِ - وَفَوْقَ ذَلِكَ الْعَرْشُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ ذَلِكَ» (١).

الشرح

قال رحمه الله: (وَفِيْمَا نُقِلَ مِنْ عِلَامَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ أَنَّهُمْ يَسْجُدُونَ بِالْأَرْضِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ إِلَهُهُمْ فِي السَّمَاءِ)، هذا

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وروى الوليد بن أبي ثور عن سمالك نحوه ورفع، وروى شريك عن سمالك بعض هذا الحديث ووقفه ولم يرفعه. اهـ. وابن ماجه (١٩٣)، وأحمد (٢٠٦/١ - ٢٠٧)، والدارمي في الرد على الجهمية (ص ٢٤)، وابن أبي عاصم في السنة (ح ٥٧٧)، والآجري في الشريعة (ح ٦٧٤)، والحاكم في المستدرک (٣٧٨/٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد. واللالكائي (ح ٦٥٠)، عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكَيْفَ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَصْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ تَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ».

وفي أسانيد: عبد الله بن عميرة الكوفي، قال فيه البخاري: لا يعلم له سماع من الأحنف. وقال الذهبي: فيه جهالة. وفيه أيضًا: الوليد بن أبي ثور، قال العقيلي: يحدث عن سمالك بمناكير لا يتابع عليها، قال ابن معين: ليس بشيء. وقال أبو زرعة: منكر الحديث بهم كثيرًا. وقال أبو حاتم: شيخ يكتب حديثه ولا يُحتج به. وفيه سمالك بن حرب؛ كبر وتغير حفظه ربما كان يتلقن. انظر: تهذيب التهذيب (١٣٨/١١).

الأثر من الإسرائيليات، فيه وصف هذه الأمة بأنهم يسجدون في الأرض، ويزعمون أن إلههم في السماء، ففيه أن عقيدة هذه الأمة إثبات العلو، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي السَّمَاءِ. وهذا من الإسرائيليات، التي نحن في غنى عنها بكتاب ربنا وسنة نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن لعل المؤلف ذكره من باب الاستئناس فقط، وأنه أثبت ما تدل عليه الأدلة الصحيحة من أن الله في السماء.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةٌ كَذَا وَكَذَا - وَذَكَرَ الْخَبَرَ إِلَى قَوْلِهِ - وَفَوْقَ ذَلِكَ الْعَرْشِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ ذَلِكَ»)، هذا الحديث مر في آخر كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ^(١)، وهو حديث العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغيره من الأحاديث التي فيها ذكر المسافة التي بين السماء والأرض، وأنها خمسمائة عام، وذكر ما بين كل سماء وسماء، وأن ذلك خمسمائة عام، وأن كثف كل سماء خمسمائة عام، وأن فوق السماوات بحر ما بين أسفله وأعلى خمسمائة عام، وأن فوق ذلك الكرسي، وفوق الكرسي عرش الرحمن، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فوق العرش.

فهذا فيه إثبات علو الله جَلَّ وَعَلَا فوق مخلوقاته جميعاً، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مستوٍ على العرش، الذي هو أعظم المخلوقات وأعلى المخلوقات، ففيه إثبات العلو وإثبات الاستواء لله عَزَّ وَجَلَّ، وفيه عظمة هذه المخلوقات وهذه الكائنات، وبيان سعتها، وما بينها من المسافات العظيمة.

والشاهد منه: إثبات العلو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فوق مخلوقاته، وأنه مستوٍ على عرشه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كما دلت على ذلك الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة.

(١) انظر: كتاب التوحيد (ص ١٤٩).

فَهَذَا وَمَا أَشْبَهُهُ مِمَّا أَجْمَعَ السَّلَفُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَلَى نَقْلِهِ وَقَبُولِهِ، وَلَمْ يَتَعَرَّضُوا لِرَدِّهِ، وَلَا تَأْوِيلِهِ، وَلَا تَشْبِيهِهِ، وَلَا تَمْثِيلِهِ.

الشرح

قال رَحِمَهُمُ اللَّهُ: (فَهَذَا وَمَا أَشْبَهُهُ مِمَّا أَجْمَعَ السَّلَفُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَلَى نَقْلِهِ وَقَبُولِهِ، وَلَمْ يَتَعَرَّضُوا لِرَدِّهِ، وَلَا تَأْوِيلِهِ، وَلَا تَشْبِيهِهِ، وَلَا تَمْثِيلِهِ)، هذا الذي ذكره المؤلف من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لإثبات الصفات لله عَزَّوَجَلَّ، مما أجمعت الأمة على نقله وقبوله وعدم التعرض له بالتأويل أو بالتشبيه، بل قبلوه كما جاء عن الله وعن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يشكوا في ذلك، ولم يتدخلوا بأفهامهم وعقولهم، ولا يقيسون الله جَلَّ وَعَلَا بخلقه، بل يعتقدون أن الله أعظم من كل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يقاس بخلقه، فيقال: (هذه الصفات موجودة في المخلوقين، فإذا أثبتناها لله، فقد شبهناها بالمخلوقين)؛ كما تقوله المعطلة - تعالى الله عن ذلك -، بل نقول: القاعدة العظيمة: أنه لا تشابه بين صفات الخالق وصفات المخلوق؛ كما أنه لا تشابه بين ذات الخالق وذوات المخلوقين، وأن مجرد الاشتراك في الألفاظ والمعاني لا يدل على التشابه في الحقيقة والكيفية. فمن عرف هذه القاعدة وفهمها، فإنه لا يُشكل عليه أي شيء من آيات الأسماء الصفات، وإنما يقع الإشكال لمن لم يفهم هذه القاعدة، ولم يعرفها، فحينئذ يقع في نفسه شيء من الشكوك والأوهام، أما من عرف هذه القاعدة - وهي الفرق بين الخالق والمخلوق، والفرق بين صفات الخالق وصفات المخلوق -، فإنه لا يقع عنده أدنى شك في إثبات ما أثبتته الله لنفسه،

ونفي ما نفاه الله عن نفسه. والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبلغ عن الله جَلَّ وَعَلَا، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ٢ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

والسلف رووا هذه الأدلة، قرؤوها، وحفظوها، وتناقلوها، ولم يقع عندهم إشكال وتساؤلات؛ مما دل أنها على ظاهرها، وعلى مدلولها، وأنه يجب إقرارها وإمرارها من غير تعرض لمعناها بالتأويل أو بالتشكيك، أو غير ذلك مما يقع من الخواطر النفسية، أو ما يلقيه شياطين الإنس والجن؛ ليضلوا عباد الله، ويصرفوهم عن كتاب ربهم وسنة نبيهم.

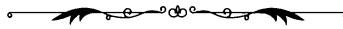
فالقرآن في غاية البيان وغاية الفصاحة، والسنة في غاية البيان وغاية الفصاحة، لا يراد منهما غير ما يظهر من ألفاظهما، ولو كان يراد من أدلة القرآن والسنة غير ما يظهر من ألفاظهما، لكان القرآن والسنة فيهما تضليل للناس، والله أنزل القرآن والسنة لهداية الناس، ولم ينزلها لتضليل الناس وحمل الناس على أن يعتقدوا خلاف ما تدل عليه هذه النصوص، فهذا وصف للقرآن والسنة أنه تضليل للأفهام والعقول؛ ولذلك احتاجوا إلى التأويل وإلى التحريف، وهذا اتهام لكلام الله وكلام رسوله بعدم الوضوح، وعدم البيان، وعدم الهداية.

فإجماعهم على ذلك دليل على أنها على ظاهرهما، وأنه يجب اعتقاد ما دلا عليه، وإلا لم يكن الكتاب والسنة للهداية، وإنما كانا للتضليل على حسب زعم هؤلاء، الذين شككوا في هذه الأدلة، وراحوا يؤولونها، ويصرفونها عن مدلولاتها؛ حتى تتوافق مع أهوائهم ومع أفهامهم.

والواجب عليهم أن يتهموا عقولهم وأفهامهم، ولا يتهموا الكتاب والسنة؛ لأن عقولهم وأفهامهم هي محل الاتهام ومحل النقص، أما الكتاب والسنة، فإنهما تنزيل من حكيم حميد: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، فأى بيان، وأى دلالة، وأى فصاحة أبلغ مما عليه الكتاب والسنة - لو كانوا يعقلون؟

فالواجب على العبد أن يُسلم لكلام الله وكلام رسوله، وإذا أشكل عليه شيء، فليتهم عقله، ويتهم فهمه، ولا يتهم النصوص بالتقصير، أو بالغموض، أو بغير ذلك من الاتهامات، ويقول: (إن القرآن والسنة ظواهر لفظية، لا تفيد اليقين، وإنما الذي يفيد اليقين القواعد العقلية المنطقية)؛ كما يقوله المنحرفون.

فهذا انحراف عن الحق، وإذا لم تحصل الهداية بكتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فماذا تحصل؟!!



سُئِلَ الْإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَقِيلَ: «يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] كَيْفَ اسْتَوَى؟ فَقَالَ: الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالْإِبْيَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدَعَةٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِالرَّجُلِ فَأُخْرِجَ^(١).

الشَّرح

هذا الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة، وهو أحد الأئمة الأربعة رَحِمَهُمُ اللَّهُ، هذا العالم الذي تُضْرَبُ إليه آباط الإبل في المدينة، عالم مشهور، الذي قيل فيه: (لا يُفْتَى ومالك بالمدينة)^(٢).

لما سأله رجل -وهو في الدرس-، قال له: (يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] كَيْفَ اسْتَوَى؟ فَقَالَ) الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ»، وفي رواية: «وَالِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ»^(٣)؛ يعني: غير مجهول المعنى،

(١) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (ص ٣٣)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٤، ٣٠٥)، وفي الاعتقاد (ص ١١٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/ ١٠٠)، وفي العلو (ص ١٣٩).

(٢) هو أحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة مالك بن أنس بن مالك بن عامر بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيلان بن حشد بن عمر بن الحارث، وهو ذو أصبح الحميري أبو عبد الله المدني إمام دار الهجرة في زمانه، ولد سنة أربع وتسعين، وتوفي في الرابع عشر ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة. انظر: العبر للذهبي (١/ ٢٧٢)، والبداية والنهاية (١٠/ ١٧٤)، وشذرات الذهب (١/ ٢٨٩).

(٣) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٤ - ٣٠٥)، والذهبي في العلو (ص ١٢٩)، وابن قدامة في العلو (ص ١١٤).

والرجل لم يسأل عن المعنى، وإنما سأل عن الكيفية، يقول: (كَيْفَ اسْتَوَى؟)، والإمام مالك يقول: ما لنا دخل، إلا في المعنى، والمعنى غير مجهول، والحمد لله، معناه معلوم، وما دام المعنى معلومًا، فهذا الذي يُقصد من اللفظ، فالمعنى غير مجهول؛ حتى تسأل عنه، كان المفروض أنك تسأل عن المعنى، إذا كنت لا تعرفه، فنحن نوضحه لك؛ لأنه غير مجهول، أما السؤال عن الكيف، فهذا غير معقول، ولا يجوز السؤال عن الكيفية؛ لأن كيفية أسماء الله وصفاته لا نعلمها، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، نحن لا نحيط بالله جَلَّ وَعَلَا بذاته وبأسمائه وصفاته، هذا لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لأحد من الخلق يعلم كيفية ذات الله وأسمائه وصفاته، لا يعلم ذلك إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وذلك لعظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالْكَيفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ»؛ يعني: لا تدركه عقولنا، فليس من حَقِّك أن تسألنا عن الكيف؛ لأنه ليس بإمكاننا أن نجيبك؛ لأن هذا لا تدركه عقولنا.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ»؛ أي: الإيمان بالاستواء - على معناه، ودون التعرض لكيفيته - أمر واجب على كل مسلم، وعليه التسليم والانقياد.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالسُّؤَالُ عَنْهُ»؛ يعني: عن الكيفية؛ لأن السائل سأل عن الكيفية. «بِدْعَةً»، وأهل الضلال يقولون: (المعنى يجب تفويضه)، وهذا باطل، الإمام مالك ما قال هذا، إنهم يكذبون على الإمام مالك، الإمام مالك وضح رَحِمَهُ اللَّهُ ذلك، قال: «وَالْإِسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ»؛ حتى يحتاج إلى سؤال،

«وَالْكَيفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ»، فلا يجوز السؤال عنه، «وَالْإِيمَانُ بِهِ»؛ أي: بالاستواء معنى وكيفية «وَاجِبٌ»، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدَعَةٍ؛ أي عن الكيفية «بِدَعَةٍ»؛ لأن الرجل سأل عن الكيفية، ولم يسأل عن المعنى.

ثم قال للرجل: «مَا أَرَاكَ إِلَّا رَجُلًا سَوِيًّا»، فأمر به فأخرج من الحلقة، وهكذا يجب على العلماء أن يبعدوا مثل هؤلاء المشككين، الذين يريدون إثارة الشكوك عند الناس، ويطردوهم؛ حتى يتأدبوا، وحتى يختزوا أمام الناس. أمر به فأخرج من حلقة؛ لأنه لم يأت من أجل التعلم، وإنما جاء من أجل التخليط والمغالطات. السؤال له حدود، ما كل شيء يُسأل عنه، إنما يُسأل عن ما أشكل، مما يحتاجه الناس من أمور عباداتهم وأمر معاملاتهم، السؤال عن هذا محمود؛ ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، أما السؤال عن الأغاليط وعن الأشياء التي لا حاجة للناس بها، وإنما هي من باب التكلف وإشغال الوقت والتضليل والتشويش على الناس، فهذا السؤال مُحَرَّم، يجب الكف عنه^(١)، وتعزير من يفعل هذا؛ كما فعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بصبيغ، الذي كان يسأل أشياء من متشابه القرآن، ليس الناس بحاجة إليها، فضربه عمر، وطرده من المدينة^(٢).

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٣٦٥٦)، وأحمد في المسند (٤٣٥ / ٥)، وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١٠٦ / ٥)، والطبراني في الكبير (٩١٣) وفي الأوسط (١٣٧ / ٨)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (ص ٢٢٩) عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَهَى عَنِ الْأَغْلُوطَاتِ».

(٢) انظر قصته في تفسير ابن كثير (٧ / ٤١٣ - ٤١٤)، وأخرجها الأجري في الشريعة (ص ١٥٣)، وابن بطة في الإبانة (ص ٧٨٩)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤ / ٧٠٦)، وفيها: «أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي غُنَيْمٍ يُقَالُ لَهُ: صَبِغٌ بْنُ عَسَلٍ قَدِمَ الْمَدِينَةَ =

فهؤلاء الذين يسألون مثل هذه الأسئلة، التي لا حاجة للناس إليها، أو تشوش عقائدهم، أو تشككهم في أمور دينهم، هؤلاء يجب أن يوقفوا عند حدهم. والإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ طرد هذا الرجل من حلقة؛ تأديباً له، وحماية لطلبة العلم من شبهاته وتشكيكاته.

والصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما سألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الهلال: لماذا يبدو صغيراً، ثم يكبر، ثم يكبر، ثم يتكامل، ثم ينقص، الله جَلَّ وَعَلَا أجابهم بغير ما سألوا عنه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوْفِيَتْ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، هم سألوا عن حقيقتها، وهو سبحانه أجابهم عن فوائدها، وأن هذا الذي ينبغي السؤال عنه، وأما السؤال عن حقيقة الشيء، وكيف، وكيف، هذا ليس للناس فيه مصلحة، ولذلك أعرض عن جوابهم لما سألوا، وأجابه بجواب آخر: ﴿قُلْ هِيَ مَوْفِيَتْ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩]، قالوا: هذا فيه أنه ينبغي السؤال عن ما الناس في حاجة إليه، وأن هذه الأبواب التي ينبغي أن يدخل منها طالب العلم، ولا يأتي البيوت من ظهورها، يدخلها من السطوح

= وَكَانَتْ عِنْدَهُ كُتُبٌ، فَجَعَلَ يَسْأَلُهُ عَنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ وَقَدْ أَعَدَّ لَهُ عَرَاجِينَ النَّخِيلِ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ جَلَسَ قَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا عَبْدُ اللَّهِ صَبِيغُ، قَالَ عُمَرُ: وَأَنَا عَبْدُ اللَّهِ عُمَرُ وَأَوْمَأَ عَلَيْهِ، فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ بِتِلْكَ الْعَرَاجِينَ، فَمَا زَالَ يَضْرِبُهُ حَتَّى شَجَّهُ وَجَعَلَ الدَّمُ يَسِيلُ عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ: حَسْبُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ وَاللَّهِ ذَهَبَ الَّذِي أَجْدُ فِي رَأْسِي).

ومن تسلق الجدران، وهذا مثل من يسأل عما لا حاجة إليه، أو فيه كلفة، وفيه تشكيك أو تشبيه، مثل الذي يأتي البيت من سطحه، ويتكلف، وأما الذي يفتح الباب، ويدخل، أو يستأذن على أهل البيت ويدخل، هذا يأتي البيوت من أبوابها، فالعلم كذلك، له أبواب، ينبغي سلوكها لمن يريد طلب العلم.

وقيل: إن معنى الآية: أنهم كانوا في الجاهلية، إذا أحرموا، لا يدخلون البيوت من الأبواب وهم محرمون -بزعمهم-، وإنما يأتون البيوت من ظهورها، فالله نهاهم عن هذا الفعل، وبين أنه لا حرج أن يدخل الإنسان من الباب وهو محرم، ولا يتنافى هذا مع الإحرام، وإنما هذا من التكلف، الذي ما أنزل الله به من سلطان^(١).

ومن أهل البدع الآن من إذا أحرم، لا يدخل تحت سقف، ولا يركب في سيارة مسقوفة، وإنما يكشف السيارة، وهذا من جنس هؤلاء، والنبى ﷺ ظلل عليه بالثوب، وهو محرم وهو يرمي الجمرة^(٢)، وضربت له قبة في نمرة، ونزل فيها وهو محرم ﷺ^(٣)، ولم يمتنع من الاستظلال

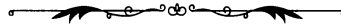
(١) انظر: تفسير الطبري (٣/٢٨٣-٢٨٨)، وزاد المسير (١/١٥٢)، والقرطبي (٢/٣٤٤-٣٤٥)، وابن كثير (١/٥٢٢-٥٢٣).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١٢٩٨): عَنْ يَحْيَى بْنِ الْحُسَيْنِ، عَنْ أُمِّ الْحُسَيْنِ، جَدَّتِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «حَجَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَجَّةَ الْوَدَاعِ، فَرَأَيْتُ أُسَامَةَ وَبِلَالًا، وَأَحَدَهُمَا آخِذٌ بِخِطَامِ نَاقَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْآخَرُ رَافِعٌ تَوْبَهُ يَسْتُرُهُ مِنَ الْحَرِّ، حَتَّى رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ».

(٣) كما في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطويل في صفة حج النبي ﷺ الذي أخرجه مسلم (١٢١٨)، وفيه: «... فَأَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَى عَرَفَةَ، فَوَجَدَ الْقَبَةَ قَدْ ضَرَبَتْ لَهُ بِنَمْرَةٍ، فَتَزَلَّ بِهَا، حَتَّى إِذَا زَاغَتِ الشَّمْسُ أَمَرَ بِالْقُضْوَاءِ، فَرُحِلَتْ لَهُ...».

بالخيمة ومن التظليل عليه بالثوب، وهو مُحْرَم، وهذا من تيسير الله
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الحاصل: أن هذا الرجل الذي سأل مالكا رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ عن الكيفية هذا يسأل عما
لا فائدة منه، ولا حاجة إليه، ولا تبلغه العقول، وينبغي أن يتقاصر الناس
عنه، وإنما كان الواجب أن يسأل عن معنى الآية: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ
أَسْتَوَى﴾ [طه: ٥]: ما معنى استوى؟ فيكون الاستواء معلوماً، يُبين له معنى
الاستواء، وأنه علو الله جَلَّ وَعَلَا على عرشه، وارتفاعه على عرشه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



فَصْلٌ فِي إِثْبَاتِ صِفَةِ الْكَلَامِ

الشرح

لما تكلم عن بعض الصفات فيما سبق، أفرد صفة الكلام بفصل خاص، وذلك لأهمية هذه المسألة، وكثرة ما وقع فيها من الضلال والانحراف، فهو أفرد لها بفصل عما قبلها؛ لأهميتها، ولكثرة ما وقع فيها من الخلاف.

وصفة الكلام لله عَزَّجَلَّ كسائر الصفات، الله موصوف جَلَّ وَعَلَا بأنه يتكلم كيف شاء سبحانه، ومتى شاء، وكلامه من الصفات الفعلية، التي يفعلها متى شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تكلم في الماضي، ويتكلم في المستقبل، ويتكلم في يوم القيامة، متى شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يتكلم، فإنه يتكلم.

وكلام الله قديم النوع؛ مثل سائر الصفات، حادث الأحاد؛ يعني: صفة الكلام من حيث هي قديمة، فالله ما زال يتكلم؛ لأنه سبحانه بكلامه قديم أزلي، لا بداية له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا بداية لأسمائه وصفاته وأفعاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأما آحاد الكلام، فإنها تتجدد، وتحدث شيئاً فشيئاً، يتكلم متى شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كسائر صفاته الفعلية.

وهذا هو اعتقاد أهل السنة والجماعة، والآيات والأحاديث في هذا كثيرة، سيورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ جملة منها.

ولم يخالف في صفة الكلام إلا الجهمية ومن شرب مشربهم من الفرق الضالة. الجهمية يقولون: (إن الله لا يتكلم، وإنما خلق الكلام في غيره؛ إما في

جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، وإما في محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإضافة الكلام إلى الله من إضافة المخلوق إلى خالقه)، فالله جَلَّ وَعَلَا لا يوصف عندهم بالكلام أبداً، وإنما الذي يتكلم مخلوق خلق الله الكلام فيه؛ إما جبريل، وإما محمد. هذا كلامهم، وهذا -أيضاً- مذهب المعتزلة، فمذهب المعتزلة والجهمية سواء؛ ينفون الكلام عن الله، ويقولون: (إن كلام الله مخلوق).

الأشاعرة^(١) أرادوا أن يجمعوا بين المتناقضات، فقالوا: (إن الله موصوف بالكلام النفسي فقط، كلامه في نفسه فقط، ولم يتكلم بحرف يسمع، ولا بصوت يسمع، وإنما هو كلام نفسي، عبر عنه جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، أو عبر عنه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فهذا القرآن عند الأشاعرة هو عبارة عن كلام الله، عبر به جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، أو عبر به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن المعنى النفسي القائم بذات الله، فمعنى القرآن من عند الله، وأما ألفاظه، فهي من عند المخلوق. فهم جمعوا بين المتناقضات؛ جعلوا القرآن مخلوقاً وغير مخلوق؛ مخلوقاً من حيث اللفظ والحروف، وغير مخلوق من حيث المعنى، وهذا باطل، وتناقض.

(١) نسبة إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم الأشعري، ولد سنة ستين ومائتين، نشأ على مذهب المعتزلة، وتلمذ على يد أبي علي الجبائي ثم ترك مذهبهم وتبرأ منه، وسلك طريقة ابن كلاب وانتشر مذهبه ثم رجع عنه إلى مذهب أهل الحديث وانتسب للإمام أحمد، وألف في مذهب أهل السنة والجماعة: الإبانة، والموجز، ورسائل الثغر، إلا أنه بقيت عليه بقايا من مذهب ابن كلاب، وتوفي ببغداد سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، قال الذهبي: ويقال بقي إلى سنة ثلاثين وثلاثمائة. اهـ.
انظر: تاريخ بغداد (١١/٣٤٦)، ووفيات الأعيان (٣/٢٨٤)، وسير أعلام النبلاء (١٥/٨٥)، وشذرات الذهب (٢/٣٠٣)، والبداية والنهاية (١١/١٨٧).

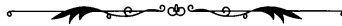
أهل السنة والجماعة يقولون: (القرآن كلام الله لفظه ومعناه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف، فالقرآن هو كلام الله لفظه ومعناه، تكلم الله به حقيقة، سمعه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبلغه لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسمع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كلام الله، وكلم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تكليماً من غير واسطة، ولهذا خَصَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه كليم الله؛ ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ وهو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ اختُصَّ من بين الرسل بأنه كليم الله، كلمه ربه تكليماً من غير واسطة، وسمع موسى كلامه.

وكذلك الله جَلَّ وَعَلَا يكلم عباده يوم القيامة، يكلم أهل الجنة، ويُسلم عليهم، ويردون عليه السلام بكلام يسمعون، يرونه عياناً بأبصارهم؛ كما يرون القمر ليلة البدر، وكما يرون الشمس صحواً ليس دونها سحاب^(١)، ويكلمهم، ويُسلم عليهم، ويسمعون كلامه، ويردون عليه السلام.

(١) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه البخاري (٨٠٦، ٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «قَالَ أَنَسٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ»، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ...».

وحديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٢١١) (٦٣٣) عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَظَرْنَا إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ - يَعْنِي الْبَدْرَ - فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

فَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا تَكَلِّمُ، وَتَتَكَلَّمُ إِذَا شَاءَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِكَلَامٍ حَقِيقِي لَفْظِهِ
وَمَعْنَاهُ، وَأَمَّا كَيْفَ يَتَكَلَّمُ، فَهَذَا لَا نَعْلَمُهُ، هَذَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،
فَلَيْسَ كَلَامُهُ كَكَلَامِ الْمَخْلُوقِ، مَا نَقُولُ: (إِنَّهُ يَتَكَلَّمُ؛ كَمَا يَتَكَلَّمُ الْمَخْلُوقُ)، بَلْ
نَقُولُ: (إِنَّهُ يَتَكَلَّمُ كَمَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَكَيْفَ يَشَاءُ، وَلَا يَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ كَلَامِهِ،
إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كَسَائِرِ صِفَاتِهِ).



وَمِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ بِكَلَامٍ قَدِيمٍ، يَسْمَعُهُ مِنْهُ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، سَمِعَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ، وَسَمِعَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَنْ أَذِنَ لَهُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ.

وَأَنَّهُ -سُبْحَانَهُ- يُكَلِّمُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ، وَيُكَلِّمُونَهُ^(١)، وَيَأْذَنُ لَهُمْ فَيُزَوِّرُونَهُ^(٢)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]،

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٩٧) (١٨١) من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولفظه: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه الشافعي في مسنده (١٢٦/١)، والطبراني في الأوسط (٣١٤/٢)، وأبو يعلى (٢٢٨/٧) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «عُرِضَتِ الْجُمُعَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَاءَ جِبْرِيلُ فِي كَفِّهِ كَأَمْرَآةِ الْبَيْضَاءِ فِي وَسْطِهَا كَالنُّكْتَةِ السَّوْدَاءِ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذِهِ الْجُمُعَةُ يَعْرِضُهَا عَلَيْكَ رَبُّكَ لِتَكُونَ لَكَ عِيدًا وَلِقَوْمِكَ مِنْ بَعْدِكَ، وَلَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ تَكُونُ أَنْتَ الْأَوَّلُ، وَيَكُونُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى مِنْ بَعْدِكَ، وَفِيهَا سَاعَةٌ لَا يَدْعُو أَحَدٌ رَبَّهُ بِخَيْرٍ هُوَ لَهُ قَسَمٌ إِلَّا أَعْطَاهُ، أَوْ يَتَعَوَّذُ مِنْ شَرِّ إِلَّا دَفَعَ عَنْهُ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، وَنَحْنُ نَدْعُوهُ فِي الْآخِرَةِ يَوْمَ الْمَزِيدِ، وَذَلِكَ أَنَّ رَبَّكَ اتَّخَذَ فِي الْجَنَّةِ وَاِدِيًا أَفِيحَ مِنْ مِسْكِ أَبِيصَ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ نَزَلَ مِنْ عَلِيِّينَ، فَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ، وَحَفَّ الْكُرْسِيُّ بِمَنَابِرٍ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةٍ بِالْجَوَاهِرِ، وَجَاءَ الصَّدِيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ فَجَلَسُوا عَلَيْهَا، وَجَاءَ أَهْلُ الْعُرْفِ مِنْ غُرَفِهِمْ حَتَّى يَجْلِسُوا عَلَى الْكُثِيبِ، وَهُوَ كُثِيبٌ أَبْيَضٌ مِنْ مِسْكِ أَذْفَرٍ، ثُمَّ يَتَجَلَّى لَهُمْ فَيَقُولُ: أَنَا الَّذِي صَدَقْتُكُمْ وَعَدِي، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَهَذَا حُلُّ كَرَامَتِي، فَسَلُونِي، فَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَا، فَيَقُولُ: رِضَايَ أُحِلُّكُمْ دَارِي، وَأَنَا لَكُمْ كَرَامَتِي، فَسَلُونِي، فَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَا، فَيَشْهَدُ عَلَيْهِمْ عَلَى الرِّضَا، ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُمْ مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبٍ =

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَتِي﴾
 [الأعراف: ١٤٤] وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وَقَالَ
 سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾
 [الشورى: ٥١] وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَنْهَا نُودِيَ يُمُوسَىٰ ۖ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾
 فَالْخَلْعَ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿طه: ١١-١٢﴾ وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:
 ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤] وَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَقُولَ هَذَا أَحَدٌ
 غَيْرُ اللَّهِ.

الشرح

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَمِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ بِكَلَامٍ قَدِيمٍ)؛ قديم
 النوع، ولا يقال: (قديم) مطلقاً هكذا، وإنما هو قديم النوع، حادث الآحاد؛
 يعني: جنس الكلام قديم، وأما أنواعه، فهي تتجدد، وتحدث متى شاء الله
 سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (يَسْمَعُهُ مِنْهُ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ)؛ يسمعه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ،
 فيحمله، ويبلغه إلى أنبيائه، وسمعه موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (سَمِعَهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ)، هذا لاشك
 فيه؛ أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ سمع كلام ربه من غير واسطة بينه وبين الله، ولذلك
 خص موسى بهذه الميزة العظيمة من بين إخوانه النبيين.

=بَشَرٍ، إِلَى مَقْدَارِ مُنْصَرَفِهِمْ مِنَ الْجُمُعَةِ، وَهِيَ زَبْرَجْدَةٌ خَضِرَاءُ أَوْ يَاقُوتَةٌ حُمْرَاءُ، مُطَرَّدَةٌ
 فِيهَا أَثَارُهَا، مُتَدَلِّيَةٌ، فِيهَا ثَمَارُهَا، فِيهَا أَزْوَاجُهَا وَخَدْمُهَا، فَلَيْسَ هُمْ فِي الْجَنَّةِ بِأَشْوَقَ مِنْهُمْ
 إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ لِيَزْدَادُوا نَظَرًا إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ وَكَرَامَتِهِ، وَلِذَلِكَ دُعِيَ يَوْمَ الْمَزِيدِ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَسَمِعَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ)، كذلك اختص الله جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه يسمعه كلامه، ويسمعه من جبريل أهل السماء، فإذا سمعوه، صعدوا؛ كما جاء في حديث النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالنُّوحِيِّ، أَخَذَتْ السَّمَاوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً - أَوْ قَالَ رَعْدَةً - شَدِيدَةً، خَوْفًا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ صَعِدُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيَكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبِّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: قَالَ: ﴿الْحَقُّ وَهُوَ أَعْلَى الْكِبَرِ﴾ [سبأ: ٢٣]. قَالَ: فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ. فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالنُّوحِيِّ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَمَنْ أَذِنَ لَهُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَرُسُلِهِ) ويسمع كلامه من أذن الله بسماحه من ملائكته ورسله؛ مثل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومثل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يُكَلِّمُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ، وَيُكَلِّمُونَهُ)، في الجنة يكلم الله المؤمنين في الجنة، ويكلمونه من غير واسطة، يسمعون كلامه، ويروونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا في الجنة.

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٢٢٧/١)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢٣٦/١)، وابن خزيمة في التوحيد (٣٤٨/١)، والآجري في الشريعة (٣٠٧)، والطبري في تفسيره (٢٧٨/١٩)، وابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير في تفسيره، وساقه بإسناده (٥١٦/٦)، وأبو نعيم في الحلية (١٥٢/٥)، والطبراني في مسند الشاميين (٣٦٦/١)، والبغوي في تفسيره (٥٥٧/٣).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَيَأْذَنُ لَهُمْ فَيُزَوِّرُونَهُ﴾، يزورونه في وقت معين، يجتمعون في مكان من الجنة، ثم يتجلى لهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَذَاتِهِ، ويرونه، ويكلمهم، ويكلمونه؛ لأن الله يعطيهم يوم القيامة قوة وقدرة يقدرُون بها على رؤية الله جَلَّ وَعَلَا وعلى سماع كلامه، أما في هذه الدنيا، فلا أحد يستطيع أن يرى الله جَلَّ وَعَلَا.

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾﴾ [النساء: ١٦٤]، كلمه: يعني مباشرة من غير واسطة، ثم أكد ذلك، فقال: ﴿تَكْلِيمًا﴾، فالمصدر مؤكد ينفي أن يكون هناك معنى للتكليم غير ما يظهر منه؛ بأن يقال: (كلمه بواسطة)، بل رفع هذا بقوله: ﴿تَكْلِيمًا﴾.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤]، هذا نداء من الله جَلَّ وَعَلَا، ينادي موسى عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ﴾؛ أي: اخترتك، ﴿عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾، الشاهد في قوله: ﴿وَبِكَلِمِي﴾؛ أي: تكليمي لك من غير واسطة، وندائي لك.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿مِنْهُمْ مَن كَلَّمَ اللَّهُ﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وهو موسى عَلَيْهِ السَّلَام، كلمه الله مباشرة من غير واسطة.

﴿وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾﴾ [الشورى: ٥١]؛ يعني: ليس أحد يكلمه الله من غير حجاب بينه وبينه، هذا في الدنيا، فإن أحدًا لم ير الله جَلَّ وَعَلَا في الدنيا أبدًا؛ ولهذا لما سأل

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه أن يراه، ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ لَنْ تَرْنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرْنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا، انهار الجبل، وصار ترابًا من عظمة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ولم يستطع الصمود والثبات، فكيف البشر المكون من لحم ودم؟ كيف يستطيع أن يرى الله جَلَّ وَعَلَا عيانًا في الدنيا؟ ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعْقًا﴾؛ أغشي عليه من شدة الهول، ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾؛ يعني: ذهب عنه الغشي والروع، ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فهذا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل ربه أن يراه في الدنيا، ولم يستطع.

ولذلك لا تجد أحدًا من البشر يكلم الله قبل الآخرة من غير حجاب، بحيث يرى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عيانًا: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١]؛ وحيا: بأن يلهمه إلهامًا؛ كما ألهم أم موسى أن تعمل مع ولدها ما عملت، وكما يحصل لبنينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحيانًا من وحي الإلهام، هذا بدون واسطة الملك، إلهام يلهمه الله من يشاء من عباده: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]؛ كما حصل لموسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن الله كلمه بدون واسطة، لكن من وراء حجاب؛ لأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم ير الله جَلَّ وَعَلَا في الدنيا؛ كما ذكر الله ذلك في سورة الأعراف: ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ لَنْ تَرْنِي، فهو كلمه من وراء حجاب.

أو يرسل رسولًا من الملائكة إلى ذلك البشر، فيوحي بإذنه ما يشاء، وهذا بواسطة الملك.

فإذا تكليم الله إما أن يكون إلهامًا، وإما أن يكون تكليمًا من وراء حجاب، وإما أن يكون تكليمًا بواسطة الملك.

وأما أن يكلم الله جَلَّ وَعَلَا أحدًا من خلقه في الدنيا من غير حجاب، ويرى ربه رؤية عيان، فهذا لم يحصل لأحد، وإنما هذا في الآخرة للمؤمنين خاصة.

الشاهد من الآية: أن الله أثبت لنفسه الكلام، وأنه يكلم من يشاء من وراء حجاب، أو بالوحي، أو بواسطة الملك.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ يَمُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١١-١٢])، ذكر الله قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَام لما خرج هاربًا من فرعون وقومه، لما قتل الرجل القبطي، وتآمروا على قتله، وجاءه النذير، فخرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتوجه تلقاء مدين، وبقي في مدين عشر سنين يرعى الغنم، على أن يتزوج ابنة الشيخ الكبير، تزوجها برعي الغنم ثمان سنين أو عشر سنين، وكان هذا هو المهر، ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ [قصص: ٢٩]، لما أنهى المدة، رجع بزوجه إلى مصر حيث أهله، وضل الطريق، وكانت ليلة باردة شديدة البرودة، وضل الطريق، فأبصر نارًا، وفرح بها؛ لأنه كما يكون حال المسافرين التائه، إذا رأى نارًا، يفرح بها، خصوصًا إذا كان جائعًا ومحتاجًا، فأجلس أهله ينتظرون، وأتى إلى النار، ﴿فَلَمَّا أَنهَا﴾ على أنها نار عادية، يريد أن يطلب منهم خبرًا عن الطريق، أو يأتي منهم بشهاب قبس يصطلي هو وزوجه من البرد، هذا غرضه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن الله أراد غير ذلك، ﴿فَلَمَّا أَنهَا﴾ أي: وصل إلى النار ﴿نُودِيَ يَمُوسَى﴾ [طه: ١١]، من الذي نادى؟ هو

الله جَلَّ وَعَلَا، قال: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢]، هذا نداء مخاطبة من غير واسطة، ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢]، إلى آخر الآيات، التي جاءت في هذا السياق.

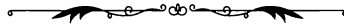
وفي الآية الأخرى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَّيْ إِنَّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [٣٠] ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [القصص: ٣٠-٣١]، فهذه الآيات صريحة أن الله كلم موسى عَلَيْهِ السَّلَام من غير واسطة، وسمع موسى عَلَيْهِ السَّلَام كلامه حقيقة من غير مجاز، ومن غير ما يُشكل على أن هذا الكلام كلام من الله حقيقي بحرف وصوت، وسمعه موسى عَلَيْهِ السَّلَام، وأنه نداء، وكلام سمعه موسى عَلَيْهِ السَّلَام.

أهل الضلال يقولون: (إن الله خلق الكلام في الشجرة، فتكلمت)! هل الشجرة تقول: ﴿يَمْوِسَّيْ﴾ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ﴿وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ﴾؟! هل الشجرة تقول: ﴿وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾؟! الشجرة تقول: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١١-١٤]؟! هل هذا كلام الشجرة؟! هذا كلام رب العالمين، تعالى الله عما يقولون!

فالآيات واضحة وضوحاً لا شك فيه في أن الله هو الذي تكلم سبحانه، وأن موسى سمع كلام الله، ففيها إثبات الكلام لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه كلام يُسمع.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنِّي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤])، هل الشجرة تقول: ﴿إِنِّي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾؟! تعالى الله عما يقولون!

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَعَبَّرَ جَائِزٌ أَنْ يَقُولَ هَذَا أَحَدٌ غَيْرُ اللهِ)، هذا رد على الجهمية بأنها لا تقول الشجرة: ﴿إِنَّا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ①٤ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى [طه: ١٤-١٥]، فلا يليق أن يكون هذا الكلام من مخلوق، وإنما هو كلام الخالق جَلَّ وَعَلَا.



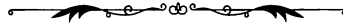
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ، سَمِعَ صَوْتُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، رُويَ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(١).

الشرح

قال رحمه الله: (وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ، سَمِعَ صَوْتُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، رُويَ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»)، إذا تكلم الله بالوحي، سمع صوته أهل السماء، وهم الملائكة الذين في السماء، هذا موقوف عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لكن جاء مرفوعاً عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث النّوّاس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، أَخَذَتْ السَّمَاوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً - أَوْ قَالَ رَعْدَةً - شَدِيدَةً، خَوْفًا مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ صُعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلُّهَا مَرًّا بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبَّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ:

(١) رواه البخاري معلقاً (١٣/ ٤٦١ - فتح)، معلقاً موقوفاً، ورواه مرفوعاً أبو داود في سننه (٤٧٣٨)، وابن خزيمة في التوحيد (ح ٢٠٧)، والآجري في الشريعة (ح ٦٨٠)، والبيهقي مرفوعاً وموقوفاً في الأسماء والصفات (ح ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (ح ٥٤٩، ٥٤٨)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين. وقد روي نحوه من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند مسلم (٢٢٢٩)، وأحمد (١/ ٢١٨)، ومن حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البخاري (٤٧٠١)، والترمذي (٣٢٢٣)، ومن حديث النّوّاس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابن خزيمة في كتاب التوحيد (٢٠٦)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ح ٤٣٥)، وابن أبي عاصم في السنة (ح ٥١٥)، والآجري في الشريعة (ح ٦٧٩).

قَالَ: ﴿الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]. قَالَ: فَيَقُولُونَ كُلَّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ. فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ^(١)، فهذا فيه أن الله يتكلم بكلام، ترتجف له السماء من هيئته، وترتعد، وأن الملائكة يصعقون، ويخرون لله سجداً، وأنهم يسألون إذا أفاقوا: «مَاذَا قَالَ رَبَّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: قَالَ: ﴿الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾»، ففيه إثبات الكلام لله، وأنه تسمعه السماوات، ويسمعه أهل السماوات، ويحمله جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ من الله، ويبلغه لمن أمره الله بتبليغه من رسل البشر.



(١) سبق تخريجه (ص ١٣٦).

وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَنَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:
«يَحْشُرُ اللَّهُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُرَاءَ حُفَاةٍ غُرْلًا بَهُمَا، فَيَنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ
يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ، كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قُرْبَ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ»، رَوَاهُ الْأَيْمَةُ،
وَأَسْتَشْهَدُ بِهِ الْبُخَارِيُّ^(١).

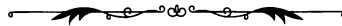
الشرح

هذا فيه أن الكلام من الله جَلَّ وَعَلَا متجدد الأحاد، وأنه يتكلم إذا شاء،
فهذا كلام يحدث منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوم القيامة، كلام بصوت؛ «فَيَنَادِيهِمْ
بصوتٍ»، وهذا نفي للمجاز.

«يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ؛ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قُرْبَ»، هذا دليل على أن هذا الكلام
حقيقي، وأنه بصوت، وأنه يُسمع، وذلك في المحشر، إذا حشر الله الخلائق
يوم القيامة، ينادي بصوت: «أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ»، هذا صريح في أن هذا
الكلام صادر من الله جَلَّ وَعَلَا، وأنه بصوت، وأنه يُسمع، فهل بعد هذا التفصيل

(١) رواه البخاري معلقاً في صحيحه عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن عبد الله بن أنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الفتح (١٣/٤٦١)، وأخرجه أحمد في مسنده مطولاً (٣/٤٩٥)، والبخاري في خلق أفعال العباد (ص ٩٢)، وابن أبي عاصم في السنة (ح ٥١٤)، والطبراني في مسند الشاميين (١/١٠٤)، والحاكم في المستدرک (٢/٤٣٨) وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال الحافظ في الفتح (١/٢٠٩): وإسناده صالح. وقال موضع آخر (١/٢١٠): وإسناده حسن وقد اعتُضد. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٣٥٤): رواه أحمد والطبراني في الأوسط بإسناد حسن.

وهذا البيان بيان في أن الله جَلَّوَعَلَا يتكلم كلامًا حقيقيًا، وأنه يتكلم إذا شاء، وأن كلامه يتجدد سُبحَانَهُوَتَعَالَى متى شاء، يأمر وينهى، ويخلق ويرزق؟! كل ذلك بكلامه جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].



وَفِي بَعْضِ الْأَثَارِ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْلَةً رَأَى النَّارَ، فَهَاتَتْهُ، فَفَزِعَ مِنْهَا، فَنَادَاهُ رَبُّهُ: «يَا مُوسَى»، فَأَجَابَ سَرِيعًا؛ اسْتِثْنَاءًا بِالصَّوْتِ، فَقَالَ: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ أَسْمَعُ صَوْتَكَ، وَلَا أَرَى مَكَانَكَ، فَأَيْنَ أَنْتَ؟ فَقَالَ: «أَنَا فَوْقَكَ، وَأَمَامَكَ، وَعَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ»، فَعَلِمَ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ لَا تَبْغِي إِلَّا اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ: كَذَلِكَ أَنْتَ يَا إِلَهِي أَفَكَلَامَكَ أَسْمَعُ أَمْ كَلَامَ رَسُولِكَ؟ قَالَ: «بَلْ كَلَامِي يَا مُوسَى»^(١).

الشرح

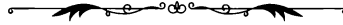
هذا يوضح ما سبق من تكليم الله لموسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الليلة، التي كان في الطريق سائرًا بأهله إلى بلده، وأصابه شيء من الضياع عن الطريق وشيء من البرد، فذهب إلى النار، التي تراءت له، يريد منها الخبر عن الطريق، ويريد منها جذوة ليقبس منها لأهله؛ لعلهم يصطلون، فالله جَلَّوَعَلَا ناداه، وكلمه - لما جاء إلى هذه النار - بكلام سمعه موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «أَسْمَعُ صَوْتَكَ، وَلَا أَرَى مَكَانَكَ»؛ لأن الله جَلَّوَعَلَا لا يُرى في الدنيا، محتجب عن خلقه في الدنيا؛ لأنهم لا يطيقون رؤيته سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لعظمته وكبريائه،

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد في أخبار موسى عَلَيْهِ السَّلَام (ص ٦١، ٦٢)، قال: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل بن منبه، أخبرنا عبد الصمد بن معقل قال: سمعت وهب بن منبه قال: لما رأى موسى عَلَيْهِ السَّلَام النار... وذكر حديثاً طويلاً ظاهر الانقطاع. وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٤١٣/٦) إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. وانظر: تاريخ دمشق (٤٨/٦١، ٥٠)، وفي رواية ابن أبي حاتم: «قال موسى: أين أنت؟ قال: أنا فوقك، قال: ربِّي؟ قال: نعم». الدر المنثور (٤١٣/٦).

فلا أحد يطبق النظر إليه في الدنيا، وإنما هذا يحصل للمؤمنين يوم القيامة إكرامًا من الله لهم.

«فَقَالَ: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ أَسْمَعُ صَوْتِكَ، وَلَا أَرَى مَكَانَكَ، فَأَيْنَ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنَا فَوْقَكَ»، هذا فيه إثبات العلو، «وَعَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ»؛ أي: أن الله جَلَّوَعَلَا محيط، وهو وإن كان جَلَّوَعَلَا في العلو، فهو محيط بخلقه من أي جهة، لا يخفى عليه من أمرهم شيء، فهو في السماء، ومع هذا هو محيط بخلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يخفى عليه شيء من أمورهم، بل هو مطلع عليهم وشاهد عليهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالشاهد منها: أن فيها إثبات الكلام لله عَزَّوَجَلَّ، وفيها إثبات الفوقية لله والإحاطة، وأن فوقيته لا تتنافى مع إحاطته بخلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



فَصْلٌ

وَمِنْ كَلَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، وَهُوَ كِتَابُ اللَّهِ الْمُبِينُ، وَحَبْلُهُ الْمَتِينُ، وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ، وَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ^(١).

الشرح

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَصْلٌ: وَمِنْ كَلَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ) لما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن من صفات الله جَلَّ وَعَلَا الكلام، فهو صفة فعلية؛ يتكلم سُبْحَانَهُ وَقَعَالَى متى شاء، وبما شاء، بكلام يسمع، سمعه جبريل، وبلغه للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسمعه موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدون واسطة.

(١) قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في المناظرة حول الواسطية: (وَلَمَّا جَاءَتْ مَسْأَلَةُ الْقُرْآنِ: «وَمِنْ الْإِيمَانِ بِهِ الْإِيمَانُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ. غَيْرُ مَخْلُوقٍ مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ» نَارَعَ بَعْضُهُمْ فِي كَوْنِهِ «مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ» وَطَلَبُوا تَفْسِيرَ ذَلِكَ. فَقُلْتُ: أَمَّا هَذَا الْقَوْلُ: فَهُوَ الْمَأْثُورُ الثَّابِتُ عَنِ السَّلَفِ مِثْلُ مَا نَقَلَهُ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ قَالَ: «أَدْرَكْتُ النَّاسَ مِنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً يَقُولُونَ: اللَّهُ الْخَالِقُ وَمَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ، إِلَّا الْقُرْآنُ فَإِنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ». وَقَدْ جَمَعَ غَيْرُ وَاحِدٍ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَثَارِ عَنِ النَّبِيِّ وَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ كَالْحَافِظِ أَبِي الْفَضْلِ بْنِ نَاصِرٍ وَالْحَافِظِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْمُقَدَّسِيِّ وَأَمَّا مَعْنَاهُ: فَإِنَّ قَوْلَهُمْ: مِنْهُ بَدَأَ. أَيُّ هُوَ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَهُ مِنْ لَدُنْهُ لَيْسَ هُوَ كَمَا تَقُولُ الْجَهْمِيَّةُ: أَنَّهُ خَلِقَ فِي الْهَوَى أَوْ غَيْرِهِ أَوْ بَدَأَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ. وَأَمَّا إِلَيْهِ يَعُودُ: فَإِنَّهُ يَسْرِي بِهِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مِنَ الْمُصَاحِفِ وَالصُّدُورِ فَلَا يَبْقَى فِي الصُّدُورِ مِنْهُ كَلِمَةٌ وَلَا فِي الْمُصَاحِفِ مِنْهُ حَرْفٌ وَوَافَقَ عَلَى ذَلِكَ غَالِبُ الْحَاضِرِينَ وَسَكَتَ الْمُنَازِعُونَ) اهـ. انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٧٤ - ١٧٥).

ذكر المؤلف رَحْمَةُ اللَّهِ هَذَا مَبْسُوطًا، وَذَكَرَ الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَهُوَ يَتَكَلَّمُ جَلَّ وَعَلَا بِكَلَامٍ حَقِيقِي يَسْمَعُ، وَبِحَرْفٍ وَصَوْتٍ يَسْمَعُ وَيَتْلَى وَيَقْرَأُ وَيَكْتُبُ، وَيَتَكَلَّمُ إِذَا شَاءَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَكَلَامُهُ قَدِيمٌ النَّوْعِ حَادِثٌ الْآحَادِ، فَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ قَدِيمٌ مُطْلَقًا، بَلْ يُقَالُ: إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ قَدِيمُ النَّوْعِ، وَلَكِنَّهُ حَادِثُ الْآحَادِ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِالْمَشِئَةِ، فَهُوَ يَتَكَلَّمُ إِذَا شَاءَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَبِهَا شَاءَ، وَمِنْ ذَلِكَ الْقُرْآنُ، فَهُوَ مِنْ أَفْرَادِ كَلَامِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا لَا يَحْصِيهِ إِلَّا هُوَ، يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ وَيُدَبِّرُ بِالْكَلَامِ؛ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فَلَا يَحْصِي كَلَامَهُ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩] ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]، فَهُوَ جَلَّ وَعَلَا يَتَكَلَّمُ بِمَا يَشَاءُ، يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ، وَيُحْيِي وَيُمِيتُ وَيُدَبِّرُ بِلَا بَدَايَةٍ وَلَا نِهَايَةٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَا يَعْلَمُ وَيَحْصِي كَلَامَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَّا هُوَ.

وَمِنْ كَلَامِهِ الْعَظِيمِ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١١٣) ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (١١٤) ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥]، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ﴾؛ يَعْنِي: جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الرُّوحُ، ﴿الْأَمِينُ﴾، وَصَفَهُ بِالْأَمَانَةِ فِي أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمِينٌ عَلَى وَحْيِ اللَّهِ، لَا يَزِيدُ فِيهِ، وَلَا يَنْقُصُ، بَلْ يَبْلُغُهُ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا، وَصَفَهُ اللَّهُ بِالْأَمَانَةِ، وَهَذَا تَوْثِيقٌ لِسُنْدِ الْقُرْآنِ؛ أَنَّهُ مِنْ رِوَايَةِ جَبْرِيلَ

الأمين عن ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بلغه لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبلغه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأُمته، وروته أُمته عنه؛ كما في الآية الأخرى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾ يعني: محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ يعني: بالقوة، وأهلكناه ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٠-٤٦]، وهو عرق الحياة؛ أي: لانتقم الله جَلَّ وَعَلَا منه أشد الانتقام، لو تقول على الله جَلَّ وَعَلَا.

فهذا توثيق لسند القرآن؛ أنه من رواية محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عن جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ نَزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، فهو كلام الله، (منه بدأ)؛ أي: تكلم الله به سبحانه، فهو بدأ منه، لا من اللوح المحفوظ - كما تقوله الجهمية -، بل من الله جَلَّ وَعَلَا؛ منه بدأ، (وإليه يعود) في آخر الزمان حين يهجر العمل بالقرآن، يرفع من المصاحف ومن صدور الرجال، فلا يوجد منه شيء في الأرض، وذلك إذا عطل العمل به في آخر الزمان عند قيام الساعة^(١).

(١) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (ص ٨٦)، وابن المبارك في الزهد (ص ٢٧٧)، والدارمي في سننه (٣٣٨٦)، وعبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٣٦٢)، وسعيد بن منصور في سننه (٢/ ٣٣٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٤٥)، والمروزي في الفتن (٢/ ٥٩٩)، والطبري في تفسيره (١٣/ ٢٧١)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٤١)، والحاكم في المستدرک (٤/ ٥٤٩) عَنْ شَدَادٍ، أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ، قَالَ: «لَيُنْتَزَعَنَّ هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ، قُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، كَيْفَ يُنْتَزَعُ وَقَدْ أُثْبِتَ فِي مَصَاحِفِنَا؟ قَالَ: يُسْرَى عَلَيْهِ فِي لَيْلَةٍ فَلَا يَبْقَى فِي قَلْبِ عَبْدٍ وَلَا مُصْحَفٍ مِنْهُ شَيْءٌ، وَيُصْبِحُ النَّاسُ فَقَرَاءَ كَالْبَهَائِمِ، ثُمَّ قرأ عبد الله: ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾ [الإسراء: ٨٦].»

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَهُوَ كِتَابُ اللَّهِ الْمُبِينُ)، هو كتاب الله، وهو كلام الله، وهو القرآن، أسماء كثيرة له، فهو كتاب الله؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ ومكتوب في المصاحف، وهو كلام الله؛ لأن الله تكلم به جَلَّ وَعَلَا، لا كلام غيره، وهو القرآن، وهو الفرقان، وهو الذكر الحكيم، وهو الهدى والبيان... إلى آخر أسماء القرآن العظيم؛ مما يدل على عظمته؛ لأن الشيء إذا كثرت أسماءه وصفاته، دل على عظمته.

(وَهُوَ كِتَابُ اللَّهِ الْمُبِينُ)، الذي بين فيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما يحتاجه العباد، فهو مُبِينٌ بمعنى بَيِّنٌ واضح فصيح، وهو مبين بمعنى مُبَيِّنٌ لما يحتاجه الناس من أمور دينهم ودنياهم، فهو كتاب عظيم شامل جامع، لا تنفى عجائبه، ولا تنفد علومه.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَحَبْلُهُ الْمُتَيْنُ)، الحبل معروف، وهو: ما يُتَعَلَّقُ به للنجاة والسلامة من الخطر، فالقرآن حبل الله، قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، حبل الله هو القرآن، أو هو الإسلام، وفي الحديث: «هو حبل الله المتين الذي طرفه بيد الله، وطرفه بأيدينا»، بمعنى: من سار على نهجه، وصل إلى الله جَلَّ وَعَلَا، ونجا^(١).

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ)، وهو الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي

(١) أخرجه مسلم (٣٧) (٢٤٠٨) عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: «...أَلَا وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَحَدُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ، مَنْ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلَالَةٍ».

مُسْتَقِيمًا ﴿[الأنعام: ١٥٣]، الصراط هو الطريق في اللغة^(١)، والمراد به هنا: قيل: القرآن، وقيل: الرسول، وقيل: الإسلام^(٢)، والكل حق؛ فالقرآن صراط الله، والإسلام صراط الله، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صراط الله؛ أي: الطريق الموصل إليه سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَيْتَهُ﴾؛ أي: القرآن ﴿لَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿[الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، هذه أوصاف القرآن، ﴿لَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ نزل من عند الله، ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ [غافر: ٢]، فهو منزل من الله غير مخلوق - كما تقوله الجهمية قبهم الله -، بل هو منزل من الله، تكلم الله به، وأنزله على رسوله بواسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَام.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ)، قال تعالى: ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾، الخطاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾؛ لتنذر الناس بهذا القرآن العظيم، فالقرآن حجة الله جَلَّ وَعَلَا على عباده: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، فهو حجة الله على عباده، فمن بلغه القرآن - وهو يفهمه لو أراد -، قامت عليه الحجة، ولا عذر له.

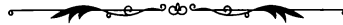
(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٧٠)، وتهذيب اللغة (١٢/ ٢٣٢)، والصحاح (٢/ ٥٥٠)، ومقاييس اللغة (٦/ ١٠٥)، ولسان العرب (٣/ ٤٥٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٧٢ - ١٧٥)، وتفسير القرطبي (١/ ١٤٧)، وتفسير ابن رجب (١/ ٧٥)، وفتح القدير للشوكاني (١/ ٢٣).

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)؛ بلغة العرب التي هي أفصح اللغات، بل بلغة قريش، التي هي أفصح لغات العرب، فهو فصيح، وأفصح اللغات لغة العرب، وأفصح لغات العرب لغة قريش، التي نزل بها القرآن الكريم، فلا أفصح من القرآن العظيم في ألفاظه وكلماته ومعانيه.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (مُنْزَلٌ غَيْرٌ مَخْلُوقٍ)؛ منزل من الله جَلَّوَعَلَا، لا من اللوح المحفوظ، بل من الله جَلَّوَعَلَا؛ لأن الله ذكر هذا في آيات كثيرة: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ٢] ﴿تَنْزِيلُ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢]، لا من اللوح المحفوظ، فلم يأخذه جبريل من اللوح المحفوظ - كما تقوله المبتدعة -، وإنما جبريل تلقاه عن الله جَلَّوَعَلَا.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (مِنْهُ بَدَأُ وَإِلَيْهِ يَعُودُ) (مِنْهُ)؛ من الله، (بَدَأُ)؛ يعني: تكلم الله به، لا من اللوح المحفوظ، ولا من غير، ولا من محمد، ولا من جبريل، بل هو من الله جَلَّوَعَلَا، (مِنْهُ بَدَأُ وَإِلَيْهِ يَعُودُ) في آخر الزمان.



وَهُوَ سُورٌ مُحْكَمَاتٌ، وَأَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ، وَحُرُوفٌ وَكَلِمَاتٌ، مَنْ قَرَأَهُ فَأَعْرَبَهُ، فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، لَهُ أَوَّلٌ وَآخِرٌ، وَأَجْزَاءٌ وَأَبْعَاضٌ، مَتَلَوْ بِالْأَلْسِنَةِ مَحْفُوظٌ فِي الصُّدُورِ، مَسْمُوعٌ بِالْأَذَانِ، مَكْتُوبٌ فِي الْمَصَاحِفِ، فِيهِ مُحْكَمٌ وَمُتَشَابِهٌ، وَنَاسِخٌ وَمَنْسُوخٌ، وَخَاصٌّ وَعَامٌّ، وَأَمْرٌ وَنَهْيٌ، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وَقَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ لِّنَّ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

الشرح

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَهُوَ سُورٌ مُحْكَمَاتٌ)، القرآن سور وآيات وكلمات وحروف، والسور جمع سورة، وهي القطعة من القرآن^(١)، المبتدأ بـ(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، و(بِسْمِ اللَّهِ) آية من القرآن، نزلت للفصل بين السور، ما عدا براءة والأنفال^(٢)، أول هذه السور فاتحة الكتاب، وهي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وآخرها سورة الناس، وهو مائة وأربع عشرة سورة، منها الطويل، ومنها المتوسط، ومنها القصير.

(١) انظر في تعريف السورة: الإتقان في علوم القرآن (١/١٨٦)، والكليات (١/٤٩٤).
 (٢) انظر هذه المسألة في: تفسير الطبري (١/١١٢)، وتفسير السمعاني (١/٣٢)، وتفسير البغوي (١/٥١)، وزاد المسير (١/١٤)، وابن كثير (١/١١٦-١١٧)، والتحرير والتنوير (١/١٣٨)، والقرطبي (١/٩٢-٩٣)، وأحكام القرآن للجصاص (١/١١)، ومجموع الفتاوى (٢٢/٢٧٦)، وما بعدها، ٤٣٨، ٤٤٠.

والسورة في الأصل: الشيء المحمي الرفيع، يقول النابغة في مدح النعمان بن المنذر^(١):

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَّبُ

والسورة: المنزلة الرفيعة، ومنه سميت سور القرآن؛ لرفعتها، ولأنها منيعة، لا أحد يرومها بزيادة أو نقص أو تحريف، فالقرآن محفوظ كما نزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يبدل، ولم يغير منه شيء؛ لأن الله تكفل بحفظه، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فلا أحد - على كثرة الأعداء الحاقدين - تجرأ على أن يغير في كلام الله، أو يزيد، أو ينقص، هذا من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حفظ الله كتابه من العبث، وسيحفظه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لا يتناول إليه أحد مع كثرة خصومه وكثرة أعدائه، ولو حاول أحد شيئاً من ذلك، لفضحه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأخزاه؛ كما حصل لمسيلمة الكذاب، الذي زعم أنه ينزل عليه قرآن، فضحه الله وأخزاه، وصار مضحكة للعالم، وكذلك كل من حاول أن يحاكي القرآن، فإن الله جَلَّ وَعَلَا يفضحه، ويخزيه، ويجعله مضحكة للناس، بل يهلكه؛ كما حصل لمسيلمة وغيره.

(وَهُوَ سُورٌ مُحْكَمَاتٌ)، محكمات: يعني متقنات؛ من الإحكام، وهو الإتيان. القرآن كله محكم، بمعنى: أنه متقن: ﴿كَتَبْنَا أَحْكَامَ آيَاتِهِ، ثُمَّ

(١) انظر: الأمثال لابن سلام (١/١٨٦)، وغريب القرآن لابن قتيبة (١/٣٤)، وتفسير الطبري (١/١٠٣)، والزاهر في معاني كلمات الناس (١/٧٥)، وتهذيب اللغة (١٣/٣٦).

فُصِّلَتْ ﴿[هود:١]، فهو كله محكم، بمعنى: أنه متقن، وكله متشابه، بمعنى: أنه يشبه بعضه بعضاً في الحسن والصدق وحلاوة اللفظ؛ كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا﴾ [الزمر:٢٣]؛ يعني: يشبه بعضه بعضاً في الحسن والإتقان والفصاحة والبلاغة.

ومنه محكم، ومنه متشابه، والمراد: الإحكام الجزئي، والتشابه الجزئي، والمحكم - كما عرفنا سابقاً - هو الذي لا يحتاج في تفسيره إلى غيره؛ لأنه واضح في نفسه. والمتشابه: هو اللفظ المجمل الذي يحتاج في تفسيره إلى غيره، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ [آل عمران:٧].

فعرفنا إذاً أن القرآن يُطلق عليه كله أنه محكم، ويُطلق عليه كله أنه متشابه، ويُطلق على بعضه أنه محكم، وعلى بعضه أنه متشابه، وهذا ما يسمى بالإحكام والتشابه العام والإحكام والتشابه الخاص، ولكل منهما معنى خاص به.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَيَّاتٌ بَيِّنَاتٌ)، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبَيِّنُ﴾ [العنكبوت:٤٩]، آيات جمع آية، والآية في اللغة: العلامة^(١)، سميت آية القرآن آية؛ لأنها دلالة وعلامة على عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(٢)، فالآية في اللغة: الدلالة

(١) انظر: العين (٨/٤٤١)، وجهرة اللغة (١/٢٥٠-٢٥١)، والزاهر في معاني كلمات الناس (١/٧٦-٧٧)، والصحاح (٦/٢٢٧٥-٢٢٧٦)، ومقاييس اللغة (١/١٦٧-١٦٩)، والنظم المُستعذَّب في تفسير غريب ألفاظ المهذَّب (١/٧٩)، وتاج العروس (٣٧/١٢٧).

(٢) انظر: النظم المُستعذَّب في تفسير غريب ألفاظ المهذَّب (١/١١٨).

والعلامة، وهي على نوعين: آية متلوة، وآية مخلوقة؛ الآية المتلوة: آيات القرآن، والآيات المخلوقة مثل: الشمس، والقمر، والليل، والنهار، والشجر، والبشر، والبحار، والأنهار، هذه آيات، سميت آيات؛ لأنها دلالات وعلامات على قدرة الله جَلَّوَعَلَا، وأما الآيات المتلوة، فهي الوحي المنزل من عند الله جَلَّوَعَلَا، وسمي الجميع آية؛ لأنه يدل على عظمة الله جَلَّوَعَلَا وعلى أحكامه وتشريعاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَحُرُوفٌ وَكَلِمَاتٌ)، القرآن الكريم حروف وكلمات وآيات، الحروف: حروف الهجاء المعروفة (أ، ب، ت...)، إلى آخر حروف الهجاء الثمانية والعشرين، هذه حروف سميت حروفاً؛ من الحرف، وهو الطرف؛ لأنها قطع، وهي لا تدل على معنى في نفسها إلا إذا رُكبت مع غيرها، فإذا تركبت الحروف، تكونت الكلمة، وإذا جمعت الكلمة مع الكلمة، تكونت الجملة اسمية كانت أو فعلية. فهو حروف وكلمات وآيات، فالقرآن متكون من هذه الحروف العربية، وتكونت من هذه الحروف كلمات القرآن، وتكونت من كلمات القرآن آيات القرآن، وتكونت من آيات القرآن سور القرآن، وتكون من مجموع هذه السور القرآن العظيم والكتاب المبين، فهو حروف وكلمات وآيات وسور.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (مَنْ قَرَأَهُ فَأَعْرَبَهُ)؛ يعني: قرأه قراءة صحيحة ليس فيها لحن، والإعراب معناه: السلامة من اللحن، فمن قرأ القرآن قراءة سليمة من اللحن، فله بكل حرف عشر حسنات؛ لأن الحسنات بعشر أمثالها، ومن قرأه قراءة غير معربة لعجزه عن ذلك، فله أجر، لكنه دون أجر من يتقن القراءة؛

لهذا جاء في الحديث: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ»^(١)، فجعل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي يتقن القراءة، ويقىمها من اللحن والخطأ، جعله مع السفرة الكرام البررة، فهو أعظم من الذي يقرأ القرآن، ويتتعتع فيه، ويشق عليه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَهُ أَوَّلٌ وَآخِرٌ)؛ يعني: له بداية ونهاية، أوله - حسب الذي أجمع عليه الصحابة - سورة الفاتحة، وآخره سورة الناس.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَجْزَاءٌ وَأَبْعَاضٌ)، القرآن أجزاء؛ كما هو معروف ثلاثون جزءاً، كل جزء عشر ورقات، وهو - أيضاً - أحزاب، الحزب الفلاني، الحزب...، والأحزاب معناها: جملة ما يقرأه القارئ في صلاة الليل، الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يحزبون القرآن في صلاة الليل.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (مَتْلُوٌّ بِالْأَلْسِنَةِ، مُحْفُوظٌ فِي الصُّدُورِ، مَكْتُوبٌ فِي الْمَصَاحِفِ)، القرآن هو المتلو بالألسنة، ومحفوظ في الصدور، ومكتوب في المصاحف، وهو كلام الله جَلَّ وَعَلَا، لأي اعتبار؛ سواء كان متلوّاً، أو كان مكتوباً في المصاحف، أو كان محفوظاً في الصدور، هو كلام الله جَلَّ وَعَلَا، لا يختلف في ذلك، فالقارئ إذا قرأ، إنما يقرأ كلام الله جَلَّ وَعَلَا، فالصوت صوت القارئ، وهو مخلوق، ولكن المقروء والمتلو هو كلام الله جَلَّ وَعَلَا، والمكتوب هو كلام الله حروفه ومعانيه، لكن الورق والخبر والكتابة من عمل البشر، فهي مخلوقة، فهو كلام الله بأي اعتبار؛ متلوّاً بالألسن، أو محفوظاً في الصدور، أو مكتوباً في الألواح، أو في الأوراق والمصاحف، أو مكتوباً فيما هو أعلى من ذلك، وهو اللوح المحفوظ؛

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم - واللفظ له - (٧٩٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

لأن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ: ﴿وَلَئِنَّهُ فِي أُولَى الْأَكْتَابِ لَدَيْنَا لَعَلَى حَكِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤]، وأم الكتاب هو اللوح المحفوظ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ [١] فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ [البروج: ٢١-٢٢]؛ يعني: اللوح المحفوظ الذي كتب الله به مقادير الخلائق.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (فِيهِ مُحْكَمٌ وَمُتَشَابِهٌ)، القرآن يطلق عليه كله أنه محكم، ويطلق عليه كله أنه متشابه، ويطلق على بعضه أنه محكم، وبعضه متشابه، ولكل قسم معنى خاص.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَنَاسِخٌ وَمَنْسُوخٌ)، فيه ناسخ ومنسوخ، وفي هذا رد على الذين ينكرون النسخ كاليهود ومن شابههم، فالقرآن فيه ناسخ ومنسوخ، وذلك لحكمة الله جَلَّ وَعَلَا، فإن الله يشرع شيئاً في وقت لمصالح العباد في ذلك الوقت، ثم تتغير حالهم، وتنتهي حاجتهم إلى ذلك، فينسخ الله ما سبق بحكم جديد، والنسخ عند الأصوليين: هو رفع حكم ثابت بدليل بحكم آخر بدليل متأخر متراخ عنه^(١)، فالناسخ والمنسوخ ثابت في القرآن، وذلك من رحمة الله بعباده ولطفه بهم وإحسانه إليهم؛ أنه يشرع لهم في كل وقت ما يناسبهم، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، كانت عدة الوفاة في الأول سنة كاملة، ثم نسخ الله ذلك بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، فنسخ

(١) انظر: روضة الناظر (١/٢١٩)، وشرح مختصر الروضة (٢/٢٥١)، وأصول الفقه لابن مفلح (٣/١١١٣)، ونهاية السؤل شرح منهاج الوصول (١/٢٣٦).

الحول بأربعة أشهر وعشرة أيام، هذا ناسخ ومنسوخ في القرآن، قال الله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]، الله جَلَّ وَعَلَا ينسخ ما يشاء من كلامه وأحكامه وتشريعاته لمصالح العباد وحاجة العباد إلى ذلك، فهو يشرع في كل وقت ما يناسب، فإذا انتهت الحاجة إلى ذلك التشريع، أبدله الله بتشريع آخر، يليق بحاجة الناس، والنسخ في القرآن واقع؛ كما في القبلة، كانوا يصلون في أول الإسلام إلى بيت المقدس، ثم نُسخ ذلك إلى استقبال الكعبة المشرفة، هذا من النسخ في القرآن العظيم، وهذا معنى قوله: (مِنْهُ نَاسِخٌ وَمُنْسُوخٌ)، ولا ينكر النسخ في القرآن أو الأحكام الشرعية إلا أهل الضلال.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَخَاصٌّ وَعَامٌّ)، في القرآن خاص وعام، العام: هو اللفظ الشامل لكل الأفراد، والخاص: هو اللفظ الخاص بطائفة؛ مثل ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، هذا لفظ عام لجميع الإنسان جميع البشر، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [العصر: ٣]، هذا خاص؛ لأن المخصصات أنواع: منها مخصصات متصلة، ومنها مخصصات منفصلة؛ كما هو معلوم في كتب الأصول، والعام يُحمل على الخاص.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَمْرٌ وَنَهْيٌ)، الأمر: طلب الفعل؛ مثل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]؛ طلب الصلاة وطلب الزكاة.

والنهي: طلب الكف؛ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ [الإسراء: ٣٢]، هذا نهي عن وسائل الزنا؛ من النظر، وكشف العورة، والخلوة بالأجنبية، وسفر المرأة بدون محرم، كل هذه من وسائل الزنا ومن الموصلة إليه، فهي عنها الشارع، قال:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ ﴾، ولم يقل: (ولا تزنوا) فقط، بل قال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا ﴾، وإذا نهى عن الشيء وعن أسبابه، فهو أبلغ مما لو نهى عن الشيء نفسه فقط.

وقال تعالى: ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ [النساء: ٢٩]، هذا نهى؛ أي: لا يأكل بعضكم مال بعض ﴿ بِالْبَاطِلِ ﴾؛ يعني: بغير طريق شرعي، وبغير إذن من صاحب المال المالك؛ ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَتْ بِحُكْمٍ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩]، إلى غير ذلك من الأوامر والنواهي التي في القرآن؛ الأمر بكل خير، والنهي عن كل شر.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ لَا يَأْنِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتُ عَزِيْزٌ ﴾ [فصلت: ٤١]؛ يعني: منيع الجانب، لا أحد يصل إليه بتغيير، ﴿ لَا يَأْنِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾؛ ليس قبله شيء يكذبه، ولا بعده شيء يكذبه، ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾، وهو الله جَلَّ وَعَلَا، فالقرآن منزل غير مخلوق.

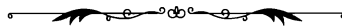
قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقوله عَزَّجَلَّ: ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: ٨٨])، لما أنزل الله تعالى القرآن، تكلم الأعداء والكفرة، قالوا: (إن هذا القرآن ﴿ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا ﴾ [الفرقان: ٥])؛ يعني: أخبار الأمم الماضية كتبها محمد، وصار يقرؤها عليكم، ما نزل عليه شيء من الله، إنما هي أساطير، الأكاذيب السابقة يسمونها أساطير، وبعضهم قال: (هذا القرآن شعر)، وبعضهم قال: (إنه سحر)، وقالوا، وقالوا، وبعضهم قال:

(لو شئت لأنزلت مثل ما أنزل الله)، وقالوا: (إن القرآن ليس من عند الله، المهم أنه من عند محمد)، ووصفوه بهذه الأوصاف: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]؛ قول محمد، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ [الفرقان: ٤-٥]، تحداهم الله جَلَّوَعَلَا، فقال: (ما دمتم تقولون: إن هذا القرآن من عند محمد، وأنه من كلام البشر، ومحمد بشر مثلكم، وهذا القرآن مكون من حروف ومن كلمات ومن آيات من لغتكم، التي تتخاطبون بها، فما دمتم تقولون: إن هذا القرآن من كلام البشر، وأنتم بشر، بل أنتم أفصح البشر في وقتكم، هاتوا مثل هذا القرآن)، تحداهم الله أن يأتوا بمثله، فلم يستطيعوا: ﴿قُلْ لِّينِ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، هذه الآية نزلت على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في مكة قبل الهجرة، قبل أن يكون له شوكة، أو دولة، أو قوة، ومع هذا يتحداهم هذا التحدي، مع شدة عداوتهم له، وما استطاعوا، ثم تحداهم الله أن يأتوا بعشر سور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٣]؛ استعينوا بمن تشاءون من الجن والإنس، وهاتوا عشر سور مثل هذا القرآن. لم يستطيعوا، تحداهم الله بأن يأتوا بسورة واحدة، بل بأقصر سورة؛ كسورة: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، أو ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]، أقصر سورة، تحداهم أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا

فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿البقرة: ٢٣﴾؛ استعينوا بمن شئتم، وهاتوا من يشهد أن هذه السورة التي جئتم بها مثل القرآن. ولم يستطيعوا، وعند ذلك تبين وثبت أن القرآن كلام الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنه لو كان من كلام البشر، لاستطاعوا أن يأتوا بمثله، فدل على أنه ليس من كلام البشر، وإنما هو من كلام الخالق جَلَّ وَعَلَا.

فهذا القرآن آية عظيمة ومعجزة من معجزات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو معجزة باقية على مر الدهور، والتحدي ما يزال قائماً لكل أحد إلى أن تقوم الساعة، ما أحد استطاع أحد، ولن يستطيع: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣) فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا، هذا إخبار عن المستقبل إلى أن تقوم الساعة، وتحدي قائم: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤]، فالقرآن قائم، يتحدى العالم والبشر كلهم -الجن والإنس- على أن يأتوا بمثل أقصر سورة من سور القرآن.

فهذا برهان واضح على أن هذا القرآن تنزيل من حكيم حميد، وأنه كلام الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يأتي بمثل كلام الله جَلَّ وَعَلَا.



وَهَذَا هُوَ الْكِتَابُ الْعَرَبِيُّ الَّذِي قَالَ فِيهِ الَّذِينَ كَفَرُوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ [سبأ: ٣١]، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]، فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿سَاطِئِهِ سَقَرٌ﴾ [المدثر: ٢٦]، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ شِعْرٌ. فَقَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]، فَلَمَّا نَفَى اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ شِعْرٌ وَأَثْبَتَهُ قُرْآنًا، لَمْ يَبْقِ شُبْهَةٌ لِذِي لُبٍّ فِي أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ هَذَا الْكِتَابُ الْعَرَبِيُّ الَّذِي هُوَ حُرُوفٌ، وَكَلِمَاتٌ، وَأَيَّاتٌ؛ لِأَنَّ مَا لَيْسَ كَذَلِكَ لَا يَقُولُ أَحَدٌ: إِنَّهُ شِعْرٌ.

وَقَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَحَدَّاهُمْ بِالْإِثْنَانِ بِمِثْلِ مَا لَا يُدْرَى مَا هُوَ وَلَا يُعْقَلُ.

وَقَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾ [يونس: ١٥]، فَأَثْبَتَ أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْآيَاتُ الَّتِي تُتْلَى عَلَيْهِمْ.

وَقَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وَقَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿[الواقعة: ٧٧-٧٩]، بَعْدَ أَنْ أَقْسَمَ عَلَى ذَلِكَ.

وَقَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿كَهَيَّعَ﴾ [مريم: ١]، ﴿حَمَ﴾ (١) عَسَقَ ﴿[الشورى: ١-٢]، وَافْتَتَحَ تِسْعًا وَعَشْرِينَ سُورَةً بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ.

الشرح

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَهَذَا هُوَ الْكِتَابُ الْعَرَبِيُّ الَّذِي قَالَ فِيهِ الَّذِينَ كَفَرُوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ [سبأ: ٣١]) هذا من جملة مقالاتهم، فهم قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: ٣١]؛ هذا من باب العناد -والعياذ بالله- والمكابرة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥])، فَقَالَ اللَّهُ سُبحَانَهُ: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٦])، (قَالَ بَعْضُهُمْ)، هو الوليد بن المغيرة المخزومي، من أشد خصوم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة، قال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾، قال الله جَلَّ وَعَلَا متوعداً له: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾، وهي جهنم، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ (٢٧) لَا بُقْيَ وَلَا نَذْرُ﴾ [المدثر: ٢٧-٢٨]؛ لأنه قال هذه المقالة، وهو يعلم أن هذا القرآن ليس من كلام البشر وأنه من كلام الله، وهو قد اعترف بأن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من كلام البشر، لكن لما رأى تغير قومه عليه وإنكارهم عليه، فإنه تظاهر أمامهم، فقال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾، قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ (١٨) فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ [المدثر: ١٨-٢٤]؛ يعني القرآن، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ شِعْرٌ. فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٩])، بعضهم قال: هذا القرآن شعر، والله جَلَّ وَعَلَا نفى ذلك، وقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا

تُؤْمِنُونَ ﴿[الحاقة: ٤١]﴾، وقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس بشاعر، ولا عُرف عنه أنه شاعر، ولا أنه يقول الشعر، فكيف يكون هذا القرآن شعراً، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس بشاعر؟! هذا من الكذب الواضح.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَلَمَّا نَفَى اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ شِعْرٌ وَأَثْبَتَهُ قُرْآنًا، لَمْ يُبْقِ شُبْهَةً لِذِي لُبٍّ فِي أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ هَذَا الْكِتَابُ الْعَرَبِيُّ الَّذِي هُوَ حُرُوفٌ، وَكَلِمَاتٌ، وَأَيَاتٌ؛ لِأَنَّ مَا لَيْسَ كَذَلِكَ لَا يَقُولُ أَحَدٌ: إِنَّهُ شِعْرٌ) (لَمْ يُبْقِ شُبْهَةً لِذِي لُبٍّ)؛ يعني: لذي عقل، أن هذا القرآن هو كلام الله جَلَّ وَعَلَا، لا كلام غيره، وأما جبريل ومحمد -عليهما الصلاة والسلام-، وأما الأمة حينما تتلو القرآن، أو تكتبه، أو تحفظه، فإنما هو كلام الله جَلَّ وَعَلَا؛ يحفظونه، ويكتبونه، ويقرؤونه، هو كلام الله جَلَّ وَعَلَا.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَحَدَّاهُمْ بِالْإِثْبَانِ بِمِثْلِ مَا لَا يُدْرَى مَا هُوَ وَلَا يُعْقَلُ) ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾؛ إن كنتم -أيها الكفار- في شك ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾، وهو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نزلنا عليه القرآن.

﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، فاستعينوا بمن شئتم؛ ليشهدوا معكم، ويعينوكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه من كلام البشر، ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾؛ أي: لن تقدرُوا على الإثبات بسورة، ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ في المستقبل، إلى أن تقوم الساعة، فاعلموا أنه كلام الله جَلَّ وَعَلَا، وأنكم كذبتُم على الله وعلى رسوله، ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ

وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿البقرة: ٢٤﴾؛ لأن هذا جزاء من عاند وكابر، ووجد
بآيات الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وجادل فيها.

(وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَحَدَّاهُمْ بِالْإِثْنَانِ بِمِثْلِ مَا لَا يُدْرَى مَا هُوَ وَلَا يُعْقَلُ)، ما
تحداهم الله إلا بشيء من جنس كلامهم؛ حروف وكلمات وجمل من جنس
كلامهم، يعرفون معانيه، ويعرفون تراكيبه، بحكم أنهم عرب فصحاء،
فهو تحداهم أن يأتوا بشيء يشبه هذا القرآن العظيم مما هو من كلامهم،
لم يتحداهم بشيء لم يقدرون على حروفه، أو على الكلمات التي يتخاطبون
بها، أو شيء لا يعلمون معناه، هو كلام عربي فصيح، تراكيب من حروف
وكلمات وجمل، ومعانيه معروفة لديهم؛ لأنه بلغتهم وبلسانهم، الذي
يتخاطبون به فيما بينهم، قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ
﴿١١٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٨-١٩٩]، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ
قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤]، كيف
ينزل قرآن أعجمي على نبي عربي؟! والله جَلَّ وَعَلَا من حكمته أنه أنزل القرآن
بلغه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبلغه المرسل إليهم والمبعوث فيهم؛ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا
مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ۚ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، الرسول يكون
بلسان قومه، ويتكلم بلغتهم، يخاطبهم بما يعرفون، ومن ذلك أنه خاطبهم
بهذا القرآن المكون من الحروف والكلمات والجمل والتراكيب، التي هي
موجودة في لغتهم، فما الذي منعهم أن يأتوا بمثله؟ الذي منعهم هو أن هذا
القرآن معجز؛ لأنه كلام الله، ولا يمكن لأحد أن يأتي بكلام يشبه كلام الله؛
لأن كلام الله من صفاته جَلَّ وَعَلَا، وصفاته لا يشبهها صفات خلقه؛ كما قال

تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فلا يمكن أن يأتي كلام يشبه كلام الله؛ لأن صفات المخلوقين لا تشبه صفات الخالق سبحانه، وكلام المخلوقين لا يشبه كلام الخالق سبحانه وتعالى، فدل على أن هذا القرآن منزل من عند الله، وأن الرسول إنما هو مبلغ عن الله جلَّ وعلا.

قال رحمه الله: (وَقَالَ عَزَّاجَلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي﴾ [يونس: ١٥]، فَأَثْبَتَ أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْآيَاتُ الَّتِي تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ) ﴿آيَاتُنَا﴾: يعني: آيات القرآن، ﴿بَيِّنَاتٍ﴾: واضحات الألفاظ والمعاني والدلالات، ليس فيها لبس ولا غموض، ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾: يعني: لا يؤمنون بالبعث والنشور والحساب، قالوا للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَنْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ﴾، يقولون: (نريد غير القرآن هذا، هات لنا غيره، ونسلم ونؤمن، إذا جئت لنا بغير هذا القرآن، نحن على استعداد أن نسلم)؛ لأنهم يظنون أن هذا القرآن من كلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله جلَّ وعلا لنبيه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي﴾؛ أنا مبلغ فقط، أما الذي يبدله، وينسخه، وينسخ منه ما يشاء، فهو الله جلَّ وعلا، الذي تكلم به: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥]، أنا مجرد مبلغ متبع، واسطة بينكم وبين الله سبحانه وتعالى في تبليغ رسالته: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿[يونس: ١٥]، لو تصرف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا القرآن، وبدل منه شيئاً، لعذبه الله سبحانه وتعالى؛ ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا

بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذَنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿[الحاقة: ٤٤-٤٦]﴾، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يتصرف في القرآن، وإنما يبلغه كما جاء من عند الله عَزَّوَجَلَّ، والرسول مهمته أنه يبلغ الرسالة، ثم قال: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقي في مكة أربعين سنة قبل البعثة، يعيش معهم، ويعرفونه، ولا يعرفون أنه تعلم، ولا أنه سافر وتعلم في بلاد أخرى، بل كان موجودًا معهم في مكة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعرفون أمانته، ويعرفون أخلاقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عاش بينهم أربعين سنة، وما تحدث إليهم بشيء من هذا القرآن، ولما أراد الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبعثه، وأن يرسله، أنزل عليه هذا القرآن، فبلغه كما جاء، فما الذي جعلني أربعين سنة لا أتكلم بشيء من هذا، وبعد الأربعين تكلمت بهذا بعد أن أنزله الله جَلَّ وَعَلَا.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنِتُ﴾)؛ دلالات واضحة على أنه من عند الله جَلَّ وَعَلَا.

﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾؛ يحفظونه في صدورهم، ويتلونه، فحفظه بسهولة وتلاوته دليل على أنه من عند الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿[الواقعة: ٧٧-٧٩]﴾، بَعْدَ أَنْ أَقْسَمَ عَلَى ذَلِكَ) قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦]، أقسم بمواقع النجوم، قيل: المراد بالنجوم:

(نجوم السماء)^(١)، وكانوا في الجاهلية يعتقدون فيها أنها تُنزل المطر، أو أنها تُؤثر في نزول المطر؛ لأن من اعتقاد الجاهلية الاستسقاء بالنجوم، ونسبة المطر إلى طلوع النجم أو غروبه، أقسم الله جَلَّوَعَلَا بمواقع النجوم؛ لأن هذه النجوم ليس لها تصرف، وإنما هي من مخلوقاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦]، وقيل: المراد بمواقع النجوم: (نجوم القرآن)^(٢)؛ لأن القرآن نزل منجماً على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حسب الوقائع والحوادث من حين بعثته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن توفاه الله، والقرآن ينزل عليه مجزئاً حسب الوقائع والحوادث خلال ثلاث وعشرين سنة، هذا وقت نزول القرآن، ومنه المكي، ومنه المدني.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، هذا من جملة اعتراضاتهم السخيفة، ليس المهم نزول القرآن جملة واحدة أو مفزقاً، وإنما المهم أنكم تتبعون القرآن، لكن هذا من اعتراضاتهم السخيفة؛ ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢-٣٣]، هذه هي الحكمة في تنزيل القرآن على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منجماً؛ لأن هذا أسهل على الأمة، فلو نزلت التكاليف والأوامر والنواهي جملة واحدة، لشق ذلك على الأمة، فالله جَلَّوَعَلَا نزل هذا الشرع شيئاً فشيئاً؛ لأن هذا أرفق بالأمة.

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٢/٣٦٠ - ٣٦١)، وزاد المسير (٤/٢٢٧)، والقرطبي (١٧/٢٢٣)، وابن كثير (٧/٥٤٤).

(٢) انظر: العين (٦/١٥٤)، وتفسير الطبري (٢٢/٣٥٩ - ٣٦٠)، وزاد المسير (٤/٢٢٧ - ٢٢٨)، والقرطبي (١٣/٢٩، ١٧/٢٢٤)، وابن كثير (٧/٥٤٤).

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٨]، وهو اللوح المحفوظ، ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، وهم الملائكة الكرام -عليهم الصلاة والسلام-، ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠]؛ أي: هذا القرآن تنزيل من الله جلَّ وعَلَا، لا من اللوح المحفوظ، ولا من جبريل، ولا من محمد، وإنما هو منزل من الله جلَّ وعَلَا.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿كَهَيَّعَ﴾ [مريم: ١]، ﴿حَمْدٌ﴾ ﴿١﴾ عَسَقَ﴾ [الشورى: ١-٢]، وافتتح تسعاً وعشرين سورةً بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ)، القرآن جاءت فيه حروف مقطعة في أوائل السور، مثل: ﴿آلَ﴾، ومثل: ﴿الرَّ﴾، ومثل: ﴿الْمَصَّ﴾، ﴿الْمَرَّ﴾، ومثل: ﴿طه﴾، ﴿يس﴾، ﴿صَّ﴾، ﴿قَ﴾، ﴿تَ﴾، ﴿حَمْدٌ﴾ ﴿١﴾ عَسَقَ﴾، تارة تكون هذه الحروف التي افتتح الله بها السور حرفاً واحداً، وتارة تكون حرفين، وتارة تكون ثلاثة حروف وأكثر.

وهي من القرآن بلا شك، هي قرآن من كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكلام الله يتكون من حروف ومن كلمات ومن آيات؛ لأنه بلسان عربي وباللغة العربية، والعربية تتكون من ذلك، ومع هذا أعجز الفصحاء أن يأتوا بمثله، مع أنه من هذه الحروف التي يتكلمون بها، ويتخاطبون بها، وهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان، ومع هذا عجزوا عن أن يأتوا بسورة مثل القرآن، مع أنهم الخطباء الذين يتكلم الخطيب منهم، ويجزل الكلام، ويطيل الكلام في الخطب.

فإذا كانوا قد عجزوا على أن يأتوا بسورة قصيرة مثل القرآن، فهذا دليل على أن القرآن ليس من كلام البشر، ولا هو من كلام الملائكة، ولا من كلام الخلق، وإنما هو من كلام الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والحروف المقطعة من العلماء من يقول: (الله أعلم بمراده بها)، فلا يتكلمون فيها، ومنهم من يقول: (إن هذه الحروف المقطعة في أوائل السور إشارة إلى الإعجاز؛ أي: أن القرآن مركب من مثل هذه الحروف، وأنتم عجزتم أن تأتوا بأقصر سورة من سور القرآن)، قالوا: ولذلك في الغالب أن الحروف المقطعة يأتي بعدها ذكر القرآن في الغالب؛ مثل: ﴿آلَ ۙ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى لَا رَيْبَ ۙ فِيهِ﴾ [البقرة: ١-٢]، فأشار إلى القرآن الكريم، وأنه لا ريب فيه هدى للمتقين، ومثل: ﴿صَّ ۙ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، ﴿قَ ۙ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، ﴿حَمْدَ ۙ عَسَىٰ ۙ كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ ۙ إِلَيْكَ ۙ وَإِلَىٰ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ۙ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ١-٣]، ﴿ٱلرَّ ۙ كُنْتُ ۙ أَحْكَمْتُ ۙ ٱيْنَهُ ۙ ثُمَّ فُصِّلَتْ ۙ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، ﴿ٱلرَّ ۙ تِلْكَ ۙ ٱيْنْتُ ۙ ٱلَّذِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [١] إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ١-٢]، إلى غير ذلك، فغالبًا ما يأتي ذكر الكتاب وذكر القرآن بعد هذه الحروف المقطعة؛ إشارة إلى الإعجاز. هذا الرأي الثاني هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة من أهل العلم^(١).

(١) ذكر ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٠) أن ﴿آلَ﴾: اختلف العلماء فيها وفي سائر الحروف المقطعة في أوائل السور على ستة أقوال:

أحدها: أنها من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله. قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ** في كل كتاب سر، وسر الله في القرآن أوائل السور. وإلى هذا المعنى ذهب الشعبي، وأبو صالح، وابن زيد.

= والثاني: أنها حروف من أسماء، فاذا ألفت ضرباً من التأليف، كانت أسماء من أسماء الله عزَّ وجلَّ. قال علي بن أبي طالب: هي أسماء مقطعة، لو علم الناس تأليفها، علموا اسم الله الذي إذا دعي به أجاب. وسئل ابن عباس عن (الر) و (حم) و (نون)، فقال: اسم الرحمن على الهجاء. وإلى نحو هذا ذهب أبو العالية، والربيع بن أنس.

والثالث: أنها حروف أقسم الله بها، قاله ابن عباس، وعكرمة. قال ابن قتيبة: ويجوز أن يكون أقسم بالحروف المقطعة كلها، واقتصر على ذكر بعضها؛ كما يقول القائل: تعلمت (أ ب ت ث)، وهو يريد سائر الحروف، وكما يقول: قرأت الحمد، يريد فاتحة الكتاب، فيسميها بأول حرف منها، وإنما أقسم بحروف المعجم لشرفها، ولأنها مباني كتبه المنزلة، وبها يذكر ويوحد. قال ابن الأنباري: وجواب القسم محذوف، تقديره: وحروف المعجم لقد بين الله لكم السبيل، وأنجحت لكم الدلالات بالكتاب المنزل، وإنما حذف لعلم المخاطبين به، ولأن في قوله: ﴿ذَلِكَ أَكْتَبْتُ لَا رَبَّ فِيهِ﴾ دليلاً على الجواب.

والرابع: أنه أشار بما ذكر من الحروف إلى سائرها، والمعنى: أنه لما كانت الحروف أصولاً للكلام المؤلف، أخبر أن هذا القرآن إنما هو مؤلف من هذه الحروف، قاله الفراء وقطرب. فان قيل: فقد علموا أنه حروف، فما الفائدة في إعلامهم بهذا؟ فالجواب أنه نبه بذلك على إعجازه، فكأنه قال: هو من هذه الحروف التي تؤلفون منها كلامكم، فما بالكم تعجزون عن معارضته؟! فاذا عجزتم، فاعلموا أنه ليس من قول محمد ﷺ.

والخامس: أنها أسماء للسور. روي عن زيد بن أسلم، وابنه، وأبي فاختة سعيد بن علاقة مولى أم هانئ.

والسادس: أنها من الرمز الذي تستعمله العرب في كلامها. يقول الرجل للرجل: هل تأ؟ فيقول له: بلى، يريد هل تأتي؟ فيكتفي بحرف من حروفه. وأنشدوا:

فَقُلْتُ نَهَا قَفِي، فَقَالَتْ قَافُ

أراد: قالت: أقف. ومثله:

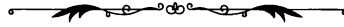
نادوهم أن اجموا ألا تا قالوا جميعاً كلهم بلى فا

يريد: ألا تركبون؟ قالوا: بلى فاركبوا.

ومثله:

بالخير خيرات وإن شراً فا ولا أريد الشر إلا أن تا

معناه: وإن شراً فشر، ولا أريد الشر إلا أن تشاء. وإلى هذا القول ذهب الأخفش، والزجاج، وابن الأنباري. وقال أبو روق عطية بن الحارث الهمداني: «كان النبي =



= صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجهر بالقراءة في الصلوات كلها، وكان المشركون يصفقون ويصفرون، فنزلت هذه الحروف المقطعة، فسمعوها، فبقوا متحيرين». وقال غيره: «إنها خاطبهم بما لا يفهمون؛ ليقبلوا على استماعه؛ لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها». معناه: فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، أو يكون معلوماً عند المخاطب، فهذا الكلام يعم جميع الحروف. وانظر أيضاً: تفسير الطبري (١/ ٢٠٩ - ٢١٧)، والقرطبي (١/ ١٥٤، ١٥٥)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٥٦ - ١٦٠).

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَعْرَبَهُ، فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ مِنْهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمَنْ قَرَأَهُ وَلَحَنَ فِيهِ، فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ حَسَنَةٌ» حَدِيثٌ صَحِيحٌ^(١).

(١) ورد هذا الحديث من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند البيهقي في شعب الإيمان (ح ٢٢٩٤)، (٤٢٨/٢) من رواية بقية، عن عبد العزيز بن أبي رواد، عن نافع، ولفظه: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَعْرَبَ فِي قِرَاءَتِهِ كَانَ لَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ مِنْهُ عَشْرُونَ حَسَنَةً، وَمَنْ قَرَأَ بِغَيْرِ إِعْرَابٍ كَانَ لَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ». وفي إسناده بقية بن الوليد، وهو مدلس، وقد عنعنه، وفيه عبد العزيز بن أبي رواد، قال الحافظ: صدوق عابد ربًّا وهم.

وورد من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البيهقي أيضًا في الشعب (ح ٢٢٩٦)، ورواه ابن عدي في الكامل (٧/٤١)، بنحو حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، من رواية أبي عصمة، عن زيد العمي. وأبو عصمة: هو نوح بن أبي مريم الجامع، قال عنه البخاري: منكر الحديث. وقال مسلم: متروك الحديث. وزيد العمي هو: ابن الحواري، وهو ضعيف، وأخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [ح ٧٥٧٤ (٧/٣٠١)]، بلفظ: «أَعْرَبُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَعْرَبَهُ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَكَفَّارَةُ عَشْرِ سَيِّئَاتٍ، وَزَفْعُ عَشْرِ دَرَجَاتٍ» وفي إسناده نهشل بن سعيد: متروك الحديث.

ورواه تمام في فوائده [ح ٣٠١ (١/١٣٠، ١٣١)] من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَعْرَبَهُ، فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ أَرْبَعُونَ حَسَنَةً، وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ بِالْحِنْ وَتَطَرَّبَ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُونَ حَسَنَةً» من رواية شعبة عن طلحة عن عبد الرحمن بن عوسجة، عنه. أما اللفظ الذي ذكره المؤلف هنا فقد ذكره أيضًا في المغني (٣/١٤)، وقال: رواه الترمذي وقال: حسن صحيح. وهذا اللفظ ليس في نسخ الترمذي التي بين أيدينا، وإنما فيه حديث ابن مسعود المشهور رقم (٢٧١٠) بلفظ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَا م حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ» قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

الشرح

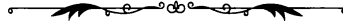
قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَعْرَبَهُ»، أعربه يعني: أقامه على الوجه العربي، من غير لحن فيه، فهذا متقن للقرآن ودليل على عنايته به، «فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ مِنْهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ»؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها. فهذا فيه دليل على فضل إتقان قراءة القرآن والسلامة من اللحن فيه.

وأما من قرأه، ولم يعربه؛ بأن كان لا يحسن العربية، فقد يرفع المنصوب، وينصب المخفوض، فهذا له أجر على قدر استطاعته وتكلفه، وخطؤه مغفور؛ لأن هذا منتهى جهده وطاقته، وقد جاء في الحديث الآخر: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ»^(١)، فدل على أنه مطلوب تلاوة القرآن حسب استطاعة المسلم، فإن كان يستطيع أن يتعلم، وأن يعدل القراءة، وجب عليه ذلك، ولا يبقى جاهلاً بالقراءة، وإن كان لا يستطيع أن يعدل، فإنه يقرأ على حسب استطاعته؛ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولا يترك القرآن وقراءة القرآن، بل يحاول حسب استطاعته.

هذا من ناحية، والناحية التي ساق المصنف الحديث من أجلها هي أن قارئ القرآن ليس له إلا التلاوة والقراءة، أما المقروء، فهو كلام الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، والقراءة هي عمل القارئ، ولذلك يتلوه بصوت حسن وبصوت غير حسن، فاختلاف القراءة بالأسنة الناس دليل على أن القراءة من

(١) سبق تخريجه (ص ١٥٨).

عمل الناس، وأما المقروء والمتلو، فهو كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا يقولون: (الْكَلَامُ كَلَامُ الْبَارِي وَالصَّوْتُ صَوْتُ الْقَارِي)^(١)، فالتلاوة عمل الإنسان والمتلو هو القرآن كلام الله سبحانه، من الناس من يحسنه ويتقنه ومنهم من هو دون ذلك.



(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٢/٥٣، ٩٨، ١٣٧، ٣٠٣، ٤٠٩، ٥١٨، ٥٧٧).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ قَوْمٌ يُقِيمُونَ حُرُوفَهُ إِقَامَةَ السَّهْمِ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ يَتَعَجَّلُونَ أَجْرَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ»^(١).

الشرح

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ قَوْمٌ يُقِيمُونَ حُرُوفَهُ إِقَامَةَ السَّهْمِ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ يَتَعَجَّلُونَ أَجْرَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ»، ذكر هذا الحديث بعد الحديث الذي فيه فضل من قرأ القرآن، فأعربه وأقامه على الوجه اللغوي الصحيح الذي نزل به، فله عشر حسنات بكل حرف، لكن في هذا الحديث يبين أنه ليس المقصود مجرد التلاوة، وإنما المقصود التلاوة لأجل العمل بالقرآن؛ فالتلاوة وسيلة، والغاية هي العمل بالقرآن الكريم، فلا تحسبن هذا الأجر للتالي على مجرد التلاوة فقط - وإن لم يعمل بالقرآن -، بل هذا الأجر لمن يتلو القرآن ويعمل به، ولهذا يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ۚ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠] لم يقتصر على قوله: ﴿يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾،

(١) رواه أبو داود (٨٣١)، وأحمد في المسند (٣٣٨/٥)، وعبد بن حميد في مسنده [ج ٤٦٦ (١/١٧١)]، والطبراني في الكبير [ج ٦٠٢١ (٦/٢٠٦)]، وابن حبان في صحيحه (ح ٧٦٠) من حديث سهل بن سعد الساعدي، وفيه وفاء بن شريح، ذكره ابن حبان في الثقات، وقال عنه الحافظ: مقبول، يعني إذا توبع. وله شاهد يتقوى به عند أحمد في المسند (٦٥٧/٣) من رواية جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه أبو يعلى (ح ٢١٩٧)، والبيهقي في الشعب (ح ٢٦٤٣).

بل قال: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، لا بد مع القراءة من العمل بالقرآن الكريم، أما مجرد التلاوة للرياء أو للسمعة أو للمدح، فهذا لا ينفع صاحبه شيئاً، أو قراءة القرآن للتأكل به؛ كما يفعل بعض المتنفعين من تأجير أنفسهم للتلاوة في المآتم والحفلات، ولا لهم حرفة إلا حرفة التلاوة، وهم من أبعد الناس عن العمل بالقرآن، بل بعضهم قد لا يصلي، فهو حسن التلاوة وحسن الصوت، ولكنه لا يعمل بالقرآن، ولا يصلي، وإنما اتخذ تلاوة القرآن حرفة يتأكل بها، هذا عليه الوعيد الشديد بأنه من الذين «لَا يَتَجَاوَزُ الْقُرْآنَ تَرَاقِيَهُمْ»؛ يعني: لا يصل إلى قلوبهم، يتلونه بألسنتهم لغرض من الأغراض، ولا يصل إلى قلوبهم -والعياذ بالله!

وأيضاً بعض الناس يتلو القرآن، ويتقن التلاوة، ويقيم إقامة السهم، وهو يتقن القراءة جداً، ولكن لا يفهم المعنى، ولا يتفقه في كتاب الله، ولا يهتم بالتفسير؛ حتى يعمل به، وإنما يؤدي اللفظ فقط، وهو لا يعرف المعاني، أو يستدل بالقرآن على غير وجهه الصحيح؛ كما تفعل الخوارج، فالخوارج من أكثر الناس تلاوة للقرآن، ولكنهم «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»^(١)؛ لأنهم لا يتفقهون في القرآن، ولا يتعلمون معاني القرآن على الوجه المطلوب، فالقرآن لا يتجاوز حناجرهم؛ لأنهم لا يفقهونه ولا يعلمونه فلا بد من أمور:

أولاً: التلاوة والعناية بها.

ثانياً: معرفة المعاني والتفسير ومراد الله جَلَّ وَعَلَا بكلامه.

(١) سبق تحريجه (ص ٤١).

ثالثاً - وهو الغاية:- العمل بالقرآن، أما التلاوة وفهم المعنى، فهذه وسائل، لكن الغاية والمطلوب هو العمل بالقرآن الكريم على ما أَرَادَهُ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، واعتقاد ما فيه.

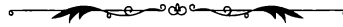
نعم هناك من يتلو القرآن، ويحسن القراءة، لكن يعتقد خلاف ما يدل عليه القرآن؛ مثل: الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، يقولون: (القرآن ظواهر لفظية، ونحن لا نبني عقيدتنا إلا على القواعد اليقينية المنطقية)، فهؤلاء ليسوا من أهل القرآن، وإن كانوا يتقنونه؛ لأنهم لا يبنون عقيدتهم عليه، وإنما يبنونها على علم الكلام، فأين هؤلاء من القرآن؟!

مجرد التلاوة وتحسين التلاوة ليس هو المطلوب، بل إنها هذه التلاوة تكون حجة عليهم يوم القيامة؛ كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَنْقُرْ حُجَّةً لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»^(١)؛ حجة لك إن عملت به، وحجة عليك إن لم تعمل به؛ لم تعمل به في العقيدة، لم تعمل به في الصلاة والصيام والحج، لم تعمل به فيما يطلب منك من تجنب المحرمات وفعل الواجبات، وكلٌّ على حسب وسعه وقدرته، ما منا أحد إلا عنده تقصير -أستغفر الله!-، ولكن يجب الالتفات إلى كتاب الله والعناية به، وليس المقصود التغني بالقرآن وتحسين الأصوات وجلب المستمعين، ما هذا هو المقصود، المقصود العمل والخشية والخوف من الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، التلاوة إذا سمعها المؤمن، زادت إيمانه، التلاوة إذا سمعها المؤمن، أبكته من خشية الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وأثرت فيه، ولهذا

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣)، من حديث أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قرأ القرآن في الصلاة، يُسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١). ولما استمع إلى قراءة ابن مسعود من سورة النساء، ووصل إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَسْبُكَ»؛ يعني: قف، قال: فالتفت، فإذا عيناه تذرفان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢).

هكذا يعمل القرآن في قلوب المؤمنين، إذا سمعوه أو تلووه، أثر فيهم خوفاً وخشية وبكاءً، وأثر فيهم عملاً صالحاً وقدوة صالحة. أما مجرد التلاوة وتحسين التلاوة ومعرفة القراءات السبع والعشر، هذا ليس هو المطلوب، المطلوب العمل بالقرآن، هذا هو المطلوب، وهذا هو الغاية من القرآن، وأما تعلم القراءات وإتقان التلاوة، إنما هذه وسائل فقط.



- (١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٩٠٤)، والنسائي (١٢١٤): عَنْ مُطَرِّفٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ يُصَلِّي وَجَوْفُهُ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمَرْجَلِ».
- (٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اقْرَأْ عَلَيَّكَ، وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ، قَالَ: «نَعَمْ»، فَقَرَأْتُ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قَالَ: «حَسْبُكَ الْآنَ»، فَالتَفْتُ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ».

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِعْرَابُ الْقُرْآنِ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ حِفْظِ بَعْضِ حُرُوفِهِ»^(١).

وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ كَفَرَ بِحَرْفٍ مِنْهُ، فَقَدْ كَفَرَ بِهِ كُلُّهُ»^(٢).

الشرح

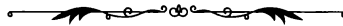
قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِعْرَابُ الْقُرْآنِ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ حِفْظِ بَعْضِ حُرُوفِهِ»)، معناه: أن إتقان القراءة وعدم اللحن أحسن من الحفظ الكثير، الذي فيه لحن، وفيه خطأ، فكونك تحفظ قليلاً من القرآن وتتقنه وتعربه على الوجه المطلوب أحسن من كونك تقرأ كثيراً، لكنك لا تحسن قراءته على الوجه المطلوب.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ كَفَرَ بِحَرْفٍ مِنْهُ، فَقَدْ كَفَرَ بِهِ كُلُّهُ»)، فكيف إذا أنكر آية، أو أنكر سورة أو سوراً من القرآن؟! فكفره أشد -والعياذ بالله-، أو أنكر كلمة من القرآن، كفره أشد؛ لأنه جحد لكلام الله

(١) أخرجه عبد الواحد بن عمر في أخبار النحويين (١/ ٤٢) من رواية شريك عن جابر عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد أن أبا بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالوا: لحفظ بعض إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه. وشريك القاضي: صدوق يخطئ كثيراً وتغير حفظه، وجابر هو ابن يزيد الجعفي: ضعيف.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (ح ١٥٩٤٦)، من قول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه سعيد ابن منصور في سننه (ح ٩٣٦)، وابن أبي شيبه في مصنفه (ح ٣٠١٠٩)، والبيهقي في الشعب (ح ٢٢٧٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٨/ ١٧٤)، كلهم عن إبراهيم النخعي، من قوله.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبالمناسبة بعض الناس يظن أن (طه) و(يس) من أسماء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا غلط؛ (طه) من الحروف المقطعة (ط، هـ)، حرفان، كذلك (يس) ياء حرف، وسين حرف، وليس هو من أسماء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك يسمون أولادهم ياسين وطه؛ زعمًا منهم أن هذه أسماء، مع أنها حروف مقطعة.



وَاتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى عَدِّ سُورِ الْقُرْآنِ، وَآيَاتِهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَحُرُوفِهِ.
وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَنَّ مَنْ جَحَدَ مِنَ الْقُرْآنِ سُورَةً أَوْ آيَةً، أَوْ
كَلِمَةً، أَوْ حَرْفًا مُتَّفَقًا عَلَيْهِ أَنَّهُ كَافِرٌ، وَفِي هَذَا حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ عَلَى أَنَّهُ حُرُوفٌ.

الشرح

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَاتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى عَدِّ سُورِ الْقُرْآنِ، وَآيَاتِهِ وَكَلِمَاتِهِ،
وَحُرُوفِهِ)، لا شك أن القرآن معروف عدد آياته وعدد سوره وعدد حروفه،
ومن أراد معرفة ذلك، فليراجع كتب علوم القرآن المسماة بأصول التفسير؛
مثل: كتاب (الإتقان) للإمام السيوطي^(١)، وغيره من كتب أصول التفسير.
قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَنَّ مَنْ جَحَدَ مِنَ الْقُرْآنِ سُورَةً
أَوْ آيَةً، أَوْ كَلِمَةً، أَوْ حَرْفًا مُتَّفَقًا عَلَيْهِ أَنَّهُ كَافِرٌ، وَفِي هَذَا حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ عَلَى أَنَّهُ
حُرُوفٌ) من أنكر القرآن، أو أنكر سورة منه أو آية منه أو حرفاً منه أنه كافر
بإجماع المسلمين، لكن بشرط أن يكون هذا الحرف متفقاً على صحته.

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن (١/ ٢٢٥).

فَصْلٌ

وَالْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ بِأَبْصَارِهِمْ وَيَزُورُونَهُ، وَيُكَلِّمُهُمْ، وَيُكَلِّمُونَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فَلَمَّا حَجَبَ أُولَئِكَ فِي حَالِ السُّخْطِ، دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ فِي حَالِ الرِّضَا، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ.

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبُّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ» حَدِيثٌ صَحِيحٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

وَهَذَا تَشْبِيهُ لِلرُّؤْيَةِ بِالرُّؤْيَةِ لَا لِلْمَرِيِّ بِالْمَرِيِّ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ لَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ.

الشرح

قال رحمه الله: (فَصْلٌ: وَالْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ بِأَبْصَارِهِمْ)، انتهى من الكلام على القرآن، الذي هو من كلام الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وانتقل إلى صفة من صفات الله عظمة، وهي الرؤية - رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة -؛ كما تواترت بذلك السنة عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكما دل على ذلك القرآن الكريم، قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]؛ ناضرة الأولى بالضاد، من النضرة، وهي البهجة، فوجوه المؤمنين يوم القيامة

(١) رواه البخاري (٥٥٤)، ومسلم [ح ٢١١ (٦٣٣)]، من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تكون نضرة مستنيرة بهجة، وأما ناظرة الثانية فهي بالطاء المشالة أخت الطاء، من النظر، وقد عدي بـ(إلى)، إذا عدي النظر بـ(إلى)، فمعناه المعاينة بالأبصار، ﴿إِلَى رَيْهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣]؛ أي: تنظره يوم القيامة عياناً، وهي وجوه المؤمنين النضرة الحسنة، تنظر إلى وجه ربها، فيزيدها ذلك بهجة وجمالاً ونوراً وفرحاً وسروراً، فالنظر إذا عدي بـ(إلى)، فمعناه المعاينة بالأبصار، وإذا عدي بنفسه: ﴿أَنْظُرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، فمعناه الانتظار؛ أي: انتظرونا، يقول المنافقون للمؤمنين يوم القيامة: (انتظرونا؛ نقتبس منكم)؛ لأن المؤمنين يعطون نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، والمنافقون يعطون نوراً في أول الأمر، ثم يطفأ -والعياذ بالله-، ويصيرون في ظلمة، وهم مأمورون بالسير، فيقولون للمؤمنين: ﴿أَنْظُرُونَا﴾؛ أي: انتظرونا؛ حتى نقتبس من نوركم؛ لأنهم في ظلام دامس لا يدرون أين يذهبون، ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۝١٣﴾ ينادونهم أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴿[الحديد: ١٣-١٤]؛ يعني: في الدنيا، ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ كُنْتُمْ فَنَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [الحديد: ١٤]، كانوا في الدنيا مع المؤمنين يصلون ويجاهدون، لكنه ليس عن إيمان، وإنما هو عن نفاق -والعياذ بالله-، فيعطون نوراً يوم القيامة من باب الخديعة والمكر بهم؛ كما أنهم يمكرون بالدنيا، مكر الله بهم؛ أعطاهم نوراً، ثم سلبه منهم، وذلك لشدة حسرتهم -والعياذ بالله!

الشاهد: أنه إذا عدي النظر بنفسه، فمعناه الانتظار: ﴿أَنْظُرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠]؛ أي:

ما ينتظر هؤلاء إلا قيام الساعة، فإذا عدي بنفسه، فمعناه الانتظار، وإذا عدي بـ(في): ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، فإذا عدي بفي، فمعناه التفكير والاعتبار؛ ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]؛ يعني: تفكروا في مخلوقات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الخلاصة:

إذا عدي النظر بنفسه، فمعناه: التوقف والانتظار.

وإذا عدي بـ(إلى)، فمعناه المعاينة بالأبصار.

وإذا عدي بـ(في)، فمعناه التفكير والاعتبار.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ بِأَبْصَارِهِمْ) (بِأَبْصَارِهِمْ)؛ ردًا على من يقول: (إنهم ينظرون إليه بقلوبهم، أو ينظرون إلى نعمته، ينظرون إلى جنته وإلى نعمته، ينظرون إلى الله يعني: إلى جنته)، وهذا تحريف لكلام الله عَزَّوَجَلَّ، بل ينظرون إلى الله بأبصارهم هم رؤية حقيقية، ليس بينهم وبينه حجاب؛ إكرامًا لهم؛ حيث عبدوه في الدنيا، وهم لم يروه، وإنما عبدوه؛ إيمانًا به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، واستدلالًا بآياته الكونية والقرآنية، عبدوه بالإيمان والتصديق، فالله جَلَّوَعَلَا يوم القيامة يجازيهم على ذلك بأن يتجلى لهم، فيروونه عيانًا، فالذين عبدوه في الدنيا، ولم يروه، بل اعتمدوا في ذلك على الإيمان والتصديق بخبر الله وخبر رسوله والنظر في آياته، أكرمهم الله يوم القيامة بأن تجلى لهم.

وأما الذين كفروا بالله عَزَّوَجَلَّ، فإن الله يحجبهم عن رؤيته يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]؛ لأنهم كفروا به

في الدنيا، ولم يصدقوا بإلهيته وأسمائه وصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فحجبهم الله يوم القيامة؛ عقوبة لهم. ودل ذلك على أن المؤمنين يرونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنٍ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦] ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ يعني: العمل في الدنيا، ﴿لِحُسْنٍ﴾: وهي الجنة، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: وهي النظر إلى وجه الله؛ كما فسرنا بذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما في صحيح مسلم أن الزيادة هي النظر إلى وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(١).

وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، والمزيد هو النظر إلى وجه الله^(٢).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

هذه أدلة القرآن على رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والسنة فيها أحاديث كثيرة متواترة؛ كما ذكر ذلك الإمام ابن القيم في كتابه (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)^(٣)، فالرؤية ثابتة في القرآن، ومتواترة في السنة، وإثباتها مذهب أهل السنة والجماعة، المؤمنون يرون ربهم يوم القيامة يرونه في موضعين:

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١٨١): عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ».

(٢) انظر: تفسير الطبري (٤٥٤/٢١)، وزاد المسير (١٦٤/٤)، والقرطبي (٢١/١٧)، وابن كثير (٤٠٧/٧).

(٣) انظر: حادي الأرواح (ص ٢٨٥-٣٤٤).

في عرصات القيامة في المحشر، وفي الجنة إذا دخلوا الجنة، يرونه رؤية تنعم وإكرام.

ذهب المعتزلة وأشباههم ومشتقاتهم إلى نفي الرؤية، قالوا: (لأن الرؤية لا تكون إلا لجسم، والأجسام متشابهة، فإذا أثبتنا الرؤية، أثبتنا أن الله جسم، والأجسام متشابهة!) هذا مثل منهجهم في الصفات كلها، وهذا أمر باطل.

فنقول: المؤمنون يرون ربهم، ولا يلزم من ذلك ما تقولون، وهو التشبيه، فإن الله جَلَّوَعَلَا لا يشبهه شيء، وفي الحديث: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَكَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ، لَا تَضَامُونَ - أَوْ لَا تَضَامُونَ - فِي رُؤْيَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى»^(١)، وذلك لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل: كيف نرى ربنا وهو واحد ونحن جميع؟ فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضرب لهم مثلاً من المخلوقات، يرونه، ولا يحصل زحام، وهو القمر ليلة البدر، كل يراه وهو في مكانه، ولا يتزاحم الناس عندما يريدون رؤية القمر، هل يتزاحمون ليروا القمر، أو كل يراه في مكانه؟ كذلك الشمس، يرونها، كل في مكانه، لا يتزاحمون، فإذا كان هذا في مخلوق من مخلوقات الله، فإن الله جَلَّوَعَلَا أعظم وأجل، يُرى، ولا يحصل زحام أو تزاحم في رؤيته أو تضام، لا تضامون أو تضامون في رؤيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(فهَذَا تَشْبِيهٌُ لِلرُّؤْيَةِ بِالرُّؤْيَةِ)؛ رؤية الله جَلَّوَعَلَا برؤية الشمس والقمر، وليس تشبيهاً للمرئي بالمرئي، لا يشبه الله القمر، ولا يشبه الشمس، ولا يشبه شيئاً من خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) سبق تخريجه (ص ١٨٥).

استدل نفاة الرؤية بقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، قالوا: (هذا دليل على نفي الرؤية).

نقول: هذا كلام باطل؛ لأن الآية ليس فيها نفي الرؤية، وإنما فيها نفي الإدراك، وليس كل ما يُرى يُدرك، تراه لكن لا تدركه؛ يعني: لا تحيط به، وإنما تراه مجرد رؤية، ولا يلزم من هذا أنك أحطت به، الشمس مثلاً - والله المثل الأعلى - تراها، لكن هل تحيط بها؟ لا تحيط بها، وهي مخلوقة، فكيف بالخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ فالآية ليس فيها نفي الرؤية، وإنما فيها نفي الإدراك، بل إن قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] يدل على أن الأبصار تراه، لكنها لا تدركه؛ يعني: لا تحيط به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

واستدلوا بقوله تعالى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَنْ تَرَنِى﴾: ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِى﴾ أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣]، قالوا: (هذا دليل على نفي الرؤية).

نقول لهم: هذا دليل على نفيها في الدنيا؛ لأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل ربه أن يراه في الدنيا، والله لا يرى في الدنيا، لا يستطيع أحد أن يراه في الدنيا، فهذا في الدنيا، ﴿قَالَ لَنْ تَرَنِى﴾، والنفي إذا جاء بـ(لن)، فإنه ليس نفيًا مؤبدًا، وإنما هو نفي مؤقت، بدليل قوله تعالى في اليهود: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤) ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٤-٩٥]، نفى عن اليهود أن يتمنوا الموت في الدنيا، لكن في الآخرة يتمنونه، حين يقولون: ﴿يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]؛ يعني: يطلبون الموت؛ ليستريحوا من النار، فهم في

الآخرة يتمنون الموت، مع أنه قال عنهم في الدنيا: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾، فدل على أن النفي بـ(أن) ليس للتأيد، والذي في الآية ﴿لَنْ تَرَنِ﴾، ما قال: (لا تراني)، وإنما قال: ﴿لَنْ تَرَنِ﴾، وهذا في الدنيا، فلا أحد يرى الله في الدنيا لضعف أجسام الناس ومداركهم عن رؤية الله، أما في الآخرة، فإن الله يعطي المؤمنين قوة، يستطيعون بها أن يروا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأمور الآخرة تختلف عن أمور الدنيا.

لكن هنا نقطة، وهي أن بعض الشراح -سأحهم الله- يقول: (رؤية الله في الدنيا مستحيلة)، وهذا غلط؛ رؤية الله في الدنيا ليست مستحيلة، بل هي ممكنة في الدنيا، ولكن الناس لا يستطيعونها، ولهذا سأل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه الرؤية، ولو كانت رؤيته في الدنيا غير ممكنة، ما كان يليق بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يسأل شيئاً مستحيلاً، فليست رؤية الله في الدنيا مستحيلة، ولكن هي غير ممكنة؛ لضعف مدارك الناس في هذه الحياة، وإلا فهي في حد ذاتها ليست مستحيلة؛ لأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل ربه الرؤيا، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يسأل المستحيل، ولا يسأل المحرم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (يَزُورُونَهُ)؛ كما جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أنهم يزورونه جَلَّ وَعَلَا يوم الجمعة، أو مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا، فيتجلى لهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذا اليوم، ولهذا يسمى هذا اليوم بيوم المزيد؛ كما في حديث أبي هريرة (١).

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٤٩)، وابن ماجه (٤٣٣٦)، كما أخرج الطبري في تفسيره (٢١/٤٥٧ - ٤٥٨)، وعبد الله بن أحمد في السنة (١/٢٥٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه =

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَيُكَلِّمُهُمْ وَيُكَلِّمُونَهُ)، يسلم عليهم، ويردون عليه السلام، ويكلمهم ويكلمونه، ولهذا جاء في الحديث: «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ»^(١).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿[القيامة: ٢٢-٢٣]﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿، الأولى من النصرة وهي الحسن والبهاء، بالضاد ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ بالطاء؛ تنظر إلى ربها عياناً؛ إكراماً لها.

= (١/٤٧٧)، والدارمي في الرد على الجهمية (١/٩٠، ٩١، ١١٤): عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَانِي جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِي كَفِّهِ مِرْأَةٌ بَيَضَاءُ، فِيهَا نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فَقُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ مَا هَذِهِ؟ قَالَ: هَذِهِ الْجُمُعَةُ، قُلْتُ: فَمَا هَذِهِ النُّكْتَةُ السَّوْدَاءُ فِيهَا؟ قَالَ: هِيَ السَّاعَةُ تَقُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَهُوَ سَيِّدُ الْأَيَّامِ عِنْدَنَا، وَنَحْنُ نَدْعُوهُ فِي الْآخِرَةِ يَوْمَ الْمَزِيدِ؛ قُلْتُ: وَلِمَ نَدْعُوهُ يَوْمَ الْمَزِيدِ قَالَ: إِنَّ رَبَّكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اتَّخَذَ فِي الْجَنَّةِ وَادِيًا أَفْتَحَ مِنْ مِسْكِ أَبِيضٍ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ نَزَلَ مِنْ عَلَيْنَ عَلَى كُرْسِيِّهِ، ثُمَّ حَفَّ الْكُرْسِيُّ بِمَتَابِرٍ مِنْ نُورٍ، ثُمَّ جَاءَ النَّبِيُّونَ حَتَّى يَجْلِسُوا عَلَيْهَا ثُمَّ تَحِيَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا عَلَى الْكُتُبِ فَيَتَجَلَّى لَهُمْ رَبُّهُمْ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَنْظُرُوا إِلَى وَجْهِهِ وَهُوَ يَقُولُ: (أَنَا الَّذِي صَدَقْتُمْ عِدَّتِي، وَآتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، فَهَذَا مَحَلُّ كَرَامَتِي، فَسَلُونِي)، فَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَا، فَيَقُولُ: (رِضَايَ أَحَلَّكُمْ دَارِي وَأَنَا لَكُمْ كَرَامَتِي، سَلُونِي)، فَيَسْأَلُونَهُ حَتَّى تَنْتَهِيَ رَغْبَتُهُمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرٌ عَلَى قَلْبٍ بِشَرٍّ، إِلَى مِقْدَارِ مَنْصَرَفِ النَّاسِ مِنَ الْجُمُعَةِ حَتَّى يَصْعَدَ عَلَى كُرْسِيِّهِ فَيَصْعَدُ مَعَهُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ، وَتَرْجِعُ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى غُرْفِهِمْ دُرَّةً بَيَضَاءَ، لَا نَظَمَ فِيهَا وَلَا فَصَمٌ، أَوْ يَأْقُوتهُ خُمْرَاءُ، أَوْ زَبَرَجَدَةٌ خَضِرَاءُ، مِنْهَا غُرْفُهَا وَأَبْوَابُهَا، فَلْيَسُوا إِلَى شَيْءٍ أَحْوَجَ مِنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ، لِيَزِدَادُوا مِنْهُ كَرَامَةً، وَلِيَزِدَادُوا نَظَرًا إِلَى وَجْهِهِ، وَلِلَّذَلِكَ دُعِيَ يَوْمَ الْمَزِيدِ».

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٩، ٧٤٤٣، ٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦)، من حديث عدي بن

والمعطلة يقولون: ﴿إِلَى رَبِّهَا﴾: ﴿إِلَى﴾: مفرد، جمعه (آلاء)، ومعنى إلى: نعمة، لأن الآلاء هي النعم، فيريدون ما ورد في قوله تعالى: ﴿فِي آيِ آءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] بينما (إلى) حرف جر، ليست مفردا جمعه (آلاء)، (إلى) حرف جر معروف، لكن الذي حملهم على هذا هو -والعياذ بالله- التعصب للمذهب، وهذا تحريف لكلام الله عزَّ وجلَّ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوُونَ﴾ [المطففين: ١٥])، فإذا كان يحجب الكفار عن رؤيته يوم القيامة، فهذا دليل على أن المؤمنين يرونه، وإنما يُحجب عن الرؤية الكفار فقط؛ إهانة لهم؛ لأنهم كفروا به في الدنيا، فكان جزاؤهم أن يحجبوا عن رؤيته يوم القيامة، والذين آمنوا به في الدنيا يكرمون برؤيته وتقر عيونهم برؤيته سبحانه؛ جزاء لهم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَلَمَّا حَجَبَ أُولَئِكَ فِي حَالِ السُّخْطِ) هذا وجه الاستدلال.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ فِي حَالِ الرِّضَا، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ)، ولهذا يقول الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (إذا كان حجب أعداءه عن رؤيته، فهذا دليل على أن أوليائه يرونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(١))، وإلا لم يكن هناك فرق بين المؤمنين والكافرين فيكونون كلهم محجوبين.

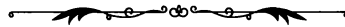
(١) قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَمَّا حَجَبَ قَوْمًا بِالسُّخْطِ، دَلَّ عَلَى أَنَّ قَوْمًا يَرَوْنَهُ بِالرِّضَا). انظر: تفسير الثعلبي (١٥٤/١٠)، والتفسير البسيط (٣٢٧/٢٣)، وتفسير القرطبي (٢٦١/١٩)، والبحر المحيط في التفسير (٤٢٩/١٠).

قال رحمه الله: (وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ» حَدِيثٌ صَحِيحٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)، أو «لَا تَضَامُونَ»؛ يعني: ما تجتمعون في مكان واحد ويحصل زحام؛ مثل ما يحصل عندما يريد الناس أن يروا شيئاً واحداً، يتزاحمون يريدون رؤيته، والله جَلَّ وَعَلَا أبين من كل شيء، لا يحتاج الناس للتزاحم، كي يرونه سبحانه إنهم يروونه من غير مزاحمة، كل في مكانه ومنزله.

قال رحمه الله: (وَهَذَا تَشْبِيهُ لِلرُّؤْيَةِ بِالرُّؤْيَةِ لَا لِلْمَرِئِيِّ بِالْمَرِئِيِّ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ لَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ)؛ أي تشبيه لرؤية الله برؤية الشمس والقمر، وليس تشبيهها للمرئي بالمرئي.

ولهذا قال: (إنكم سترون ربكم كما ترون) تشبيه للرؤية بالرؤية والأشاعرة أرادوا أن يخرجوا من مذهب المعتزلة؛ لأنهم لا حيلة لهم بنفي الرؤية، وهي ثابتة، فأرادوا أن يخرجوا من مذهب المعتزلة، ولكن أدركتهم الشقاوة، وقالوا: (الله جَلَّ وَعَلَا يُرى، لكن لا في جهة)؛ لأنهم ينفون علو الله سُبحانه وتعالى.

ونقول: هذا كلام باطل، بل الله جَلَّ وَعَلَا يُرى، وهو في جهة العلو سُبحانه وتعالى.



فَصْلٌ

وَمِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ، لَا يَكُونُ شَيْءٌ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ، وَلَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ مَشِئَتِهِ، وَلَيْسَ فِي الْعَالَمِ شَيْءٌ يُخْرَجُ عَنْ تَقْدِيرِهِ، وَلَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ تَدْبِيرِهِ، وَلَا يَحِيدُ عَنِ الْقَدَرِ الْمَقْدُورِ، وَلَا يَتَجَاوَزُ مَا خُطَّ فِي اللَّوْحِ الْمَسْطُورِ، أَرَادَ مَا الْعَالَمُ فَاعِلُهُ، وَلَوْ عَصَمَهُمْ، لَمَا خَالَفُوهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُطِيعُوهُ جَمِيعًا، لَا طَاعُوهُ، خَلَقَ الْخَلْقَ وَأَفْعَالَهُمْ، وَقَدَّرَ أَرْزَاقَهُمْ وَأَجَالَهُمْ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ، وَيَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

الشرح

قال رحمه الله: (فَصْلٌ: وَمِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ، لَا يَكُونُ شَيْءٌ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ)، هذا دخول في صفة ثانية من صفات الله، وهي القضاء والقدر، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَاضٍ وَقَدَرُ كُلِّ مَا يَقَعُ فِي هَذَا الْكَوْنِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ، لَا يَكُونُ فِي مَلَكِهِ مَا لَا يَرِيدُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كُلُّ شَيْءٍ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَإِرَادَتِهِ وَمَشِئَتِهِ، وَخَلَقَهُ وَإِيجَادَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِيمَانَ بِالْقَضَاءِ

والقدر هو أحد أركان الإيمان الستة؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(١).

قوله: «وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» هذا دليل على أن الإيمان بالقضاء والقدر من أركان الإيمان الستة ومن أصول الإيمان، فمن جحدته، جحد ركنا من أركان الإيمان وأصلاً من أصول الإيمان.

والإيمان بالقضاء والقدر يتضمن أربع مراتب:

المرتبة الأولى: أن الله علم ما كان وما يكون في علمه الأزلي، الذي هو موصوف به أزلاً وأبداً.

المرتبة الثانية: ثم كتب ذلك في اللوح المحفوظ، الذي كتب فيه كل ما يكون إلى أن تقوم الساعة.

الأمر الثالث: أنه لا يكون في هذا الكون من إيجاد شيء أو هلاك شيء، أو موت أو حياة، وجود أو عدم، إلا بمشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَإِرَادَتِهِ، فإذا أراد شيئاً كما قال الله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فلا يكون في هذا الكون من حياة أو موت، أو خير أو شر، أو مرض أو صحة، أو خصب أو جدد، أو غير ذلك، إلا بمشيئة الله وإرادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يكون في ملكه ما لا يريد.

الأمر الرابع: أنه إذا أراد شيئاً وشاءه، خلقه وأوجده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يكون في هذا الكون إلا ما خلقه الله وأوجده الله؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ

(١) سبق تخريجه (ص ١١).

خَلَقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿[الزمر: ٦٢]﴾، فهو المنفرد بالخلق والإيجاد، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، فأعمال العباد من جملة الأشياء التي يخلقها الله جَلَّ وَعَلَا، علمها وكتبها، وشاءها وأرادها، وخلقها وأوجدتها في مواقيتها التي شاءها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهي أفعال العباد، فعلوها بإرادتهم ومشيتهم وقدرتهم وهي خلق الله جَلَّ وَعَلَا وإيجاده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا هو ملخص الإيمان بالقضاء والقدر، وأنه لا بد من هذه الأربع المراتب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٤]، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمَا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، قال سبحانه في سورة البروج: ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، فإذا أراد شيئاً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فعله وأوجده، لا يمتنع عليه شيء؛ لأنه ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾، أما المخلوق، فقد يريد شيئاً، لكن لا يستطيع أن يفعله، أما الله جَلَّ وَعَلَا، فإنه ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾، وهذا عام في كل ما في هذا الكون؛ أنه بإرادة الله، وأنه فعل الله جَلَّ وَعَلَا؛ ﴿اللَّهُ خَلَقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ مَشِيئَتِهِ، وَلَيْسَ فِي الْعَالَمِ شَيْءٌ يَخْرُجُ عَنْ تَقْدِيرِهِ، وَلَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ تَدْبِيرِهِ، وَلَا مَحِيدٌ عَنِ الْقَدْرِ الْمَقْدُورِ، وَلَا يَتَجَاوَزُ مَا خُطِّ فِي اللَّوْحِ الْمَسْطُورِ)، كل مخلوق فإنه لا بد أن يقع ما قدره الله عليه من خير أو شر، من صلاح أو فساد، من كفر وإيمان، من طاعة ومعصية، هذا في الأفعال، وكذلك الأقدار التي تجري عليهم بغير اختيارهم؛ مثل:

المرض والصحة، والغنى والفقر، هذه بغير مشيئتهم وغير إرادتهم، وإنما هي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. أما أفعالهم، فإنها بمشيئتهم وإرادتهم؛ هم يفعلونها، وهم يتركونها، وهم يحبونها، وهم يبغضونها، وهم يريدونها، فهي بإرادتهم ومشيئتهم وأفعالهم واختيارهم، ولا يمنع أن يكون هذا خلق الله جَلَّ وَعَلَا؛ الله خلقهم، وخلق قدرتهم، وخلق مشيئتهم، وخلق إرادتهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (أَرَادَ مَا الْعَالَمُ فَاعِلُوهُ)، أراد الله جَلَّ وَعَلَا ما العالم فاعلوه، لا يخرج شيء عن إرادته سبحانه، هذا في الإرادة الكونية العامة لكل شيء؛ الخير والشر، والكفر والإيمان، والطاعة والمعصية، أما الإرادة الشرعية، فإنها إنما تختص بالطاعات فقط، ولهذا يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

فالإرادة نوعان:

* إرادة كونية: وهذه يدخل فيها كل شيء؛ الخير والشر، والطاعة والمعصية، والكفر والإيمان، كل ذلك أراد الله كونًا.

* وأما النوع الثاني، وهي الإرادة الدينية الشرعية: فهذه إنما تكون للطاعات والأعمال الصالحة، وقد تقع وقد لا تقع؛ فالله أراد شرعًا من الكافر أن يسلم، ولكنه لم يسلم، ما وقع ما أراد الله منه دينًا، والله أراد الإيمان من جميع الناس، لكن المؤمن أطاع، والكافر عصى.

فالإرادة الكونية لا بد من وقوعها، وأما الإرادة الدينية، فقد تقع، وقد لا تقع؛ حسب مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورحمته.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَلَوْ عَصَمَهُمْ، لَمَا خَالَفُوهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُطِيعُوهُ جَمِيعًا، لَأَطَاعُوهُ)، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣]، فلو شاء الله أن يؤمن جميع العالم، لآمن جميع العالم، ولكنه لحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل هذا راجعًا إلى اختيار الناس؛ فالؤمن يؤمن بإرادته ومشيتته، والكافر يكفر بمشيتته وإرادته واختياره، ومن أجل أن يحصل بسبب هذا الجهاد في سبيل الله، وتظهر أسماء الله وصفاته؛ من الإنعام، والانتقام، والرحمة، والغضب، لو كان الناس كلهم صالحين، لن يوجد أحد من أهل النار، ولو صار الناس كلهم كفارًا، لن يوجد أحد من أهل الجنة، فمن حكمته جَلَّ وَعَلَا أنه قدر الإيمان والكفر، وأمر الناس ونهاهم؛ اختبارًا وابتلاءً، فمن أطاع، صار من أهل الجنة، ومن عصى، صار من أهل النار؛ لأفعاله واختياره هو لنفسه.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (خَلَقَ الْخَلْقَ وَأَفْعَالَهُمْ)، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦]، ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢].

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَقَدَّرَ أَرْزَاقَهُمْ وَأَجَالَهُمْ)؛ قدر أرزاقهم وأجلهم، ومرضهم وشفاءهم، وموتهم وحياتهم، وهذا ليس لهم فيه تصرف، إنما هذا يجري عليهم من غير إرادتهم ولو كانوا يكرهون هذا الشيء، ولا يريدونه، يجري عليهم المرض والموت، ويجري عليهم المكاره والمسرّات، هذه تجري عليهم بقضاء الله وقدره.

قال رحمه الله: (يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ)؛ يهدي من يشاء، ويضل من يشاء لحكمة، فهو لا يهدي إلا من يستحق الهداية ويعلم بمن يصلح للهداية، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٧]، ويضل من يشاء بحكمته سبحانه وتعالى وعدله، وهو أعلم بمن لا يصلح للهداية؛ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

حرص النبي صلى الله عليه وسلم على هداية عمه أبي طالب، ولما مات، قال: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ»^(١)، فنهاه الله عن الاستغفار: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، فهو أعلم سبحانه بمن يستحق الهداية ويصلح لها، فيوفقه لها، ويعلم من لا يستحق الهداية، فيحرمه منها؛ عقوبة له، وهو أعلم سبحانه وتعالى، فالهداية بيد الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٣٦٠، ٣٨٨٤، ٤٦٧٥، ٤٧٧٢)، ومسلم (٢٤):

عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ، «أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: «أَيُّ عَمٍّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغُبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ، حَتَّىٰ قَالَ آخِرُ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَىٰ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ» فَتَرَلَّتْ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]. وَتَرَلَّتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿يونس: ٩٩﴾ ما على الرسول إلا البلاغ، أما الهداية فهي بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الرسول يهدي بمعنى أنه يبلغ ويرشد: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ يعني: تدل وترشد، وأما الهداية التي هي هداية القلوب وهداية القبول، فهذه بيد الله جَلَّ وَعَلَا، ليست بيد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو حرص الرسول، ما حصلت الهداية إلا لمن شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣])، هذا في حق الله جَلَّ وَعَلَا لا يسأل عما يفعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه يفعل ما يشاء لحكمة، لا يفعل شيئاً إلا لحكمة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والحكمة وضع الأمور في مواضعها، فوضع الهداية فيمن يصلح لها، ووضع الغواية فيمن يصلح لها، ويوفق للجنة من يصلح لها، ويوفق للنار من يصلح لها؛ فهو أعلم بخلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا مما يوجب على المسلم أن يلجأ إلى الله، وأن يدعو الله بالهداية والتوفيق، وألَّا يُعْجِبَ بِنَفْسِهِ وَبِعَمَلِهِ، بل يفوض الأمر إلى الله جَلَّ وَعَلَا، ويخشى من الله جَلَّ وَعَلَا، يخشى أن يضلّه الله جَلَّ وَعَلَا وأن يزيغ قلبه، ولهذا كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر من الدعاء يقول: «اللَّهُمَّ، يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فَتَقُولُ لَهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي ذَلِكَ، فَيَقُولُ لها: «يَا عَائِشَةُ وَمَا يُؤْمِنُنِي وَقُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ؟ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُقَلِّبَ قَلْبَ عَبْدٍ قَلْبَهُ»^(١)، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ ءَايَةٌ

(١) روى هذا الحديث عن عدد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ منهم: أنس، وعائشة، وأم سلمة، وجابر، والنواس بن سمعان، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. أخرجه الترمذي (٢١٤٠) وحسنه، وابن ماجه =

لَيُؤْمِنَنَّ بِهَا ﴿ ليس الإيمان بأيديكم، ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ وَقُلُوبُ أَفْعَدَتْهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١٠]، فالإيمان بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩])، هذا إثبات القدر، وأن المخلوقات كلها بقضاء الله وقدره ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ ﴾؛ لا يخرج عن هذا شيء ﴿ خَلَقْتُهُ ﴾، لا يخرج شيء عن خلق الله جَلَّ وَعَلَا ﴿ بِقَدَرٍ ﴾؛ أن كل شيء مقدر، فهذه الآية عامة شاملة حاسمة في هذا الموضوع.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢])، هذا فيه أن كل شيء من خلق الله، وأنه قدره تقديرًا، ليس بشيء مستأنف، أو شيئًا أنف، إنما هو بقضاء الله وقدره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ [الحديد: ٢٢])، هذا إخبار من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه ما ينزل من مصيبة بالعباد في أنفسهم - من الأمراض، والموت، وسائر الآفات البدنية، التي تصيب الناس -، أو في الأرض - ما يصيب الأرض من القحط، وانحباس الأمطار، والجوائح في الثمار، والأمراض التي تكون في الأشجار، وتُنقص المحاصيل، وتعرض للحبوب

= (١٩٩)، وأحمد (٩١ / ٦)، وابن حبان (٢٢٣ / ٣)، وابن أبي عاصم (ح ٢٢٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٩١٩٦)، (٢٩١٩٧)، (٢٩١٩٩)، والطبراني في الكبير (٧٥٩)، والأوسط (١٤٧ / ٢)، والحاكم في المستدرک (٧٠٦ / ١)، (٣٥٧ / ٤)، والبيهقي في الكبرى (٤ / ٤١٤)، وأخرجه البخاري (٧٣٩١) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: (أَكْثَرُ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْلِفُ: «لَا وَمُقَلَّبِ الْقُلُوبِ»).

والثمار بالإصابة-، وكذلك ما يصيب البحار من الحوادث، التي تذهب فيها الأموال الطائلة، أن كل هذه المصائب الأرضية والمصائب البدنية كلها بقضاء الله وقدره، لا يحدث منها شيء إلا وقد قضاه الله وقدره على عباده لحكمة منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهي بسبب أفعال العباد المخالفة لشرع الله وطاعته؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

ثم أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن هذه المصائب مكتوبة في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، فهذا فيه دليل على درجة الكتابة؛ كتابة المقادير في اللوح المحفوظ ﴿مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]؛ أي: أنها مكتوبة قبل أن تنزل، وقبل أن تحدث، مكتوبة في اللوح المحفوظ، ليست اعتباطاً وإنما هي شيء ثابت مقدر، علمه الله، وكتبه في اللوح المحفوظ.

فدلت هذه الآية على إثبات مرتبتين من مراتب القضاء والقدر:

المرتبة الأولى: مرتبة الكتابة في اللوح المحفوظ.

والمرتبة الثانية: مرتبة الخلق والإيجاد.

ودلت الآية على أن كل شيء يحدث، فإنه من خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الله خالق كل شيء من الخير والشر، والمحوبات والمكارة، لا يحدث شيء إلا والله خالقه ومدبره وموجده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥])،

وهذه الآية فيها إثبات الإرادة الكونية، فمن أراد الله هدايته وقبوله للحق، فإنه يجعل فيه أهلية لذلك بأن يشرح صدره للإسلام؛ يعني: يوسع صدره، فيقبل الحق، ويطمئن إليه، ويرتاح له، فالله جعل فيه قابلية لذلك، وجعل فيه أهلية لذلك؛ لعلمه سبحانه أنه يصلح لذلك؛ أنه يصلح للهداية، وأنه يقبل الهداية، فيجعل الله في نفسه القابلية والإقبال والرغبة في الخير، وينشرح صدره للإسلام.

ومن يرد قضاء وقدرًا أن يضلّه بعدله سبحانه؛ لعلمه أنه لا يصلح للهداية، فإنه لا يجعل فيه قابلية للهداية، يجعل صدره ضيقًا، بدل أن يشرح صدره، ويوسعه، يجعله ضيقًا، لا يقبل شيئًا ﴿يَجْعَلْ صَدْرُهُ ضَيْقًا حَرَجًا﴾ وفي قراءة: «صَدْرُهُ ضَيْقًا حَرَجًا»^(١)؛ يعني: أنه لا يقبل الحق، ولا يطمئن إلى الحق، بل يضيق صدره، إذا سمع الحق، ضاق صدره، وانقبض، وأعرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]، فهذا الصنف من الناس يفرح بالباطل، وينقبض عن الحق؛ لأن الله لم يجعل فيه قابلية لذلك؛ لعلمه جلّ وعلا أنه لا يصلح للهداية.

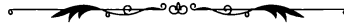
والله جلّ وعلا حكيم يضع الأمور في مواضعها، فيضع الهداية في من يستحقها، ويقبلها، ويرتاح لها، ويجعل الضلال في من لا يقبل الحق، ولا يرتاح له. وهذا ظاهر في الناس، من الناس من ينقبض إذا سمع الحق،

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٥٤٤ - ٥٤٧)، والحجة في القراءات السبع (١/ ١٤٩)، ومعاني القراءات للأزهري (١/ ٣٨٤)، والمبسوط في القراءات العشر (١/ ٢٠٢).

وسمع القرآن، وسمع الذكر، وسمع المواعظ، ينقبض، ويضيق صدره، ومن الناس من يرغب في الخير، ويرغب في سماع الخير، فدل على أن للهداية والضلال أسباباً من قبل العبد، فالذي يقبل على الحق، ويرغب فيه، يوفقه الله جَلَّ وَعَلَا للحق، والذي يبغض الحق وأهل الحق يجرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الله حكيم، لا يضع الهداية في من ليس أهلاً لها، ولا يضع الضلال في من ليس أهلاً له، بل هو يضع الأمور في مواضعها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وذلك حسب إرادته الكونية.

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، يستحيل عليه الإيمان؛ كما يستحيل عليه الصعود إلى السماء؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يصعد إلى السماء بنفسه، وإنما يطير بواسطة الآلات، أما هو بنفسه، فمستحيل أن يطير إلى السماء؛ لأن الله لم يخلقه طائراً، وإنما خلقه دابة، تدب على وجه الأرض، فيستحيل عليه الإيمان وقبول الحق؛ كما يستحيل عليه الطيران إلى الجو.

﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ﴾، انظر بيان الحكمة ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، هذا بسبب عدم إيمانهم.



وَرَوَى ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا الْإِيَانُ؟» قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَبِالنَّصَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، فَقَالَ جَبْرِيلُ: صَدَقْتَ. أَنْفَرَدَ مُسْلِمٌ بِإِخْرَاجِهِ^(١).

الشرح

لما ذكر الأدلة من القرآن على القضاء والقدر، ذكر الأدلة من السنة، فذكر حديث جبريل عليه السلام، وهو حديث ابن عمر عن أبيه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لما جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صورة رجل، شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه أحد من الحاضرين، هذا الرجل فيه غرابة عظيمة؛ ليس هو من أهل البلد؛ لأنهم لا يعرفونه، ولا من أهل السفر؛ لأنه ليست عليه علامات السفر؛ حتى يقولوا: (هذا غريب)، ولذلك استغرب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وجلس إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وكان جبريل عليه السلام في الغالب يأتي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصورة رجل^(٢)؛ لأن الملائكة لا تأتي إلى بني آدم بالصورة الملكية؛ لأنهم لا يطيقون

(١) رواه مسلم في أول كتاب الإيمان [ح ١(٨)].

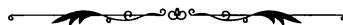
(٢) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد في مسنده (٩/٤١)، (٦٣/٤٢)، والآجري في الشريعة (٣/١٤٦٧)، (٥/٢٤٠٨)، والطبراني في الأوسط (٨/٣٤٣)، والكبير (٢٣/٣٤-٣٦)، والحاكم في المستدرک (٣/٣٧)، (٨/٢١٤)، وأبو نعيم في الحلية (٢/٤٦): عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَعْرِفَةِ فَرَسٍ، وَهُوَ يُكَلِّمُ رَجُلًا، قُلْتُ: رَأَيْتُكَ وَاضِعًا يَدَيْكَ عَلَى مَعْرِفَةِ فَرَسٍ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ، وَأَنْتَ تُكَلِّمُهُ، قَالَ: «وَرَأَيْتِ؟» قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: «ذَاكَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ يُقَرِّئُكَ السَّلَامَ» قَالَتْ: وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

رؤيتهم، وإنما تأتي بصورة رجال؛ حيث أعطاهم الله القدرة على التصور بصور الرجال، فجاءه على صورة رجل، جلس بين يديه، سألته عن الإسلام، فقال: «الإسلام أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ: صَدَقْتَ».

هذه عجيبة ثانية، كيف يسأل، ويقول: «صَدَقْتَ»؟! العادة أن السائل جاهل، وهذا يقول للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَدَقْتَ»، فدل على أنه عالم بذلك، «قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قَالَ: صَدَقْتَ».

سأله أولاً عن الإسلام، وهو الأعمال الظاهرة، ثم سأله عن الإيمان، وهو الأعمال الباطنة، ولا بد من الأمرين، لا بد من الإسلام والإيمان؛ فالدين أعمال ظاهرة وأعمال باطنة، لا بد منهما، لا يكفي إسلام بدون إيمان، ولا يكفي إيمان بدون إسلام، بل لا بد منهما معاً.

الشاهد من الحديث قوله: «وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، فجعل الإيمان بالقدر من أركان الإيمان الستة، فدل على أن من لم يؤمن بالقدر، لم يصح إيمانه؛ لأنه نقص ركنًا من أركان الإيمان، هذا هو الشاهد من الحديث.



وقال النبي ﷺ: «أَمَنْتُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَحُلُوهِ وَمُرِّهِ»^(١).

الشرح

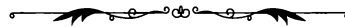
هذا الحديث ذكره المصنف، ونسبه للنبي ﷺ: «أَمَنْتُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَحُلُوهِ وَمُرِّهِ»، المعنى صحيح؛ أن الإيمان بالقدر أمر لا بد منه خيره وشره، الخير: كل الأمور المحبوبة والمرغوبة والمفيدة، والشر: كل الأمور الضارة والأمور المكروهة. الطاعات خير، والمعاصي شر، وكلها بقضاء الله وقدره حلوه ومره.

القدر فيه حلو، وهو ما يلائم النفوس من الملذات والمسرات، وفيه مر، وهو ما لا يلائم النفوس من المصائب والآلام والهموم والأحزان، هذا مر، ولكنه قضاء وقدر، لا بد منه، لا بد من الإيمان به، أما الذي لا يؤمن إلا بحلو القضاء، فهذا يتبع هواه، ويتبع شهوته، لكن الذي يؤمن بحلوه ومره جميعاً هو المؤمن الصحيح، أما الذي لا يؤمن إلا بما يلائم نفسه، فهذا

(١) أخرجه هذا اللفظ ابن عساكر في تاريخ دمشق [ح ١٣٤ (٥/ ٢٥٠)] من طريق الطحاوي عن سليمان بن شعيب، عن سعيد الآدم، عن شهاب بن خراش الحوشي، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «قال رسول الله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَحُلُوهِ وَمُرِّهِ»، وقبض رسول الله ﷺ بيده على لحيته، وقال: «أَمَنْتُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَحُلُوهِ وَمُرِّهِ» وقبض أنس بيده على لحيته...»، ورواه الحاكم في معرفة علوم الحديث في النوع الخامس من المسلسل (٣١/ ١)، من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويزيد هذا هو ابن أبان البصري القاص الزاهد، تركه النسائي وأبو أحمد الحاكم، وقال فيه ابن معين: ضعيف. وقال الحافظ في التزيين: زاهد ضعيف. انظر: تهذيب التهذيب (٣٠٩/ ١١).

ليس بمؤمن بالقضاء، وإنما يؤمن بما يتلذذ به فقط. لكن الميزة لمن يؤمن بمُرّ القضاء والقدر؛ أنه يصبر على المصائب، ويعلم أنها بقضاء الله وقدره: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، أولئك هم الصابرون، ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٥) ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦]، يعلمون أن المصيبة من عند الله، وأنه لا بد منها، وأنها ما وقعت إلا وهي مقدرة، لا بد من وقوعها، فيصبرون، ولا يجزعون، ولا يتسخطون، ويحاسبون أنفسهم؛ ربما تكون هذه المصيبة عقوبة على ذنب، على خطيئة، على مخالفة، فيحاسبون أنفسهم، ويتوبون إلى الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، فبدل أن يجزع ويتسخط يصبر ويتوب إلى الله جَلَّ وَعَلَا، ويعلم أنه ما أصابه شيء، إلا بسبب ذنوبه، ويتوب إلى الله عَزَّجَلَّ، فيكون ذلك خيرًا له، تكون هذه المصيبة في النهاية خيرًا له وعاقبة حسنة له، فتكون في مصلحته.

أما الذي يجزع، ويتسخط، فإنه لا يسلم من المصيبة، ولا يؤجر عليها، بل يَأْثَمُ بتسخطه وجزعه، فلا هو الذي سلم من المصيبة، ولا هو حصل على الأجر -نسأل الله العافية!



وَمِنْ دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي عَلَّمَهُ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَدْعُو بِهِ فِي قُنُوتِ الْوُتْرِ: «وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ»^(١).

الشرح

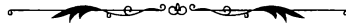
علم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحسن بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ابن بنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، علمه دعاء يدعو به في قنوته - يعني: القنوت الذي في الوتر بعد الركوع -، يقول: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ».

الشاهد فيه قوله: «وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ»؛ حيث أضاف الشر إلى القضاء والقدر، والشر: هو المكروه الذي يصيب الإنسان، أو ما يقع على الإنسان من المكاره؛ أنه مقضي ومقدر، أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبطه الحسن بن علي

(١) حديث الحسن بن علي في قنوت الوتر أخرجه أبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، والنسائي (١٤٤٦)، وابن ماجه (١١٧٨)، وأحمد (٢٤٥/٣)، والدارمي (١٦٣٤)، وأخرجه ابن حبان (ح ٩٤٥) - الإحسان، والحاكم (١٧٢/٣)، وقال الترمذي: «حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه، من حديث أبي الحوراء السعدي، ولا نعرف عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القنوت في الوتر شيئاً أحسن من هذا». اهـ. عَنْ أَبِي الْحَوْرَاءِ، قَالَ: قَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي الْوُتْرِ، - قَالَ ابْنُ جَوَاسٍ: فِي قُنُوتِ الْوُتْرِ: - اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ».

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنْ يَدْعُوَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا أَنْ يَقِيَهُ شَرَّ مَا قَضَى، وَأَنْ يَجْعَلَ قَضَاءَهُ خَيْرًا لَهُ، وَلَا يَكُونُ مِنَ الَّذِينَ يَصِيبُهُمُ الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ، فَيَجْزَعُونَ، وَيَتَسَخَطُونَ؛ فَيَحْصِلُونَ عَلَى الْإِثْمِ، فَهُوَ دَعَا اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا بِأَنْ يَقِيَهُ شَرَّ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ؛ بِأَنْ يَعِينَهُ عَلَى الصَّبْرِ وَالتَّحْمَلِ، وَالرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُ نَهَايَةً وَمَآلًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَقْضِي وَيَقْدِرُ عَلَى الْمُؤْمِنِ إِلَّا مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ، شَكَرَ عَلَيْهَا، فَكَانَ ذَلِكَ خَيْرًا، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ عَلَيْهَا، وَكَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ^(١).

الشاهد من الحديث: «وَقَنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ»، دل على أن الشر داخل في القضاء والقدر، ودل على أنه يستحب ويشرع للإنسان أن يدعو الله بأن يقيه شر القضاء والقدر، وألا يجعله سببًا لإضلاله وجزعه وتسخطه وتكرهه لقضاء الله وقدره، فلا يجعله سببًا لشقاوته، وليجعله سببًا لسعادته.



(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٩٩٩): عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

وَلَا نَجْعَلْ قَضَاءَ اللَّهِ وَقْدَرَهُ حُجَّةً لَنَا فِي تَرْكِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، بَلْ
يَحِبُّ أَنْ نُؤْمِنَ وَنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْنَا الْحُجَّةَ بِإِنْزَالِ الْكُتُبِ، وَبِعَثَّةِ الرُّسُلِ، قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى: ﴿لَئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

الشرح

هذه مسألة عظيمة تتعلق بالقضاء والقدر.
يقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا نَجْعَلْ قَضَاءَ اللَّهِ وَقْدَرَهُ حُجَّةً لَنَا فِي تَرْكِ
أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ)، فإذا وقع من الإنسان معصية، أو حصلت منه
خطيئة، فإنه لا يتوب إلى الله، ولا يعترف بذنبه، وإنما يقول: (هذا قضاء
وقدر)، هذا لا يجوز، الواجب على المؤمن إذا وقع منه مخالفة أن يتوب إلى
الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالقضاء والقدر لا يُحتج به على فعل المعاصي، وإنما يحتج به على
المصائب، التي لا اختيار للإنسان فيها، فينسبها إلى القضاء والقدر؛ حتى
يصبر عليها. لكن المعاصي له فيها اختيار، وله فيها قدرة ومشية وفعل، فهي
فعله، وهي كسبه، وهي باختياره، فيلوم نفسه، ويحمل الذنب على نفسه،
ويتوب إلى الله سبحانه.

الأبوان آدم وحواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا
وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَلَقَّيْ
ءَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، فالأبوان

لم يقولوا: (يا ربنا، هذا قضاؤك وقدرك)، بل قالوا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾
-اعترفا- ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وكذلك الأنبياء، كل من حصلت منه بعض المخالفات رجع إلى الله،
وتاب إلى الله، واستغفر ربه عَزَّجَلَّ، فتاب الله عليه، وغيره من باب أولى.

فالمسلم لا ينسب ذنوبه ومعاصيه إلى القضاء والقدر، وإن كانت بقضاء
الله وقدره، لكن هو له فيها فعل، وله فيها اختيار، وله إقدام، لو شاء، تركها؛
لأنه لم يُجبر عليها، ولم يكره عليها، فهو يحمل نفسه الخطأ، ويتوب إلى الله،
ويستغفره، ويغفر الله لمن تاب، ويعفو عنه.

هذا هو موقف المسلم من الذنوب والمعاصي؛ أن يحملها نفسه، وأن
يتوب إلى الله منها، وأن يستغفر الله منها، بدل أن يقول: (هذا قضاء وقدر)،
ويحتج بالقضاء والقدر على فعل المعصية، ويربر لنفسه ذلك، ولا يتوب إلى
الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (بَلْ يَجِبُ أَنْ نُؤْمِنَ وَنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْنَا الْحُجَّةَ بِإِنزَالِ الْكِتَابِ،
وَبِعَثَّةِ الرُّسُلِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَيْتَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾
[النساء: ١٦٥])، لما ذكر الله من ذكر من الرسل في قوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا
أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالْتَبِيتُ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ
زَبُورًا ۝١١٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ
عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۝١١٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لَيْتَلَّا
يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥]، ذكر الحكمة في

إرسال الرسل وإنزال الكتب، وهي قطع المَعذرة عن العباد؛ لئلا يحتجوا، ويقولوا: (يا ربنا، ما جاءنا من ينهانا، من يحذرنا من المعاصي، من يبين لنا ما هو الخير وما هو الشر، ما هو الهدى وما هو الضلال، ما عندنا علم).

أنزل الله الكتب، وأرسل الرسل؛ ليعين للعباد الطاعة من المعصية، والكفر من الإيمان، والخير من الشر؛ لأنه لا يعذبهم قبل أن يرسل إليهم، ويبين لهم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، هذه حجة الله على خلقه سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]، فالله أرسل الرسل لقطع الحجة عن العباد؛ لئلا يحتجوا يوم القيامة بأنهم ما جاءهم من يبين لهم، فلو كان الاحتجاج بالقضاء والقدر صحيحًا، لتعارض مع قوله: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، فدل على أنه لا حجة للناس على الله -لا في القضاء والقدر، ولا في غيره-، ما دام الله قد بين لهم، ووضح لهم، وأمرهم، ونهاهم، فلا حجة لهم في القضاء والقدر، وإنما يقع اللوم عليهم؛ لأنهم هم الذين فرطوا، فهم إنما يؤاخذون على أفعالهم وتصرفاتهم، وأما القضاء والقدر، فهو من شأن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

والإنسان يرى من نفسه القدرة والإمكانية، ويرى أنه قادر على أن يفعل أو لا يفعل، ويعرف الخير، ويعرف الشر، ويعرف الضار، ويعرف النافع، فهو الذي يقدم على هذه الأمور باختياره مع علمه بها، فحينئذ انقطعت حجته على الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مَا أَمَرَ وَنَهَى إِلَّا الْمُسْتَطِيعَ لِلْفِعْلِ وَالتَّرْكِ، وَأَنَّهُ لَمْ يُجْزِرْ أَحَدًا عَلَى مَعْصِيَةٍ، وَلَا اضْطَرَّهُ إِلَى تَرْكِ طَاعَةٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنْفِقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧]، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ لِلْعَبْدِ فِعْلًا وَكَسْبًا، يُجْزَى عَلَى حَسَنِهِ بِالثَّوَابِ، وَعَلَى سَيِّئِهِ بِالْعِقَابِ، وَهُوَ وَاقِعٌ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ.

الشَّرْحُ

قال رحمه الله: (وَنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مَا أَمَرَ وَنَهَى إِلَّا الْمُسْتَطِيعَ لِلْفِعْلِ وَالتَّرْكِ، وَأَنَّهُ لَمْ يُجْزِرْ أَحَدًا عَلَى مَعْصِيَةٍ، وَلَا اضْطَرَّهُ إِلَى تَرْكِ طَاعَةٍ)، وهذا -أيضاً- من الإيضاح والبيان، فنحن نعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يأمر ولا ينهى إلا من يقدر على الفعل والترك، هذا هو الذي يوجه إليه الأمر والنهي، وهو الذي عنده القدرة والاستطاعة، أما الصغير الذي لم يبلغ، والمجنون الذي لا يعقل، والمكره الذي ليس له اختيار، فهؤلاء مرفوع عنهم القلم^(١)، ولا يخاطبون بشيء؛ لأنهم غير قادرين، ولا مستطيعين، فالله رفع عنهم التكليف والمؤاخذه، إنما يكلف العاقل المستطيع المختار.

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٤٣٩٨)، والنسائي (٣٤٣٢)، وابن ماجه (٢٠٤١): عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبُرَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ أَوْ يُفِيقَ».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

[البقرة: ٢٨٦])؛ أي: طاقتها وقدرتها، وما خرج عن وسعها وطاقاتها، فإنها لا تؤاخذ عليه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنْفِقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦])، حسب

الاستطاعة، والذي لا يستطيعه غير مسؤول عنه، العاجز غير مسؤول، إذا ترك الشيء عجزاً عنه، فإنه غير مسؤول عن تركه، ولكن إذا تركه وهو يستطيع أن يفعله، هذا هو المؤاخذ.

(وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾

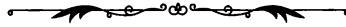
[غافر: ١٧])، ﴿الْيَوْمَ﴾: يعني يوم القيامة، ﴿تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، فأسند كسبها إليها، وعلق الجزاء به، فدل على أنها لا تؤاخذ بكسب غيرها ولا فعل غيرها، ولا ما فعلته وهي غير قاصدة له، أو جاهلة به، أو غير قادرة على تركه، لا تؤاخذ على ذلك، إنما تؤاخذ على ما كسبت بفعلها، واختيارها، وإرادتها، وإقدامها، ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾؛ لأنه لو آخذهم على غير كسبهم، لكان ظالماً لهم - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾، وهو أن يؤاخذ أو يعاقب بغير جريمة وبغير فعل، هذا ظلم، والله جَلَّ وَعَلَا لا يعاقب المؤمنين، ولا ينعم الكافرين، هذا ظلم؛ أي: وضع للشيء في غير موضعه، وإنما الثواب والعقاب والجنة والنار يتعلقان بالكفر والإيمان والطاعة والمعصية، فهي متعلقات بأفعال العباد، التي يفعلونها باختيارهم وإرادتهم ومشيتهم، هذا هو الذي يؤاخذون عليه، وهذا هو العدل.

أما أن يؤاخذ الإنسان على شيء لم يفعله، أو على شيء فعله بغير اختياره أو بغير علمه، أو فعله مخطئاً، فإن هذا هو الظلم الذي تنزه الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥]، فتح لهم باب التوبة وباب المغفرة، لم يقنطهم بل فتح لهم باب التوبة وباب الرجاء مع خطأهم وتعمدهم للمخالفة لم يقنطهم من رحمته بل فتح لهم باب الرجاء وباب التوبة والمغفرة ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ لمن تاب وآمن واستغفر ربه.

قال رحمه الله: (فَدَلَّ عَلَى أَنَّ لِلْعَبْدِ فِعْلاً وَكَسْبًا، يُجْزَى عَلَى حَسَنِهِ بِالثَّوَابِ، وَعَلَى سَيِّئِهِ بِالْعِقَابِ) لا شك أن هذه الآيات وهذه النصوص تدل على أن للعبد فعلاً يجزى على حسنه بالثواب وعلى سيئه بالعقاب، وهذا هو العدل أي: ووضع الشيء في موضعه اللائق به وهو معاقبة المسيء وإثابة المحسن هذا هو العدل، أما العكس فإنه ظلم، ووضع للشيء في غير موضعه ينزه الله جلَّ وعلا عنه ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿[القم: ٣٥-٣٦]، ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجنات: ٢١]، هذا سوء ظن بالله سبحانه وتعالى في أنه يظلم عباده فيعاقب المحسن ويثيب المسيء.

قال رحمه الله: (وَهُوَ وَاقِعٌ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ) فهي أفعالهم وحسناتهم وسيئاتهم، وهي واقعة بقضاء الله وقدره لا شك، لا يخرج عن قضاء الله

وقدره أي شيء داخل في قضاء الله وقدره، لكن ليس لنا حجة في أن نبرر أخطاءنا وجرائمنا بأنها بقضاء وقدر، هي بقضاء وقدر لكن أنت لك اختيار ولك مشيئة ولك قدرة، فأنت مسؤول عن ذلك ولا تسأل عن قضاء الله وقدره، والله لا يعاقب أحداً على القضاء والقدر وإنما يعاقبه على أفعاله هو وتصرفاته هو، ما يعاقبه على أنه قضى وقدر عليه إنه يعمل كذا وكذا، هذا لا يتعلق به ثواب ولا عقاب، القضاء والقدر، وإنما يتعلق الثواب والعقاب بأفعال العباد وتصرفات العباد التي صدرت عنهم باختيارهم وإرادتهم وعلمهم وتعمدهم.



فَصْلٌ

وَالْإِيمَانُ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالْأَرْكَانِ وَعَقْدٌ بِالْجَنَانِ، يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْعِصْيَانِ.

الشرح

قال رَحِمَهُ اللهُ: (فَصْلٌ: وَالْإِيمَانُ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالْأَرْكَانِ وَعَقْدٌ بِالْجَنَانِ، يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْعِصْيَانِ)، لما انتهى المصنف رَحِمَهُ اللهُ من مباحث القضاء والقدر، انتقل إلى تعريف الإيمان.

وَالْإِيمَانُ فِي اللُّغَةِ: التصديق على أمر غائب مخبر عنه، مع ائتمان المخبر، سمي التصديق بذلك إيماناً؛ لأنه ائتمان للمخبر؛ لأنه يخبر عن شيء لا نراه، فنحن نصدق، ونؤمن به؛ يعني: نأمنه على هذا الخبر، إذا توفرت فيه الثقة، هذا في اللغة^(١)؛ كأن يخبرك أحد ما أن في البلد الفلاني كذا وكذا، أنت لم تذهب إليه، ولا رأيته، لكن تصدق هذا المخبر، وتأمنه على هذا الخبر، هذا يسمى إيماناً في اللغة.

أما الْإِيمَانُ فِي الشَّرْعِ: فهو حقيقة شرعية؛ لأن الحقائق عند الأصوليين ثلاث: حقيقة شرعية، وحقيقة عرفية، وحقيقة لغوية^(٢).

(١) انظر: لسان العرب (٢١/١٣)، ومقاييس اللغة (١٣٣/١)، ومختار الصحاح (ص ١١)، والنهاية في غريب الحديث (٦٩/١). وانظر مبحث في معنى الإيمان في اللغة في: كتاب الإيمان الأوسط (ص ٧٧) لشيخ الإسلام ابن تيمية، والإيمان الكبير (ص ٢٧٥ وما بعدها).

(٢) انظر: الأنجم الزاهرات على حل ألفاظ الورقات (١١٢/١).

فتعريف الإيمان هنا هو من الحقيقة الشرعية، لا من الحقيقة اللغوية ولا العرفية؛ مثل: الصلاة في اللغة الدعاء، مجرد الدعاء صلاة في اللغة، لكن في الشرع هي أكثر من ذلك، هي الصلاة المعروفة المبتدأة بالتكبير المختمة بالتسليم، أقوال وأفعال مفتوحة بالتكبير مختمة بالتسليم^(١)، هذه هي الصلاة في الشرع. وكذلك الصيام، وكذلك الزكاة، وكذلك الحج، كلها حقائق شرعية، فالإيمان حقيقة شرعية.

فهو: قول باللسان - وهو النطق بالشهادتين، والذكر، والتسبيح والتهليل -، واعتقاد بالقلب - بأن يصدق قلبك ما ينطق به لسانك -، وعمل بالجوارح - يعني: بالأعضاء بأن تتحرك الأعضاء في العبادة والطاعة، وترك المعصية، والانكفاف عن المعاصي.

فليس الإيمان مجرد قول باللسان، وليس هو مجرد عقيدة بالقلب فقط، وليس هو مجرد عمل بدون عقيدة وبدون قول، بل لا بد من الأمور الثلاثة مرتباً بعضها ببعض^(٢).

(يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ): كلما فعل الإنسان طاعة، زاد إيمانه.

(وَيَنْقُصُ بِالْعِصْيَانِ): كلما حصل من الإنسان معصية، نقص إيمانه.

والدليل على النقصان والزيادة من القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ

(١) انظر: عمدة الأحكام للمقدسي (١/ ٥٣)، وكفاية النبيه (٢/ ٢٩٣)، والنجم الوهاج في شرح المنهاج (٧/ ٢)، والمبدع في شرح المقنع (١/ ٢٦٣).

(٢) انظر: لمعة الاعتقاد (ص ٢٣)، ومجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٥)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص ٨٤).

إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿ [الأنفال: ٢٠]، فدلّت الآية على أن الإيمان يزيد، إذا سمع الإنسان القرآن، زاد إيمانه، وإذا أبعد عن القرآن، نقص إيمانه؛ ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤]، كلما نزلت سورة من القرآن، زاد إيمانهم، ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾؛ أي: نفاق وشك، ﴿ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٢٥]؛ لأنهم لا يؤمنون بالقرآن، وكلما زاد القرآن، زاد الشك في قلوبهم، كلما زاد القرآن، زاد الشك والريب في قلوبهم -والعياذ بالله!

ومما يدل على أن الإيمان يزيد قوله تعالى: ﴿ وَيَزِدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المذثر: ٣١]، لما أخبر الله عن خزنة جهنم، وأن عليها تسعة عشر، ووافق هذا ما في الكتب السابقة؛ أن خزنة النار تسعة عشر من الملائكة، زاد إيمانهم، ﴿ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ [المذثر: ٣١]، يقول الكفار: (لماذا النار عليها تسعة عشر فقط؟! أهل النار لا يستطيعون أن يتغلبوا عليهم؟!)، يقولون كذا!! قال الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا النَّارَ إِلَّا مَلَكَةً ﴾ [المذثر: ٣١]؛ تسعة عشر، لكنهم ملائكة، والملك الواحد يستطيع أن يقهر جميع البشر من أولهم إلى آخرهم بقدرته الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، في خلقتهم وقوتهم، فليسوا مثل البشر.

الشاهد من الآية: ﴿ وَيَزِدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا ﴾ [المذثر: ٣١]، فدل على أن

الإيمان يزيد.

وأما نقصان الإيمان، فمن المعلوم أن كل شيء يقبل الزيادة، فإنه يقبل النقصان، وأيضاً في الأدلة ما يدل على ذلك؛ مثل حديث: «الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بَضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةٌ، أَغْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»^(١)، فدل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأنه شعب، تبلغ بضعاً وسبعين أو بضعاً وستين شعبة، فإذا تكاملت هذه الشعب، تكامل الإيمان، وإذا نقص منها شيء، نقص الإيمان، ولهذا قال: «أَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ»، دل على أن الإيمان فيه أعلى، وفيه أدنى.

وكذلك في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(٢)، فدل على أن الإيمان يضعف، وأن هناك إيماناً كاملاً، وإيماناً ناقصاً، وضعيفاً، فإنكار المنكر بالقلب هذا أضعف الإيمان، وليس وراءه إيمان، فالذي لا ينكر بقلبه ليس بمؤمن، فدل على أن الإيمان يقوى ويضعف، ويزول بالكلية؛ كما في رواية: «وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»^(٣)، فهذا دليل على أن الإيمان ينقص، ويصير إلى أضعف شيء.

ومنه قوله تعالى: ﴿هُمٌ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾

[آل عمران: ١٦٧]، ضعف الإيمان في قلوبهم، وعظم ذلك في قلوبهم، حتى

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) - واللفظ لمسلم -، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٥٠) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صاروا أقرب إلى الكفر، فلم يبق إلا شيء يسير، فدل على أن الإيمان يضعف، حتى يصير قريباً من الكفر.

وكذلك في حديث الشفاعة: «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ»، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ»^(١)، فدل على أن الإيمان يضعف حتى يكون بمِثْقَالِ حَبَّةِ الخردل، وهي أصغر شيء، فالإيمان يضعف، حتى يصير مثل حبة الخردل في القلب، فهو يوجب لصاحبه الخروج من النار يوم القيامة، وهذا يدل على فضل الإيمان، وأنه وإن ضعف جداً، فإن صاحبه لا يُجْلَدُ في النار، فدل على أن الإيمان يضعف إلى هذا الحد.

ولا شك أن إيمان الناس ليس على حد سواء، فإيمان أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعدل إيمان الأمة كلها، فلا يستوي إيمان أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وإيمان الفاسق من المسلمين، هذا شيء معروف، والذي يقول: (إن الإيمان هو التصديق، وهو في القلب، وهو لا يتفاضل)، هذا قول المرجئة^(٢)، وعندهم أن إيمان أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وإيمان أفسق الناس سواء، وهذا غلط كبير؛ الإيمان في القلوب ليس على حد سواء؛ يزيد وينقص، ويقوى ويضعف، ويكمل ويقل، فليس على حد سواء، هذا مذهب أهل السنة والجماعة؛ خلافاً للمرجئة.

(١) أخرجه البخاري (٢٢، ٦٥٦٠)، ومسلم (٣٠٤) (١٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) المرجئة: قيل من الإرجاء أي: من التأخير لأنهم أخرخوا العمل عن مسمى الإيمان، وقيل من الرجاء لأنهم يقولون لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وهم فرق شتى. انظر: (مقالات الإسلاميين) (ص ١٣٢)، و(الفرق بين الفرق) (ص ١٩٠).

والمرجئة سموا مرجئة من الإرجاء، وهو التأخير، أخرروا الأعمال عن مسمى الإيمان، فقالوا: (الإيمان هو مجرد التصديق بالقلب فقط، وأهله في أصله سواء)، عندهم لا يتفاضلون.

والمرجئة فرّق، كل فرقة لها قول:

القول الأول: قول الذين يقولون: (الإيمان مجرد المعرفة في القلب - وهذا قول الجهمية-)، فإذا عرف الإنسان ربه، يكون مؤمناً)، وعلى هذا يكون إبليس مؤمناً؛ لأنه يعرف ربه!! ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]، ويكون فرعون مؤمناً، ويكون سائر الكفرة مؤمنين عند هؤلاء؛ لأنهم يعرفون ربهم في قلوبهم، لكنهم أنكروه في ظواهرهم؛ تكبراً وعناداً، فما هناك أحد لا يعرف ربه أبداً، وإنما يحجده، وينكره من باب الاستكبار والعناد.

هذا أخبث الأقوال، وعلى هذا لا يكون على وجه الأرض كافر عندهم.

القول الثاني: (إن الإيمان هو التصديق بالقلب)، لا يكفي المعرفة، بل لا بد من التصديق بالقلب، وهذا قول الأشاعرة، وهذا غير صحيح؛ لأن الكفار يصدقون بقلوبهم؛ كما قال الله جلّ وعلا: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وقال جلّ وعلا: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، فالكفار يصدقون بالرسول صلى الله عليه وسلم في قلوبهم، ويعرفون أنه رسول الله، ولكنهم أبوا الاعتراف برسالته؛ تكبراً وعناداً، وحفاظاً على

شرفهم -بزعمهم- ومكانتهم بين الناس، هذا هو الذي حملهم، أو لأجل الحمية لأديانهم الباطلة؛ كما قال أبو طالب عند وفاته: «هو على مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، لما عرض عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقول: «لا إله إلا الله»، فقال له نفر من الكفار كانوا حاضرين عنده: «أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟!»، فأخذته الحمية -والعياذ بالله-، فقال: «هو على مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»^(١)، وأبى أن يقول: «لا إله إلا الله»، ومات على ذلك، وهو يعرف أن محمداً رسول الله، ولهذا يقول في شعره^(٢):

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَذْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حَذَارُ مَسَبَّةٍ لَرَأَيْتَنِي سَمَحًا بِذَاكَ مُبِينًا

ما منعه إلا خوف الملامة والمسبة من الناس، وحملته الحمية الجاهلية على البقاء على الكفر، مع أنه يعرف أن محمداً رسول الله، ومات كافراً -والعياذ بالله-، ولما هم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستغفر له، قال الله تعالى له: ﴿مَا كَانِ

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٣٦٠، ٣٨٨٤، ٤٦٧٥، ٤٧٧٢)، ومسلم (٢٤): عَنْ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ، «أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: «أَيُّ عَمٍّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ، حَتَّى قَالَ آخِرُ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، مَا لَمْ أَتِهِ عَنْهُ» فَتَزَلَّتْ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]. وَتَزَلَّتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٥٦)، وسمط النجوم العوالي (١/ ٣٩٤)، والإصابة في تمييز الصحابة (٧/ ١٩٨).

لِلَّتِي وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ
بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ [التوبة: ١١٣].

فليس الإيمان مجرد التصديق بالقلب؛ لأن كثيراً من الكفار يصدقون
بقلوبهم، ولكن أنكروا من باب الجحود والعناد والاستكبار.

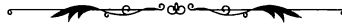
القول الثالث: قول الذين يقولون: (إن الإيمان تصديق بالقلب، ونطق
باللسان)، وهؤلاء مرجئة الفقهاء، ومنهم الحنفية، يقولون: (الإيمان نطق
باللسان، واعتقاد بالقلب)، ولا يجعلون الأعمال من الإيمان.

القول الرابع: قول من يقول: (الإيمان مجرد النطق باللسان فقط)،
وهذا قول الكرامية^(١)، ويلزم على هذا أن المنافقين مؤمنون؛ لأنهم يشهدون
أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

هذه أقوال فرق المرجئة، وكلها خطأ وضلال، والحق ما ذهب إليه أهل
السنة والجماعة؛ أن الإيمان: قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح،
يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية^(٢).

(١) هم أتباع محمد بن كَرَّام بفتح الكاف وتشديد الراء، وهو الذي تنسب إليه الفرقة
الكرامية، وقد نسب إليه جواز وضع الأحاديث على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه،
وكان يقول: (الإيمان هو نطق اللسان بالتوحيد مجرد عن عقد قلب وعمل جوارح)، توفي
سنة ٢٥٥ هـ. انظر: المنتظم (٩٧/١٢)، وتاريخ دمشق (١٢٧/٥٥)، والسير للذهبي
(١١/٥٢٣)، والبداية والنهاية (٢٠/١١)، والأنس الجليل (١/٢٩٦)، وشذرات
الذهب (١٣١/٢).

(٢) وقد نقل الإجماع على ذلك أكثر من واحد من أهل العلم، فقد قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:
«لقد طفت الأمصار، ولقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم كلهم يقول: الإيمان قول
وعمل يزيد وينقص» اهـ. أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١/١٧٣، ١٧٤)، =



= وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٢/٥٨، ٥٩)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (١٢/٤٠٧، ٤٠٨)، وذكره السبكي في طبقات الشافعية الكبرى (٢/٢١٧)، وابن حجر في الفتح (١/٤٧).

وقال أيضًا: «كتبت عن ألف نفر من العلماء وزيادة، ولم أكتب إلا عمن قال: الإيمان قول وعمل» اهـ. أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٥/٨٨٩)، وذكره ابن حجر في الفتح (١/٤٧٩).

ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية الإجماع عن الشافعي، انظر: مجموع الفتاوى (٧/٣٠٨). وقال ابن عبد البر في التمهيد (٩/٢٣٨): «أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم إيمان» اهـ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥]، فَجَعَلَ عِبَادَةَ اللَّهِ، وَإِخْلَاصَ الْقَلْبِ، وَإِقَامَ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ كُلَّهُ مِنَ الدِّينِ.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ»^(١)، فَجَعَلَ الْقَوْلَ وَالْعَمَلَ مِنَ الْإِيمَانِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وَقَالَ: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا﴾ [الفتح: ٤].

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَفِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ بُرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ أَوْ ذَرَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ»^(٢)، فَجَعَلَهُ مُتَقَاضِلًا.

الشرح

من الأدلة على أن الإيمان قول واعتقاد وعمل، وأنه يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥]، دلت هذه الآية على أن الإيمان قول وعمل واعتقاد؛ لأن الله سمى هذه الأشياء دين القيمة، والدين والإيمان بمعنى واحد، ودين القيمة: يعني الملة المستقيمة. فجعل عبادة الله، والإخلاص له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، جعل هذه

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم [ح ٥٧ (٣٥)] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤)، ومسلم مطولاً (١٩٢)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأمر، ومنها ما هو اعتقاد، ومنها ما هو نطق، ومنها ما هو عمل، جعلها دين القيمة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ»^(١))، فَجَعَلَ الْقَوْلَ وَالْعَمَلَ مِنَ الْإِيمَانِ)، وكذلك هذا الحديث «الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً»؛ أي: خصلة، «أَعْلَاهَا شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»، فجعل هذه الأمور من شعب الإيمان، وهي قول: «لا إله إلا الله»، هذا قول، وإمطة الأذى عن الطريق هذا عمل، والحياء شعبة من الإيمان؛ اعتقاد؛ لأن الإيمان من أعمال القلوب، فجعل الإيمان هو الأقوال وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، فدل على ما قاله أهل السنة والجماعة: (إن الإيمان قول وعمل واعتقاد).

ودل الحديث على أن للإيمان مرتبة أعلى ومرتبة أدنى، فدل على أنه يزيد وينقص.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، هذه الآية دليل على أن الإيمان يزيد، وأنه ليس شيئاً واحداً - كما يقوله المرجئة -، وإنما هو شيء يتفاوت، يزيد وينقص، وقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَنًا﴾ صريح في أن الإيمان يزيد بسبب نزول القرآن، وسماعه، والعمل به.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَالَ: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَنًا﴾ [الفتح: ٤]) ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَنًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾، وذلك في قصة الحديدية،

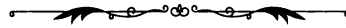
(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم [ح ٥٧ (٣٥)] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وما جرى فيها من الامتحان للمؤمنين، وأن الكفار منعوهم من أداء العمرة ودخول مكة، ولكن الله جَلَّوَعَلَا أنزل السكينة في قلوبهم، واستسلموا لأمر الله ورسوله، وخضعوا للصلح مع الكفار، مع أنهم لا يريدونه، ولكن خضعوا له؛ طاعة لله، وطاعة لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم يكرهون الصلح، ويريدون دخول مكة، وقد جعل الله في هذا الصلح خيراً للمسلمين وذلة على الكافرين، فجعل عاقبته خيراً، ومن أعظم ما أنتج هذا الصلح أن الحرب وضعت أوزارها بين المسلمين والكفار، فحصل للمسلمين تنفس، وهاجر من هاجر إلى المدينة بدون أذى، ودخل في الإسلام من يريد الدخول فيه، ولم يلق من يصده بسبب هذا الصلح، وفي النهاية حصل الفتح المبين؛ فتح مكة المشرفة، ودخولها في ولاية المسلمين، ونزع يد الكفار عنها، كل هذا من ثمرات هذا الصلح العظيم، الذي كرهه المسلمون، ولكن الله جعل عاقبته خيراً لهم، وانقاد المسلمون لحكم الله ورسوله، وأنزل الله السكينة في قلوبهم، فلم يحصل منهم مخالفات أو تصرفات بسبب حماسهم، وأنزل الله جَلَّوَعَلَا في قلوبهم السكينة، فهدؤوا، وسكنوا، وانقادوا، وإن كان كثير منهم لا يرضون بهذا الصلح؛ لأنهم يعتبرونه ضيعة على المسلمين، ولا يعلمون أن الله جعله عزاً للمسلمين، وأن عاقبته كانت خيراً للمسلمين، فدل هذا على أن الذي يستسلم لحكم الله ورسوله، وينقاد له، أن إيمانه يزيد بذلك.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَفِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ بَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ أَوْ ذَرَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ»، فَجَعَلَهُ مُتَقَاضِلًا)، أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يُخرج من النار يوم القيامة من قال:

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١)، مع إيمان قلبه بمعناها، وتيقنه لدلولها، ويخرج من النار من في قلبه مثقال حبة من إيمان، وهو متيقن لمعنى هذه الكلمة، بخلاف الذي يقوؤها بلسانه، وهو لا يعتقد معناها كالمنافقين؛ فإنها لاتنفعهم، وفي هذا رد على من يقول: (إن الإيـمان هو قول باللسان)، وفيه رد على من يرى (أن الإيـمان هو التصديق فقط، وأنه شيء واحد، لايزيد ولا ينقص)؛ لأن الله تعالى يقول للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ»^(٢)، وهذا دليل على أن هذا إيمان ضعيف، ولكن لما اجتمع مع قول «لا إله إلا الله» واعتقاد معناها، نفع ذلك صاحبه، وأخرجه من النار بعد الدخول فيها؛ لأنه لا يُحْلد في النار إلا أهل الشرك والكفر بالله عَزَّجَلَّ، وأما أهل الإيـمان، وإن كان إيمانهم ضعيفاً جداً، وإن دخلوا النار بذنوبهم، فإنهم لا يُحْلدون فيها، بل يُخرجون منها بإيمانهم.

والشاهد من الحديث - كما ذكر المؤلف -: أن الإيـمان يضعف، حتى يكون بمقدار حبة خردل؛ ردّاً على الذين يقولون: (إن الإيـمان شيء واحد، لا يتفاوت، وهو عمل قلبي فقط).



(١) أخرجه البخاري (٤٤)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
 (٢) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (٣٢٦) (١٩٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَصْلٌ

وَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صَحَّ بِهِ النَّقْلُ عَنْهُ، فِيمَا شَاهَدَنَاهُ، أَوْ غَابَ عَنَّا، نَعْلَمُ أَنَّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَسَوَاءٌ فِي ذَلِكَ مَا عَقَلْنَاهُ أَوْ جَهَلْنَاهُ، وَلَمْ نَطْلُعْ عَلَى حَقِيقَةِ مَعْنَاهُ.

الشرح

قال رحمه الله: (فَصْلٌ: وَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصَحَّ بِهِ النَّقْلُ عَنْهُ)، لما عَرَّفَ الْإِيمَانَ، وذكر الأدلة على تعريفه عند أهل السنة والجماعة، ذكر أن من الإيمان الإيمان بالغيب، وهو: ما غاب عن الناس، ولم يشاهدوه من الأمور الماضية والأمور المستقبلية التي لم يشاهدها الناس؛ لأنه قد مضت وانقضت، أو لأنها لم تحدث بعد مما صحت به الأخبار، فهذا ليس للعقل فيه دخل أبداً، وإنما الاعتقاد فيه على النقل، وهو الخبر الصادق عن الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكل ما أخبر الله عنه من الغيوب الماضية والغيوب المستقبلية، وكل ما أخبر عنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الغيوب الماضية والغيوب المستقبلية، فإنه يجب الإيمان به والتسليم له من غير تدخل بعقولنا وأفهامنا؛ لأن هذا شيء لا تدركه عقولنا ولا أفكارنا، وإنما مبناه على التسليم والتصديق لخبر الله ورسوله.

والإيمان إنما هو الإيمان بالغيب، أما الإيمان بالشيء المشاهد، فهذا لا ميزة فيه لأحد، ولا يسمى إيماناً؛ يعني: الإنسان لا يؤمن إلا بما يشاهده

ويراه؟! هذا ليس إيماناً، ولهذا لا يُقبل الإيمان إذا قامت القيامة، أو إذا حضر الإنسان أجله، وشاهد ما كان يُخبر عنه من الأمور الغائبة عنه، فإذا عاينها وأبصرها، لا يُقبل إيمانه، وقد جاء في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ»^(١)؛ يعني: ما لم تبلغ روحه الغرغرة؛ لأنها إذا بلغت روحه الغرغرة، انتهى الإيمان، وانتهى العمل، ووقع الإنسان فيما أُخبر عنه في الماضي، وشاهده عياناً: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، هذا خطاب للإنسان؛ أنه عند نزع روحه يشاهد ما كان يُخبر عنه في حياته، فحينئذ لا ينفعه إيمان، كذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أَيْدِي رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وهذا إذا طلعت الشمس من مغربها، حينئذ لا يُقبل الإيمان ممن آمنوا حينئذ، ولا تقبل التوبة ممن تاب؛ لأن هذا أصبح حساً ومشاهدة، لا غائباً، ولهذا يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩]، ويقول جَلَّ وَعَلَا في أول سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٢-٣]، فأول صفات المتقين أنهم يؤمنون بالغيب؛ يعني: بما غاب عنهم ولم يشاهدوه، ولكن اعتمدوا فيه على خبر الصادق، فآمنوا به كأنهم يشاهدونه عياناً؛ لأنهم يصدقون بأخبار الله وأخبار رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣): عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فالأمور الغائبة والمستقبلية لا يُعتمد فيها على العقول ولا على الأفكار، وإنما يُعتمد فيها على الأخبار الصحيحة الصادرة عن الله جَلَّ وَعَلَا عالم الغيب والشهادة، أو الصادرة عن نبيه، الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤].

ويدخل في هذا الباب الكثير من الأخبار الماضية؛ كأخبار الأمم، خبر آدم والملائكة، وخبر الأمم السابقة؛ قوم نوح وعاد وشمود، وقوم إبراهيم، وأصحاب مدين، وغيرهم من الأمم، هذا كله أخبر الله عنه، فيجب الإيمان به، وهو غيب ماض.

وكذلك الغيوب المستقبلية؛ مثل: أشراط الساعة، وما يكون قبل قيام الساعة، وما يكون في آخر الزمان.

وكذلك الإيمان بعذاب القبر ونعيمه، وما أخبر عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك.

كذلك الإيمان باليوم الآخر وما يكون فيه، والإيمان بالبعث والنشور، والإيمان بالجنة والنار، كل ذلك داخل في الإيمان بالغيب، بل الإيمان بالله جَلَّ وَعَلَا داخل في الإيمان بالغيب؛ لأننا لم نر الله جَلَّ وَعَلَا، وإنما آمنا به؛ اعتماداً على آياته الكونية، وآياته القرآنية، وأخبار رسله - عليهم الصلاة والسلام.

نحن نؤمن بالله وأسمائه وصفاته ووجوب عبادته؛ اعتماداً على الأخبار الصادقة، والآيات البينة، والبراهين الساطعة أمام أعيننا، مما نشاهد من خلق الله وملكوت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن هذا الكون لا يمكن أن يكون أوجد نفسه،

أو أن يكون أحد أوجده غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ
الْخَالِقُونَ﴾ (٢٥) ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦]، من
هو الذي ادعى أنه خلق ذرة، أو خلق حبة، أو خلق شعيرة، أو خلق شيئاً
من السماوات والأرض؟! ما أحد ادعى هذا من الكفار، مع شدة كفرهم
وعنادهم، لا يستطيعون أن يدعوا أنهم خلقوا شيئاً: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ
الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ [فاطر: ٤٠]،
فالله جَلَّ وَعَلَا يتحداهم، فيقول: (هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله، أروني
ماذا خلقوا من الأرض؟!)، ما أحد ادعى أن معبوده خلق شيئاً؛ لأنه
لا يمكنه أن يدعي هذا أبداً، والله جَلَّ وَعَلَا أخبر أنه خلق السماوات والأرض،
وأنه خلق الجن والإنس، وأنه خلق، وأنه يخلق، ولا أحد يعترض على الله في
خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إذ لا أحد يقدر على ذلك، لا أحد يقدر أن يعترض على
الله، فيقول: (لا، هذا الشيء خلقه فلان، وهذا الشيء خلقه فلان)، لا أحد
يدعيه، ولا يستطيعون هذا، والله يتحداهم، يقول: (أبرزوا براهينكم على
أن أحداً يخلق غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى): ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ
الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦]، أخبر سبحانه
أنه خلق، ويخلق، ولا أحد يعترض، لا أحد يقدر على هذا، بل العقول
استسلمت لهذا، ولا أحد ادعى أن أحداً يخلق مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلذلك الله
جَلَّ وَعَلَا هو الخالق وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو الخالق جَلَّ وَعَلَا، هذا بتسليم العالم
كله كفارهم ومؤمنهم؛ أن الله هو الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ

لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ﴿[الزخرف: ٨٧]؛ يعترفون بهذا أن الخلق لله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وإذا كان له الخلق، فله الأمر، هو الذي يأمر، وينهى، ويشرع: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فالحاصل: أن هذه الغيوب لا تدخلها العقول والأفهام، ولا أحد يتدخل فيها بنفي أو إثبات، إلا بناء على ما جاء عن الله ورسله -عليهم الصلاة والسلام.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وأما الإيمان ببعضه والكفر ببعضه، فهذا كفر بالجميع، فنحن نؤمن بكل ما أخبر به -ما تتصوره عقولنا، وما لا تتصوره عقولنا-، ليس لعقولنا دخل في هذا؛ لأنها عاجزة، ولا تحيط بالأشياء، لا يحيط بالأشياء إلا الله جَلَّ وَعَلَا.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَصَحَّ بِهِ النَّقْلُ عَنْهُ)، فما دام صح السند، فإنه يجب الإيمان بالحديث، ما دام صح سنده، وهو يخبرنا عن أمور غائبة، فإنه يجب علينا التصديق والإيمان، أما ما لم يصح سنده، فنحن غير مطالبين بالإيمان به، فلا بد أن يصح السند عند أئمة أهل الحديث، فإذا صح، فلا كلام لأحد.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فِيمَا شَاهَدْنَاهُ، أَوْ غَابَ عَنَّا، نَعْلَمُ أَنَّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَسَوَاءٌ فِي ذَلِكَ مَا عَقَلْنَاهُ وَجَهَلْنَاهُ، وَلَمْ نَطْلُعْ عَلَى حَقِيقَةِ مَعْنَاهُ)؛ يعني: لا فرق بين ما نشاهده وما لم نشاهده، يجب أن تؤمن بالجميع؛ كأنك تشاهد الغائب؛ لأنه أخبرك عنه الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو مثل الذي تشاهده سواء بسواء، وسواء في ذلك ما تصورته عقولنا، وما

لم تتصوره عقولنا، العقول ليس لها دخل في هذا، أمور الغيب لا تتصورها العقول.

مثلاً: عذاب القبر وأنه روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، لا تتصور هذا عقول البشر، ولهذا يقول بعضهم: (يقولون: يصير الميت تراباً. ولو حفرنا القبر ما وجدنا عنده ناراً، ولا وجدنا عنده جنة)، نقول: هذا ليس من العالم المشاهد عالم الدنيا، هذا من عالم الآخرة، الذي لا يعلمه إلا الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنت لا تحس به، وليس من لازم صحة الشيء ووقوعه أنك تشاهده، هناك أشياء موجودة، وأنت لا تراها، ولا تشاهدها، وهي موجودة وأنت لا تدركها أبداً.

مثلاً - مما يقرب هذا-: ينام اثنان، بعضهم إلى جانب بعض، هذا ينام نومًا هادئًا ومريحًا ولذيذًا، وهذا ينام نومًا مقلقًا ومزعجًا مليئًا بالأحلام المزعجة والمنغصات في نومه، وهذا إلى جانب هذا، ولا هذا يحس بهذا، ولا هذا يحس بهذا. فإذا كان هذا في أمور الدنيا، فكيف بأمور الآخرة، التي لا يعلمها إلا الله؟

كذلك الأموات، منهم من هو في نعيم، ومنهم من هو في عذاب، وإن كان بعضهم إلى جانب بعض، فلا هذا يحس بنعيم هذا، ولا هذا يحس بعذاب هذا، كل يتعلق به حكمه.

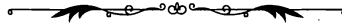
هذه قدرة الله جَلَّ وَعَلَا، التي لا يعجزها شيء، والله حجب عنا أمور الآخرة، وعذاب القبر من أمور الآخرة، وإنما نحن نؤمن به بناء على خبر

الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنؤمن أن الميت يعذب أو ينعم، وإن كنا لا نحس بهذا ولا نراه، وفي حجه عنا؛ رحمة بنا.

يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافِنُوا، لَدَعَوْتُ اللَّهُ أَنْ يُسَمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ»^(١)، فالله جل وعلا حجب هذا عنا؛ رحمة بنا.

فالمت يضرب في قبره، فيصيح صيحة يسمعه كل شيء، إلا الثقلين^(٢)، ولو سمعها الإنسان، لصعق -يعني: لمت-، فمن رحمة الله أن حجب هذا عنا، ولا نسمعه، ولا نراه؛ رحمة بنا.

فأمر الآخرة لا تقاس بأمر الدنيا، وأول أمور الآخرة عذاب القبر، فهو أول منزل من منازل الآخرة، وما يجري فيه، فهو من عالم الغيب، الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.



(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٧)، من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٣٣٨): عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتُوِّيَّ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَنَاهُ مَلَكَانِ، فَأَقْعَدَاهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيَقَالُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبَدَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ»، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا، وَأَمَّا الْكَافِرُ -أَوِ الْمُنَافِقُ- فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيَقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ».

مِثْلُ حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ^(١)، وَكَانَ يَقْطَعُ لَا مَنَامًا^(٢)، فَإِنَّ قُرَيْشًا
أُنْكَرَتْهُ وَأَكْبَرَتْهُ، وَلَمْ تُنْكِرِ الْمَنَامَاتِ.

الشرح

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (مِثْلُ حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ)، من الأخبار التي أخبرنا
الله عنها ورسوله الإسراء والمعراج، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى
بِعَبْدِهِ. لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ يعني: من مكة المشرفة، ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ
الْأَقْصَا﴾ في فلسطين، ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ. لِنُرِيَهُ مِنْ عَيْنِنَا﴾ [الإسراء: ١]،
وبين مكة وفلسطين مسافة تقطعها الإبل في شهر، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
أُسْرِيَ به في ليلة واحدة^(٣)، وعاد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الليلة. جاءه جبريل
عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو نائم في مكة، وحمله على البراق - دابة يركبها الأنبياء -، وذهب
به إلى بيت المقدس، وخطوها عند مدبصرها، ثم إنه صلى بالأنبياء في بيت
المقدس، ثم إنه عُرج به - يعني: صُعد به^(٤) - إلى السماء بروحه وبجسمه، يقظة
لا منامًا.

(١) حديث الإسراء والمعراج رواه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم [ح ٢٥٩ (١٦٢)]. من حديث

أنس ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ وفي بعض الروايات يرويه أنس عن مالك بن صعصعة.

(٢) انظر: الحجة في بيان المحجة (١/ ٥٥٠)، ومجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٨٨)، والسيرة النبوية
لابن كثير (٢/ ١٠٤).

(٣) انظر: مادة: (س ر ي) في لسان العرب (١٤/ ٣٨٢)، ومختار الصحاح (ص ١٢٥)،
والقاموس المحيط (ص ١٦٦٩).

(٤) انظر: مادة: (ع ر ج) في لسان العرب (٢/ ٣٢٠)، ومختار الصحاح (ص ٤٦٧)،
والقاموس المحيط (ص ٢٥٣).

وهذا من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَمِنْ مَعْجَزَاتِ هَذَا الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمعراج المذكور في أول سورة النجم، والإسراء المذكور في أول سورة بني إسرائيل: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، والسرى هو السير ليلاً.

والله جَلَّ وَعَلَا يقول في الإسراء: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ أَيْنِئْنَا﴾ [الإسراء: ١]، فأراه من آياته في هذه الليلة الشيء العجيب في ملكوت السماوات والأرض، ورأى الجنة والنار، ورأى أهل النار فيها، ورأى أهل الجنة فيها، وكلمه الله من وحيه بما شاء، وفرض عليه الصلوات الخمس من فوق سبع سماوات، ثم نزل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الأرض، ثم جاء إلى مكة في ليلة واحدة، فأصبح يخبر الناس.

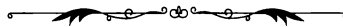
فأهل الإيمان ازدادوا إيماناً؛ لأنهم صدقوه من الأول، وما دام آمنوا أنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنهم لا يكذبونه، ولهذا لما قيل لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هَلْ لَكَ إِلَى صَاحِبِكَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ قَالَ: أَوْ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لَيْنُ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ، قَالُوا: أَوْ تُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، إِنِّي لَأُصَدِّقُهُ فِي مَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ أُصَدِّقُهُ فِي خَبَرِ السَّمَاءِ فِي غُدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»^(١)، وأما ضعاف الإيمان والكفار، فإنهم اتخذوا من

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣/ ٨١)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٦٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

هذه الحادثة وسيلة للتهكم بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن ضعاف الإيمان من ارتد عن الإسلام، والكفار فرحوا بذلك. ولكن الإسراء والمعراج حق، وهو معجزة من معجزات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو من أعظم ما أكرم الله به هذه الأمة المحمدية، فالإيمان به واجب، وكان يقظة لا مناماً؛ لأن المنام لا أحد ينكره، قريش لا تنكر الرؤيا، فلو كان رؤيا، ما أنكرته قريش؛ لأنها تصدق بالرؤيا، وأيضاً يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، والعبد إنما يكون لمجموع الروح والجسد، فالروح وحدها لا تسمى عبداً، والجسد وحده لا يسمى عبداً، وإنما مجموع الروح والجسد هو العبد.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَكَانَ يَقْظَةً لَا مَنَامًا)؛ لأنه لو كان مناماً، لم تنكره قريش، ولا أحد ينكر الرؤيا، فهو ليس رؤيا، نعم حصل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رؤيا، لكن في غير الإسراء والمعراج في قصة أخرى.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَإِنَّ قُرَيْشًا أَنْكَرَتْهُ وَأَكْبَرَتْهُ، وَلَمْ تُنْكِرِ الْمَنَامَاتِ)، لا تنكر الرؤيا، لا أحد ينكر الرؤيا من المؤمنين أو من الكفار؛ لأنها أمر واقع.



وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ لَمَّا جَاءَ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَقْبِضَ رَوْحَهُ، لَطَمَهُ، فَفَقَأَ عَيْنَهُ، فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ عَيْنَهُ^(١).

الشرح

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ لَمَّا جَاءَ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَقْبِضَ رَوْحَهُ، لَطَمَهُ فَفَقَأَ عَيْنَهُ، فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ عَيْنَهُ)، ومن الأخبار التي يجب التصديق بها قصة موسى مع ملك الموت، وهو موسى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ كليم الله، جاءه ملك الموت في صورة رجل - ابتلاء وامتحاناً - فأخبره أنه سيقبض روحه، وهو في صورة رجل، فلطمه موسى؛ لأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان غيوراً، فلطمه - يعني: ضربه على وجهه -، ففقأ عينه، فذهب ملك الموت إلى ربه، وقال: «أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ عَيْنَهُ وَقَالَ: ارْجِعْ، فَقُلْ لَهُ: يَضَعْ يَدَهُ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ فَلَهُ بِكُلِّ مَا غَطَّتْ بِهِ يَدُهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ الْمَوْتُ، قَالَ: فَالآن؟»؛ يعني: ما دام أنه لا بد من الموت، فمن الآن يا رب، فقبض روحه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما علم أنه ملك الموت، وأنه رسول الله إليه، استسلم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما في الأول، فلم يدرك أنه ملك الموت.

(١) رواه البخاري (١٣٣٩، ٣٤٠٧)، ومسلم [ح (١٥٧) (٢٣٧٢)]، من حديث أبي هريرة

وَمِنْ ذَلِكَ أَشْرَاطُ السَّاعَةِ: مِثْلُ: خُرُوجِ الدَّجَالِ، وَنُزُولِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقْتُلُهُ، وَخُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَخُرُوجِ الدَّابَّةِ، وَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ بِمَا صَحَّ بِهِ النُّقْلُ^(١).

الشرح

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَمِنْ ذَلِكَ أَشْرَاطُ السَّاعَةِ)، ومن ذلك من أخبار الغيب المستقبلية التي يجب الإيمان: أشرط الساعة، والأشرط جمع شَرَط، وهو العلامة^(٢). قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا؟﴾ أي: علامات قيامها وقرب حدوثها، ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ [محمد: ١٨]، إذا قامت الساعة، فليس لهم مجال للإيمان والتصديق حينذاك، ولا يقبل منهم توبة.

- (١) انظر الأحاديث في أشرط الساعة في: صحيح مسلم [ح ٣٩ (٢٩٠١)، و ٤٢ (٢٩٠٢)]، وانظر أحاديث الدجال في البخاري (٧١٢٢ - ٧١٣٤)، وصحيح مسلم (٢٩٤٣)، وانظر في خبر يأجوج ومأجوج صحيح البخاري (٧١٣٥، و ٧١٣٦)، وصحيح مسلم (٢٨٨١). وعن حذيفة بن أسيد الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: اطَّلَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَكَّرُ فَقَالَ: «مَا تَذَكَّرُونَ؟» قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، قَالَ: «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ، فَذَكَرَ الدُّخَانَ، وَالدَّجَالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسَفٌ بِالشَّرْقِ، وَخَسَفٌ بِالمَغْرِبِ، وَخَسَفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مُحْشَرِهِمْ» هذا لفظ مسلم. وانظر في أشرط الساعة: كتاب (الإذاعة) لصديق حسن خان.
- (٢) انظر مادة (شرط) في: العين (٢٣٤/٦)، وتهذيب اللغة (٢١١/١١)، والصحاح (١١٣٦/٣)، ومقاييس اللغة (٢٦٠/٣)، ولسان العرب (٣٢٩/٧).

وأشراط الساعة كثيرة، منها العلامات الأولى، ومنها المتوسطة، ومنها الأخيرة، أما الأولى، فقد حصلت، وانتهت -والله أعلم-، منها بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أشراط الساعة؛ لأنه نبي الساعة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ»، وأشار بالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى (١)، فهو نبي الساعة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا نبي بعده إلى أن تقوم الساعة.

وما حدث من الفتوحات وانتشار الإسلام كل هذا من علامات الساعة، انتصار الإسلام وانتشاره في الأرض كل هذا من علامات الساعة، وما حدث من الفتن بين الناس والحروب وسفك الدماء كل هذا من علامات الساعة؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر عن ذلك.

والعلامات المتوسطة كثيرة جداً، وتحدث عجائب، الواحدة تلو الأخرى، ونحن نعيش في أمور تتجدد، وتحدث عجائب الآن، هذه من علامات الساعة، هذه المخترعات، هذه الصناعات، هذا الاتصال السريع، هذا من علامات الساعة، وما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تقارب البلدان كله من علامات الساعة، وقد حدث.

ثم تأتي العلامات الأخيرة العشر، وهي تتتابع:

أولاً: خروج المهدي من آل بيت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذرية الحسن، اسمه كاسم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محمد بن عبد الله، فينشر العدل، وينشر الإسلام، وينصر الله به الدين، ويملاً الأرض عدلاً؛ كما مُلئت جوراً، ثم في وقته يخرج المسيح الدجال الأعور الكذاب، الذي يجعل الله على يديه فتنة

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عظيمة ومحنة عظيمة؛ حكمة منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم ينزل المسيح عيسى بن مريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر أيام الدجال، ينزل من السماء، ويقتل الدجال، ويحكم بالإسلام - وهو شريعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، ويبقى في الأرض مدة، ثم يأتيه الموت صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويموت بأجله الذي قدره الله له، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩]؛ أي: المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فدل على أنه يموت في آخر الزمان، ويُدفن كغيره من الأنبياء.

ثم خروج يأجوج ومأجوج، وهما قبيلان من بني آدم، فيهم شر عظيم، وفيهم فتن وسفك دماء ومضايقات لأهل الإيثار، ثم خروج الدابة، التي تميز بين المسلم والكافر: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]، فتضع على المؤمن علامة، يُعرف بها أنه مؤمن، وتضع على الكافر علامة، يُعرف بها أنه كافر، فيصبح الناس يعرف بعضهم بعضاً؛ المؤمن مؤمن، والكافر كافر.

ثم خروج الشمس من مغربها، وهذه آخر العلامات الأخيرة، فإذا خرجت الشمس من مغربها، انتهى قبول الإيثار وقبول التوبة، ثم خروج النار من قعر عدنن تحشر الناس إلى الشام، تبيت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا، وتسوقهم إلى المحشر.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (مِثْلُ: خُرُوجِ الدَّجَالِ، وَنُزُولِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقْتُلُهُ)، سمي الدجال؛ لأنه كذاب؛ من الدجل، وهو الكذب^(١)، وسمي

(١) انظر مادة (دجل) في: العين (٦/ ٨٠)، وتهذيب اللغة (١٠/ ٣٤٤)، والصحاح (٤/ ١٦٩٥)، ومقاييس اللغة (٢/ ٣٢٩)، ولسان العرب (١١/ ٢٣٦).

بالمسيح؛ لأنه يمسح الأرض بسرعة، يسير فيها بسرعة، وقيل: سمي بالمسيح؛ لأنه ممسوح العين أعور، ويدعي أنه الله جَلَّ وَعَلَا، والله جَلَّ وَعَلَا ليس بأعور، ومكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل أحد^(١). فهو دجال خبيث، هو مسيح الضلالة، وينزل الله مسيح الهداية، وهو عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَام، سمي بالمسيح؛ لأنه يمسح على المريض، فيُشفى بإذن الله، بمجرد ما يمسح على المريض يُشفى بإذن الله.

فالمسيح مسيح الهداية يقتل مسيح الضلالة، يطلبه، ويقتله بباب لد في فلسطين^(٢)، واللد بلدة في فلسطين، فيقتله هناك، ثم إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحكم بشريعة الإسلام، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويحكم بالإسلام شريعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيكون متبعاً لرسول الله، وحاكماً بشريعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣).

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٧١٣١، ٧٤٠٨)، ومسلم (٢٩٣٣): عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدَّجَالُ مَسْخُوحُ الْعَيْنِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ، ثُمَّ تَهَاجَا: ك ف ر، يَقرؤه كُلُّ مُسْلِمٍ».

(٢) كما في حديث النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطويل الذي أخرجه مسلم (٢٩٣٧)، وفيه: «... فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يَدْرِكَهُ بَابَ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ...».

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٢٢٢، ٢٤٧٦، ٣٤٤٨)، ومسلم (١٥٥): عَنْ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ تَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخَنَزِيرَ، وَيَضَعَ الْجُزْيَةَ، وَيُفِيضَ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ».

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَأُخْرِجْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ)، يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ قَبِيلَانِ مِنْ بَنِي آدَمَ، قَصَّتْهُنَّ مَذْكُورَةٌ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ الْعَظِيمَ الْمُؤْمِنَ ذَا الْقَرْنَيْنِ مَكَّنَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَسَارَ فِي مِشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ وَإِلَى التَّوْحِيدِ، وَيَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَلَمَّا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ - وَهُمَا جَبَلَانِ عَظِيمَانِ -، ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: ٩٣]، وَهُمْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، يَهْدِدُونَ الْبَشَرِيَّةَ، ﴿قَالُوا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴿[الكهف: ٩٤-٩٥]، فَرَفُضَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُمْ شَيْئًا، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ عِنْدَهُ مَا يَكْفِي مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَحْضُرُوا لَهُ الْمَوَادَّ وَالْأَشْيَاءَ، فَقَامَ وَبَنَى هَذَا السَّدَ الْعَظِيمَ، سَاوَى بَنَ الصَّدْفَيْنِ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ، وَجَعَلَهُ سَدًّا عَظِيمًا أَمْلَسَ، لَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْرِقَهُ، وَلَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَظْهَرَهُ - أَيِ: يَرُقَى عَلَيْهِ -، فَصَارَ هَذَا السَّدُ مِنْ نَعَمِ اللَّهِ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ، قَالَ ذُو الْقَرْنَيْنِ: هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي.

لَكِنْ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَقُومُونَ بِنَقْضِ هَذَا السَّدِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا أَسْطَعُوكَ أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾؛ أَيِ: يَعْزِلُوا عَلَيْهِ، ﴿وَمَا أَسْطَعُوكَ لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧]، لَكِنْ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَقْدِرُهُمُ اللَّهُ عَلَى نَقْضِهِ، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دُكَّاءً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ ٩٨ ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٨-٩٩]، فَيَخْرُجُونَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَيَحْصِلُ مِنْهُمْ مِنَ الْفَسَادِ وَسَفْكِ الدَّمَاءِ وَالشَّرِّ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، مِمَّا جَاءَ وَصْفُهُ فِي الْأَحَادِيثِ، وَالْبَشَرُ لَا يَسْتَطِيعُونَ مَقَاوِمَتَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَرَضًا يَصِيبُهُمْ فِي أَعْنَاقِهِمْ،

وهو النغف مثل الدود في أعناقهم، فيموتون جميعاً، ويستريح المسلمون منهم، وتأكل دواب الأرض من أجسامهم، حتى تسمن وتشكر.

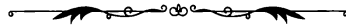
فهذه آيات عظام وعلامات كبار من علامات الساعة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وُخْرِجَ الدَّابَّةُ)، الدابة التي تخرج من الأرض، قال تعالى: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٢]، الله أعلم بصفتها، ورد فيها أحاديث وأخبار، لكن الله أعلم بها، وهي دابة تخرج من الأرض؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا، أما كيفية خروجها، ومن أين تخرج، وموضع خروجها، فالله أعلم بذلك.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا)، الشمس تطلع من المشرق، وتغيب في المغرب، هذه سنة الله الكونية في الشمس؛ أنها تدور حول الأرض شرقاً وغرباً دائماً وباستمرار، لا كما يقوله الملاحدة: أن الأرض هي التي تدور على الشمس، وأن الشمس ثابتة، فهذا من انتكاس الفطر والعقول، بل العكس، الأرض هي الثابتة، والشمس والأفلاك تدور على الأرض؛ كما أخبر الله، وكما أخبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكما هو المشاهد المحسوس، فهي تطلع من المشرق، وتغيب في المغرب؛ كما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ للنمرود: ﴿فَإِنِّي أَنذَرُكَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، لما ادعى أنه يحيي ويميت، وأنه رب، قال له هذه المعجزة العظيمة التي بهتته: إن الله يأتي بالشمس من المشرق، إن كنت كما تزعم أنك رب، أتت بها من المغرب، اعكس ما أَرَادَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ لأنه لا يستطيع هذا، ولا يقدر على هذا إلا الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فسنة الله في الشمس

أنها تأتي من المشرق، وتغرب في المغرب؛ يعني: تدور على الأرض، وإذا كانت في جانب، أضاءته، وصار نهارًا، وإذا غابت عن ذلك الجانب، صار ليلاً، إلى أن تدور مرة ثانية، وهكذا يتعاقب الليل والنهار؛ بناء على دوران الشمس على الأرض، قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا اختل نظام هذا الكون، وأراد الله خراب هذه الدنيا، انعكس سير الشمس، فصارت تخرج من المغرب، فإذا طلعت من المغرب، فهذا دليل على قرب قيام الساعة، وعلى خراب هذا النظام الكوني، وقيام الساعة، وانتهاء الدنيا، وحلول الدار الآخرة.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ مِمَّا صَحَّ بِهِ النَّقْلُ)، وأشباه هذه الأخبار التي ذكرها المصنف نماذج من أشراف الساعة (مما صح به النقل)، هذا شرط لا بد منه، هذه الأمور الغيبية لا تثبت إلا بدليل صحيح، أما الدليل الضعيف والدليل الذي لا يبلغ درجة الصحة، فهذا لا يعتمد عليه في عقيدة المسلم، وإنما يُعتمد على الأدلة الصحيحة، وسواء كانت متواترة أو آحادًا، هذا اعتقاد أهل السنة؛ أنهم لا يفرقون بين المتواترة والآحاد، المدار على الصحة فقط، فإذا صح الحديث، فإنه يجب اعتقاد ما دل عليه من غير شك ولا ريب؛ لأنه كلام من لا ينطق عن الهوى، وقد صح سنده، فلم يبق عذر لترك الإيمان به.



وَعَذَابُ الْقَبْرِ وَنَعِيمُهُ حَقٌّ، وَقَدْ اسْتَعَاذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُ، وَأَمَرَ بِهِ فِي كُلِّ صَلَاةٍ^(١)، وَفِتْنَةُ الْقَبْرِ حَقٌّ^(٢)، وَسُؤَالُ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ حَقٌّ^(٣).

الشرح

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَعَذَابُ الْقَبْرِ وَنَعِيمُهُ حَقٌّ)، وكذلك من الأمور التي أخبر عنها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عذاب القبر ونعيمه، تواترت الأحاديث في ذلك،

(١) رواه البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٦٣٦٥)، ومسلم [ح ١٣٠ (٥٨٨)]، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا فَرَّغَ أَحَدُكُمْ مِنَ التَّشَهُّدِ الْآخِرِ، فَلْيَتَعَوّذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ: مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ».

(٢) ورد في فتنة القبر أحاديث، منها: حديث البراء بن عازب، رواه أحمد في المسند (٢٨٧/٤)، وأبو داود في سننه (٤٧٥٣)، والطبراني في مسنده (١٠٢/١) والبيهقي في الشعب (٣٥٨/١) وفيه عند ذكر المؤمن: «فَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ» وعند ذكر الكافر أو المنافق «وَيَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ»، قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، المجمع (٥٠/٣)، وفي الباب أحاديث أخرى عن غيره من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وانظر: إثبات عذاب القبر للبيهقي، والتعليق الآتي.

(٣) ورد في تسمية الملكين اللذين يسألان الإنسان في قبره بمنكر ونكير عدة أحاديث مرفوعة موقوفة عن عدد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، منهم: أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الترمذي (١٠٧١)، وقال: حسن غريب. والطبراني في المعجم الأوسط (٤٤/٥)، ومعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البزار (٩٧/٧)، والبراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البيهقي في شعب الإيمان (٣٥٨/١) والطبري في تهذيب الآثار (٥٠٠/٢)، وأبي الدرداء موقوفاً عليه عند ابن أبي شيبة (٥٣/٣).

وقال الهيثمي في المجمع (٥٤/٣): رواه الطبراني في الأوسط، وإسناده حسن، يعني من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال ابن أبي عاصم في السنة (٤٢٠/٢): «وفي المسألة أخبار ثابتة، والأخبار التي في المسألة في القبر منكر ونكير أخبار ثابتة، توجب العلم فترغب إلى الله أن يشبنا في قبورنا عند مسألة منكر ونكير والقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة آمين». اهـ.

وأنكر المعتزلة عذاب القبر ونعيم القبر؛ بناء على عقولهم الفاسدة، ويقولون: (إنا لا نشاهد في القبر شيئاً).

نقول لهم: هل الأمور مبنية على مشاهدتكم وعلى ما تحسونه أنتم، أم على قدرة الله جَلَّ وَعَلَا؟ ما لعقولكم ولا لإحساسكم دخل في هذا.

لقد أنكرت المعتزلة عذاب القبر ونعيمه؛ بناء على عقولهم الفاسدة، وعذاب القبر ثابت بالكتاب والسنة ويأجماع أهل السنة والجماعة، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، قالوا: (العذاب الأدنى هو عذاب القبر، أو هو ما يصيبهم في الدنيا من المحن والمصائب)، العذاب الأدنى قيل: (هو عذاب القبر)، وقيل: (هو ما يصيبهم في الدنيا من المصائب والنكبات وتسلط المسلمين عليهم بالقتل والسبي وغير ذلك)^(١)، ولا مانع من إرادة الأمرين.

وكذلك قوله تعالى في آل فرعون: ﴿الْتَأَرْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿الْتَأَرْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، هذا في عذاب القبر، ثم قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، فدل على أن عذاب الغدو والعشي هذا في الدنيا، وذلك في القبر، وإذا قامت الساعة، فإنهم يصيرون في أشد العذاب -والعياذ بالله-^(٢)، فالآية فيها دليل على عذاب القبر مع الأحاديث المتواترة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك.

(١) انظر: تفسير الطبري (١٨/٦٢٧-٦٣١)، وزاد المسير (٣/٤٤١)، والقرطبي (١٤/٤٠٧)، وابن كثير (٦/٣٦٩).

(٢) انظر: تفسير الماوردي (٥/١٥٩)، وزاد المسير (٤/٤٠)، والقرطبي (١٥/٣١٩-٣٢٠)، وابن كثير (٧/١٤٦).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَدْ اسْتَعَاذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُ، وَأَمَرَ بِهِ فِي كُلِّ صَلَاةٍ)، استعاذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عذاب القبر، فدل على أنه حق، وعلى أنه واقع وثابت، وإلا لم يستعذ منه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمر بالاستعاذة منه في كل صلاة، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ: مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ»^(١).

والشاهد: أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بالاستعاذة من عذاب القبر، فدل على أنه عذاب واقع وحاصل، وأن المؤمن يستعيز منه.

وعذاب القبر له أسباب، يصيب حتى المؤمنين بسببها، فإنهم يعذبون في قبورهم، منها: الغيبة والنميمة، ومنها: عدم الاستنزاه من البول، فقد مر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقبرين، فقال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِهُ مِنْ بَوْلِهِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»^(٢)، فدل على أن عذاب القبر يحصل للمؤمن بسبب ذنوب ارتكبها في الدنيا.

وكذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمَيِّتُ يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ»^(٣)، فالنياحة على الميت تسبب تعذيبه، هي سبب من أسباب تعذيبه في قبره.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَفِتْنَةُ الْقَبْرِ حَقٌّ، وَسُؤَالُ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ حَقٌّ)، مما يجري في القبر -أيضاً- سؤال منكر ونكير من الملائكة؛ أنه إذا وضع الميت في قبره،

(١) سبق تخريجه (ص ٢٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢١٦، ٢١٨، ١٣٦١، ١٣٧٨، ٦٠٥٢، ٦٠٥٥)، ومسلم (٢٩٢) بلفظ (يستتر)، وأبو داود (٢٠)، والنسائي (٣١)، وابن ماجه (٣٤٧) بهذا اللفظ المذكور، والنسائي (٢٠٦٨، ٢٠٦٩)، بلفظ (يُسْتَرَى)، كلهم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٩٢)، ومسلم (٩٢٧)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وسوي عليه القبر، وتولى عنه المشيعون، وإنه ليسمع قرع نعالهم، يأتيه ملكان، فتعاد روحه في جسده، وهذه الحياة برزخية، ما هي مثل إعادتها في الحياة على الأرض، لا يعلمها إلا الله جَلَّوَعَلَا، فتعاد روحه في جسده، ويجلسانه، فيقولان له: «من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟»، فالمؤمن يقول: «ربي الله، والإسلام ديني، ونبيي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، لا يتلعثم، ولا يتردد؛ لأنه كان مؤمناً في هذه الدنيا، مؤمناً بالله، ومؤمناً بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، و متمسكاً بدين الإسلام، فلا يتلجلج في السؤال، ولا يتردد.

أما المنافق الذي كان يعيش في هذه الدنيا على الشك، وهو يدعي الإسلام بلسانه، وهو منكر بقلبه، فهذا يعجز إذا سُئِلَ في القبر، ويتحير، ويقول: «هاها لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته».

فالأول يُنعم، ويُفتح له باب إلى الجنة، وهذا يعذب، ويضيق عليه في قبره، حتى تختلف أضلاعه، ويفتح له باب إلى النار^(١) - نسأل الله الثبات -، ولهذا يقول جَلَّوَعَلَا: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ

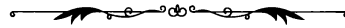
(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٣٣٨، ١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠): عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِه، وَتَوَلَّى وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرَعَ نِعَالِهِمْ، أَنَّهُ مَلَكَانٍ، فَأَقْعَدَاهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيَقَالُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبَدَ لَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ»، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا، وَأَمَّا الْكَافِرُ - أَوْ الْمُنَافِقُ - فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيَقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَكَلَيْتَ، ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ».

الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ [إبراهيم: ٢٧]، هذا فيه دليل على ثبوت عذاب القبر وسؤال الملكين منكر ونكير، ولهذا كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا فرغ من دفن الميت، وقف على قبره هو وأصحابه، وقال: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَسَلُّوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»^(١)، فيستحب للمسلمين إذا فرغوا من دفن الميت أن يقفوا على قبره، ولا يستعجلوا في الانصراف، ويسألوا له التثبيت، ويستغفروا له، فإن الله ينفعه بذلك؛ لأن دعوة المسلمين مستجابة.

فعذاب القبر حق، ولا ينكره إلا ملحد، قد أنكرته المعتزلة؛ بناء على عقولهم الفاسدة؛ لأنهم يقدمون العقل على النقل، فلما كانت عقولهم لا تدرك عذاب القبر، نفوه، وكذبوا بالأحاديث - نسأل الله العافية!

وأمر الغيب وأمور الآخرة لا دخل للعقول فيها، لا تدركها العقول، وإنما تُبنى على الأخبار الصادقة، فنؤمن بها؛ بناء على الأخبار الصادقة، ولا نقول بشيء إلا ما دل عليه الدليل من أمور الآخرة وأمور القبر، لا أحد يتكلم، ويثبت شيئاً، إلا بدليل صحيح من الكتاب والسنة؛ لأنه من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا من الإيمان باليوم الآخر؛ لأن القبر أول منازل الآخرة.



(١) أخرجه أبو داود (٣٢٢١)، وأحمد في فضائل الصحابة (٤٧٥/١)، والبخاري في مسنده (٩١/٢)، والحاكم في المستدرک (٥٢٦/١)، من حديث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ حَقٌّ، وَذَلِكَ حِينَ يَنْفُخُ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الصُّورِ:
﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

الشرح

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَالْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ حَقٌّ)، كذلك مما يجب الإيمان به - وهو من الإيمان باليوم الآخر -: الإيمان بالبعث، والبعث: هو إعادة الأموات أحياء، ينبعثون من قبورهم أحياء، بعدما كانوا ترابًا وعظامًا ورميمًا، فإن الله يعيدهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا كَانُوا بِقُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ؛ ليجزيهم بأعمالهم التي عملوها، فالدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، فلا بد من البعث للجزاء والحساب، ولا ينتهي الأمر عند الدنيا، بل هناك دار أخرى، هي دار الجزاء، فلو لم يكن هناك بعث للجزاء، للزم على ذلك العبد في أفعال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكانت أفعالًا بلا نتيجة، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴿[المؤمنون: ١١٥-١١٦]، فهو تعالى منزّه عن العبد، وأن يخلق خلقًا عبثًا، بل خلقهم لحكمة وغاية، وهي البعث والنشور والجزاء على الأعمال؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وذلك أن الله يعيد أجسادهم، ويجمعها من التراب والعظام، وتبنى أجسامهم كما كانت، ثم بعد ذلك يأمر إسرافيل بالنفخ في الصور، فينفخ في الصور - والصور هو القرن الذي فيه الأرواح -، فتطير كل روح إلى جسدها، فيحيا هذا الجسد، ويتحرك، ثم يخرجون من قبورهم، ويمشون إلى المحشر، يخرجون من الأجداث - يعني: من القبور -، فيذهبون إلى المحشر كأنهم جراد منتشر،

مهطعين إلى الداعي، يدعوهم إلى الحشر، فيذهبون، لا أحد يتخلف: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُؤْفَضُونَ﴾ (٤٣) خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿[المعارج: ٤٣-٤٤]﴾ وَتُفْخِ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَوَلَّيْنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿[يس: ٥١-٥٣]﴾، هذه قدرة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد أنكر المشركون البعث: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفُنًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]، ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]، كيف يعود التراب وتدب فيه الحياة؟! وكيف تعود هذه العظام التي فנית، وهذه الشعور التي تفرقت، وهذه اللحوم التي تمزقت، كيف تعود مرة ثانية؟! استبعدوا هذا، ونفوه؛ بناء على عقولهم، ولم يعلموا أن الذي خلقهم أول مرة قادر على أن يعيدهم: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنْفَسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، الله لا يعجزه شيء، لماذا لم يستغربوا خلقهم أول مرة، وكانوا في الزمان الماضي عدماً، ليس لهم جلود، ولا عظام ولا شيء؟ ﴿وَقَدْ خَلَقْتَك مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مریم: ٩]، ليس لهم عظام، ولا لحم، ولا شيء أبداً، أوجدهم الله من عدم، فالذي أوجدهم من عدم ألا يقدر أن يعيد أجسامهم ورميمهم وعظامهم كما كان؟! لا يعجزه شيء سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهذا هو البعث من القبور حين ينفخ إسرائيل في الصور: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس:٥١]. والنفخ في الصور ذكره الله أنه يحصل ثلاث مرات:

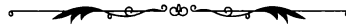
المرّة الأولى: نفخة الفزع: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَهٌ دَاخِرِينَ﴾ [النمل ٨٧].

والنفخة الثانية: نفخة الصعق.

والنفخة الثالثة: نفخة البعث. وهما مذكورتان في آخر سورة الزمر؛ كما قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ﴾؛ يعني: مات ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾، هذه النفخة الثالثة ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، هذه نفخة البعث.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَذَلِكَ حِينَ يَنْفُخُ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الصُّورِ)، وإسرا فيل ملك من الملائكة موكل بالنفخ في الصور.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس:٥١])، الأجداث: القبور، ينسلون: يخرجون منها.



وَيُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاءَ غُرْلًا بِيَهُمَا، فَيَقِفُونَ فِي مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ،
حَتَّى يَنْشَفَعَ فِيهِمْ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُحَاسِبُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،

الشرح

قال رحمه الله: (وَيُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاءَ غُرْلًا بِيَهُمَا)، الحشر من الأمور التي يجب الإيمان بها، والحشر: جمع الناس بعد القيام من قبورهم، يسرون من القبور إلى المحشر، وهو مكان يجمع الله فيه الأولين والآخرين، مكان مستو، ليس فيه مرتفع ولا جبل ولا كثبان، أرض مستوية، يجتمعون فيها^(١)، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، كل الخلائق تجتمع في هذا المحشر، حفاة ليس لهم نعال، عراة ليس عليهم ثياب، غرلاً غير مختونين، القلفة التي قُطعت في الختان في الدنيا تعود مكانها، بهما ليس معهم شيء، ما معهم شيء أبداً إلا الأعمال^(٢)، فيقفون في المحشر، وهو المجمع الذي يجمعهم الله فيه: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْتَكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا (٣٩) وَلِلَّهِ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿[المرسلات: ٣٨-٤٠].

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠): عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ، لَيْسَ فِيهَا عِلْمٌ لِأَحَدٍ».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٣٤٩، ٣٤٤٧، ٤٦٢٥، ٤٦٢٦، ٤٧٤٠، ٦٥٢٤، ٦٥٢٥، ٦٥٢٦)، ومسلم (٢٨٦٠): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ، يَقُولُ: «إِنَّكُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ حُفَاةً عُرَاءَ غُرْلًا».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَيَقِفُونَ فِي مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يَشْفَعَ فِيهِمْ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، يطول وقوفهم في هذا المحشر، وتدنو منهم الشمس، ويتصبب منهم العرق، ويأخذ من كل واحد منهم بحسب أعماله، فيصيبهم الحر الشديد والظنك الشديد والتعب الشديد من طول الموقف -خمسین ألف سنة-، عند ذلك يتراجعون فيما بينهم فيما يخلصهم من هذا الموقف الذي طال زمنه واشتد حاله، فيقولون: ليس لكم إلا الشفاعة، لا بد من أحد يشفع لكم عند ربكم في أن يخلصكم من هذا الموقف، فيذهبون إلى آدم أبي البشر، فيطلبون منه الشفاعة إلى ربهم، وطلب الشفاعة من الحي القادر لا بأس به؛ أن تطلب منه أن يشفع لك عند ربك، بمعنى أن يدعو لك عند ربك، وطلب الدعاء شفاعة، فيعتذر آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويذهبون إلى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أول الرسل، فيعتذر، ويذهبون إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيعتذر، ويذهبون إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيعتذر، ويذهبون إلى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيعتذر، ويذهبون في النهاية إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم النبيين، فهم طلبوا الشفاعة من أولي العزم الخمسة: آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد -صلى الله عليهم وسلم.

فالنبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «أَنَا لَهَا»^(١)، فيقبل الشفاعة لهم عند الله، لكنه لا يشفع عند الله ابتداءً، إلا بإذن الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، فيخر ساجداً، ويدعوا ربه، ويتضرع إليه، حتى يؤمر برفع

(١) كما في حديث الشفاعة الذي ورد بعدة ألفاظ، منها: ما رواه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (٣٢٢) (١٩٣)، و[٣٢٦] (١٩٢)، بلفظ أتم، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ورواه البخاري (٤٧١٢) ومسلم (٣٢٧) (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ورواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (٣٠٢) (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رأسه، ويقال له: «سَلْ، تُعْطَ»، فيشفع للخلائق في فصل القضاء بينهم، فيقبل الله شفاعته، ثم يأتي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لفصل القضاء بين عباده، يأتي بذاته سبحانه مجيئاً حقيقياً - كيف يشاء - لفصل القضاء بين عباده؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۖ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢١-٢٢]، جاء لفصل القضاء بين عباده، وكما في قوله سبحانه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، هذا مجيء الله وإتيانه لفصل القضاء بين عباده، مجيئاً وإتياناً يليقان به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبِعَظَمَتِهِ، نثبتها لله كما أثبتتها لنفسه، ولا نؤول ونقول: (يأتي أمره)؛ لأن هذا تأويل باطل، بل يأتي هو بذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على ما يليق بجلاله كيف يشاء سبحانه، أما الكيفية، فنحن لا نتعرض لها - كيف يجيء، وكيف يأتي-، لكن نثبت المجيء، ونثبت الإتيان لله جَلَّ وَعَلَا، وأنه بالذات كما أخبر الله بذلك عن نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيفصل بين عباده.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (حَتَّى يَشْفَعَ فِيهِمْ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وهذه هي الشفاعة العظمى، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له شفاعات كثيرة، منها ما هو خاص به، ومنها ما هو مشترك بينه وبين الأنبياء والصالحين، ومن الشفاعات الخاصة به الشفاعة العظمى، وهي الشفاعة في أهل الموقف، هذه خاصة به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي المقام المحمود الذي ذكره الله بقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، سمي بالمقام المحمود؛ لأنه يحمد عليه الأولون والآخرون صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. هذه الشفاعة العظمى، ويأتي بقية أنواع الشفاعات.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَيُحَاسِبُهُمُ اللهُ عَزَّجَلَّ)، يحاسبهم الله، الحساب معناه: إيقافهم على أفعالهم، ومناقشتهم عليها، وتقريرهم بها، أما الكفار، فإنهم لا يحاسبون محاسبة موازنة بين الحسنات والسيئات؛ لأنهم ليس لهم حسنات، ولكنهم يحاسبون حساب تقرير فقط، يقررون بأفعالهم، ويقرون بها، وأما المؤمنون، فيحاسبون حساب موازنة بين السيئات والحسنات.

ومن المؤمنين من لا يحاسب أبداً، يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب؛ كما في حديث السبعين الألف، الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب^(١)، ومنهم من يحاسب حساباً يسيراً، وينقلب إلى أهله مسروراً، ومنهم من يناقش الحساب، ويثقل عليه الحساب، وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ»^(٢).

فهذه أنواع المؤمنين في الحساب: منهم من لا يحاسب، ويدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب، ومنهم من يحاسب حساباً يسيراً، ومنهم من يحاسب حساب مناقشة ويثقل، وقد يُعَذَّبُ بذنوبه.

وأما الكفار، فإنهم لا يحاسبون حساب موازنة بين الحسنات والسيئات؛ لأنهم ليس لهم حسنات، وإنما يحاسبون حساب تقرير، فيعترفون بذنوبهم.

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٧٠٥، ٥٧٥٢، ٦٤٧٢، ٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣، ٤٩٣٩، ٦٥٣٦، ٦٥٣٧)، ومسلم (٢٨٧٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ، وَتُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ، وَتَنْطَايِرُ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ إِلَى
 الْأَيْمَانِ وَالشَّمَائِلِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ (٧) ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا
 يَسِيرًا﴾ (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ (٩) ﴿فَسَوْفَ
 يَدْعُوا بُرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧-١١].

وَالْمِيزَانُ لَهُ كِفَتَانِ وَلِسَانٌ، تُوزَنُ بِهِ الْأَعْمَالُ: ﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ
 هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ
 فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣].

الشرح

قال رحمه الله: (وَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ)، كذلك مما يجري في يوم القيامة: نصب
 الموازين -موازين الأعمال-، وهي موازين حقيقية، قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ
 يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ
 مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِعَآيِنِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩]،
 توضع الحسنات في كفة، والسيئات في كفة، وهذا من تمام العدل -عدل
 الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى-، فمن رجحت حسناته، سعد، وفاز، ومن خفت حسناته
 وثقلت سيئاته، خاب وخسر: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
 أَنْفُسَهُمْ﴾ [الأعراف: ٩]، ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٦) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ
 رَاضِيَةٍ﴾ (٧) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٨) ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ (٩) ﴿وَمَا
 أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ﴾ (١٠) ﴿نَارٍ حَامِيَةٍ﴾ [القارعة: ٦-١١]، ﴿فَأُمُّهُ﴾، أم الشيء:

الذي يصار إليه، فمصيره إلى جهنم -والعياذ بالله-، وقيل ﴿ فَأُمُّهُ ﴾: أم دماغه، بمعنى أنه يسقط في النار على رأسه.

وهذا الوزن حقيقة، هناك ميزان حقيقي حسي له كفتان؛ كما جاء في الأحاديث^(١)، لكن الله أعلم بكيفيته؛ لأنه من أمور الآخرة، لكن معناه معلوم، وهو أنه ميزان حقيقي، له كفتان، توضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة^(٢)، وأيهما رجع، فإن صاحبه يعامل بحسبه؛ خيرًا أو شرًا، وهذا ثابت في كتاب الله عزَّ وجلَّ، وفي سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأجمع عليه المسلمون.

أما المعتزلة، فيقولون: (ليس هناك ميزان حقيقي، وإنما هو كناية عن إقامة العدل)، وهذا على منهجهم الخبيث، وهو تحكيم العقول وعدم النظر إلى النصوص، وهذا مذهب باطل وضال.

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٦٨٢، ٧٥٦٣)، ومسلم (٢٦٩٤): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ».

(٢) كما في حديث البطاقة الذي أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠): عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَعْفَرِيِّ ثُمَّ الْحُبَيْلِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ سَيَخْلُصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُنْشَرُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ سَجَلًا كُلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتَنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمْتُكَ كَتَبْتِي الْخَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَمْ تُغْذَرْ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٍ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَرَنُكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُنْظَمُ»، قَالَ: «فَتَوْضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَتُنَشَّرُ الدَّوَاوِينُ)، الدواوين: هي الكتب التي سجلت فيها أعمال بني آدم، وهي الصحف - صحائف الأعمال -؛ لأن ما عمله الإنسان في هذه الدنيا فهو مكتوب، كتبه عليه الملائكة الحفظة من خير أو شر: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٣) أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿[الإسراء: ١٣-١٤]، فيعطى الإنسان كتابه المملوء بأعماله، ويقرؤه، أما المؤمن، فإنه يعطى كتابه بيمينه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا وَكُنِّيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٩]، فهو يفرح، ويود أن الناس يطلعون على كتابه؛ لأنه سار، والشيء إذا كان سارًا، فإنك تود أن يطلع عليه الناس: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكِي حِسَابِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ٢٠]؛ يعني: آمنت وأيقنت أني ملاق حسابه، فاستعددت له بالأعمال الصالحة، ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿[الحاقة: ٢١-٢٤]، وأما الكافر، فإنه يعطى كتابه بشماله من وراء ظهره - والعياذ بالله -: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنِي لَمْ أُؤْتَ كِتَابِيَّةً﴾ [الحاقة: ٢٥]، يتمنى أنه لم يعط كتابه، ولا عرض عليه؛ لأنه فضيحة، ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَّةٌ﴾ (٢٦) يَلَيِّنَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿[الحاقة: ٢٦-٢٧]؛ يعني: ليتني لم أبعث، وليت الموت كان هو النهاية، ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ﴾ (٢٨) هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿[الحاقة: ٢٨-٣٢]، هذا بعد تطاير الصحف باليمين أو بالشمال.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَتَتَطَايَرُ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ إِلَى الْأَيْمَانِ وَالشَّائِلِ)، هذا ثابت في كتاب الله وفي سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا من تمام العدل من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؛ أنه لا يظلم أحداً، أو يُحمل أحداً ما لم يعمله.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتْبُهُ بِيَمِينِهِ ۖ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝ ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتْبُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۖ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۝ ﴿١١﴾﴾ [الانشقاق: ٧-١١]، في آية يعطى كتابه بشماله، وفي آية يعطاه من وراء ظهره، والجمع بين الآيتين: أنه يُعطى كتابه بشماله ومن وراء ظهره؛ إهانة له -والعياذ بالله-، فيحصل هذا وهذا له.

ومن طرائف ما يُذكر أن بعض الفرق الضالة إذا مات الميت، يقطعون يده اليسرى، يقولون: (حتى لا يبقى له شمال يوم القيامة؛ لكي يعطى كتابه باليمنى، إذا لم توجد اليسرى)، ولا يؤمنون أن الله يعيد يده التي قطعوها كما كانت. هذا من طرائف أخبار بعض الفرق الضالة.

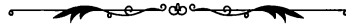
قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالْمِيزَانُ لَهُ كِفَّتَانِ وَلِسَانٌ، تُوزَنُ بِهِ الْأَعْمَالُ)، هذا رد على المعتزلة في أنه ميزان حقيقي، له كفتان حقيقتان، وله لسان.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣]، قد سألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا فِي ثَلَاثَةِ

مَوَاطِنَ فَلَا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَدًا: عِنْدَ الْمِيزَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَيَخِفُ مِيزَانُهُ أَوْ يَثْقُلُ،
هذا موضع.

والموضع الثاني: «عِنْدَ تَطَايُرِ الْكُتُبِ، فَإِذَا أَنْ يُعْطَى بِيَمِينِهِ، أَوْ يُعْطَى
بِشِمَالِهِ».

والموضع الثالث: «وَعِنْدَ الصَّرَاطِ»^(١)، عند المرور على الصراط، حتى
يعلم هل ينجو أو لا ينجو.



(١) أخرجه أبو داود (٤٧٥٥)، وأحمد في مسنده (٣٠٢/٤١)، والحاكم في المستدرک
(٦٢٢/٤)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَلَنِبْنِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَوْضٌ فِي الْقِيَامَةِ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ،
وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَبَارِيقُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً، لَمْ يَظْمَأْ
بَعْدَهَا أَبَدًا^(١).

الشرح

قال رحمه الله: (وَلَنِبْنِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَوْضٌ فِي الْقِيَامَةِ)، مما يجب
الإيمان به: الحوض الذي للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والحوض: مجمع الماء^(٢)،
فيكون لبنينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حوض مملوء بالماء العذب، يسكب فيه ميزابان،
لونه كيباض اللبن، وطعمه أحلى من العسل، وآنيته أكثر من عدد نجوم
السما، من يشرب منه شربة، فإنه لا يظمأ بعدها أبداً. وذلك أن الناس
يعطشون في المحشر، ويحتاجون إلى الماء، فترد أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على
حوضه، فيشربون، وهم أهل الإيمان الصحيح، أما المنافقون والذين بدلوا
وغيروا، فإنهم إذا وردوا على حوضه، يذادون عنه، ويمنعون من وروده،
فيقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا رَبِّ أَصْحَابِي، أَصْحَابِي. فَيَقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٣٠٠)، والترمذي (٢٤٤٥): عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،
قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا آيَةُ الْحَوْضِ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَنْتَهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ
نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاجِبِهَا، إِلَّا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ، آيَةُ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ
آخِرَ مَا عَلَيْهِ، يَشْخَبُ فِيهِ مِزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ، عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ، مَا
بَيْنَ عَمَانَ إِلَى أَيْلَةَ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ».

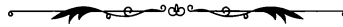
(٢) انظر مادة (حوض) في: العين (٢٦٦/٣)، وتهذيب اللغة (١٠٣/٥)، والصحاح
(١٠٧٣/٣)، ومقاييس اللغة (١٢٠/٢)، ولسان العرب (١٤١/٧).

أَخَذْتُوا بَعْدَكَ»^(١)، «إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ»^(٢)، فهذا هو الحوض، نؤمن به، وثبته كما جاء وصفه في الأحاديث.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ)، يصب فيه الكوثر -نهر من أنهار الجنة-، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، والمشهور: أن المراد بالكوثر نهر من أنهار الجنة، يصب في حوضه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقيل: الكوثر: الخير الكثير، ويدخل فيه النهر؛ لأنه من الخير، فهو تفسير عام^(٣).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَبَارِيقُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ)، أباريقه: يعني آنيته التي يُشرب بها.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً، لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا)، فإذا شرب، ذهب عنه الظمأ، ولا يعود إليه أبدًا.



(١) أخرجه مسلم (٢٢٩٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٩، ٤٦٢٥، ٦٥٢٦)، ومسلم (٢٨٦٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) انظر في معنى الكوثر: تفسير الطبري (٦٧٩/٢٤ - ٦٨٩)، وزاد المسير (٤/٤٩٧ - ٤٩٨)، والقرطبي (٢٠/٢١٦ - ٢١٨)، وابن كثير (٨/٤٩٨ - ٥٠٢).

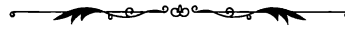
وَالصَّرَاطُ حَقٌّ يَجُوزُهُ الْأَبْرَارُ، وَيَزِلُّ عَنْهُ الْفُجَّارُ.

الشرح

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالصَّرَاطُ حَقٌّ يَجُوزُهُ الْأَبْرَارُ، وَيَزِلُّ عَنْهُ الْفُجَّارُ)، كذلك من أعمال يوم القيامة وأهواها: الصراط والمرور عليه، والصراط: هو القنطرة والجسر المضروب على متن جهنم، يعبر عليه الناس كلهم، ولا يحملهم عليه إلا أعمالهم، فمنهم من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالريح بسرعتها - حسب قوة أعمالهم -، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدو عدوًا على قدميه، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يزحف زحفاً - كلما ضعفت الأعمال، ضعف المرور -، ومنهم من يُخطف، فيلقى في جهنم؛ بأن تعجز أعماله عن حمله على الصراط، فيقع في جهنم - والعياذ بالله -^(١)، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا ۖ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَنتَظَرُ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ۖ ثُمَّ لَنَأْخُذَنَّ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۖ﴾

(١) كما في حديث أبي سعيد الخدري رَحِمَهُ اللَّهُ الطويل الذي أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، (٧٥٦٣)، ومسلم (١٨٣)، وفيه: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْجَسْرُ؟ قَالَ: «مَذْحَضَةٌ مَزَلَّةٌ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفٌ وَكَلَالِيبٌ، وَحَسَكَةٌ مُفْلَطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقِيفَاءُ، تَكُونُ بِنَجْدٍ، يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرَّيْحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرَّكَّابِ، فَتَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مُخْدُوشٌ، وَمَكْدُوشٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا».

﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿[مريم: ٦٨-٧١]﴾ ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ﴾: هذا يشمل المؤمنين والكفار، ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾: يعني جهنم، وهذا الورد هو المرور على الصراط، ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢]، يتساقطون في النار - والعياذ بالله!



وَيَشْفَعُ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَمْنُ دَخَلَ النَّارَ مِنْ أُمَّتِهِ مِنْ أَهْلِ الْكِبَائِرِ،
فَيَخْرُجُونَ بِشَفَاعَتِهِ بَعْدَمَا احْتَرَقُوا وَصَارُوا فَحْمًا وَحِمًّا، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
بِشَفَاعَتِهِ.

وَلِسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ شَفَاعَاتٌ، قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُ
مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ
مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وَلَا تَنْفَعُ الْكَافِرَ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ.

الشرح

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَيَشْفَعُ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَمْنُ دَخَلَ النَّارَ مِنْ أُمَّتِهِ مِنْ أَهْلِ
الْكِبَائِرِ) الشفاعة: هي في اللغة الوساطة بالخير^(١)، هذه هي الشفاعة، وقد
تكون وساطة في الشر؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ
نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]، ومن الشفاعة السيئة الشفاعة في الحدود - في إسقاط
الحدود -، هذه شفاعة سيئة - والعياذ بالله -، مضادة لحكم الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذه هي الشفاعة في الأصل، أما الشفاعة في الآخرة، فهي الدعاء،
وذلك بأن يكرم الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بعض عباده بأن يتقبل دعاءه في المشفوع له.

والشفاعة تكون بشرطين: بإذن الله جَلَّ وَعَلَا للشافع، وبرضاه عن
المشفوع فيه؛ بأن يكون من أهل التوحيد والإيمان، أما الكافر، فإنه لا تُقبل

(١) انظر مادة (شفع) في: العين (١/٢٦٠)، وتهذيب اللغة (١/٢٧٧)، والصحاح
(٣/١٢٣٨)، ومقاييس اللغة (٣/٢٠١)، ولسان العرب (٨/١٨٣).

فيه شفاعة: ﴿فَمَا نَفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

فالشفاعة إنما تكون لأهل الإيمان، وهي أن الله يكرم بعض عباده بأن يقبل شفاعته ووساطته ودعوته، فينفع بها المشفوع فيه، إذا كان من أهل الإيمان.

الشفاعة الثانية من خصائص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة، فأول من يستفتح باب الجنة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأول من يدخلها من الأمم أمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيشفع لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة، وتفتح لهم أبوابها بشفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن الشفاعات الخاصة به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: شفاعته في عمه أبي طالب، هذه خاصة بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن أبا طالب كافر، مات على الكفر على ملة عبد المطلب، وهي عبادة الأوثان، ولكن لمواقفه مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودفاعه عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشفع فيه يوم القيامة أن يخفف عنه العذاب، لا يشفع فيه بالخروج من النار؛ لأن الكافر لا يمكن أن يخرج من النار، لكن يشفع في عمه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه، فيكون في ضحضاح من نار^(١)، أو يكون في أخمص قدمه جرة من النار

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٨٨٣، ٦٢٠٨)، ومسلم (٢٠٩): عَنِ الْعَبَّاسِ ابْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بَشْيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحْطُوكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْ لَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ».

يغلي منها دماغه^(١)، ما يرى أن أحداً من أهل النار أشد عذاباً منه، مع أنه أهون أهل النار عذاباً.

هذه شفاعاة خاصة بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأبي طالب، أما بقية الكفار، فلا أحد يشفع فيهم، ولا تنفعهم شفاعاة الشافعين.

ومن الشفاعات المشتركة: الشفاعاة في أهل الكبائر، الذين استحقوا دخول النار، فيشفع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو والأنبياء والصالحون في هؤلاء أن لا يدخلوا النار، أو إذا دخلوا النار وعذبوا فيها، يشفع في إخراجهم منها، يشفع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويشفع غيره من الأنبياء، ويشفع الصالحون.

فيشفع لهم بالدعاء والتضرع إلى الله بإخراجهم من النار، فيقبل الله شفاعته، ويخرجهم من النار، وهذه الشفاعاة في أهل الكبائر خاصة بأهل الإيمان.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَيَخْرُجُونَ بِشَفَاعَتِهِ بَعْدَمَا احْتَرَقُوا وَصَارُوا فَحْمًا وَحِمًّا، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَتِهِ)، الخوارج والمعتزلة ينفون الشفاعاة في أهل الكبائر؛ لأنهم يحكمون على مرتكب الكبيرة بالكفر، فلا تنفعهم الشفاعاة عندهم،

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٨٨٥، ٦٥٦٤)، ومسلم (٢١٠): عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ عِنْدَهُ عَنْهُ أَبُو طَالِبٍ فَقَالَ: «لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ يَبْلُغُ كَعْبِيهِ، يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ».

وكما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٥٦١، ٦٥٦٢)، ومسلم (٢١٣): عَنِ الثُّعْمَانِ ابْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ، عَلَى أُنْخَصٍ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي الْمَرْجُلُ وَالْقُمْقُمُ».

ويقولون: (من دخل النار لا يخرج منها)، وهذا مذهب باطل، بل من دخل النار من أهل التوحيد وأهل الإيمان، فإنه يخرج منها، ولا يخلد فيها أبداً، إنما يُخلد في النار أهل الكفر والشرك -والعياذ بالله- أما أهل التوحيد المذنبون وأصحاب الكبائر، فإنهم وإن دخلوا النار بذنوبهم، فإنهم لا يُخلدون فيها، بل يخرجون منها؛ إما بشفاعة الشافعين، وإما برحمة أرحم الراحمين، وإما بنهاية عذابهم، فيخرجون من النار كالفحم محترقين، أو كالشيء الأسود من الاحتراق، فيلقون في نهر على باب الجنة، يقال له: نهر الحياة، فتنبت أجسامهم، ثم يؤذن لهم بدخول الجنة^(١).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلِسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ شَفَاعَاتٌ) في مثل هؤلاء، هذه الشفاعة ليست خاصة بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل هي مشتركة؛ يشفع الملائكة، ويشفع الأنبياء والمرسلون، ويشفع الأولياء والصالحون، لكن لا بد من شرطين: أن تكون الشفاعة بإذن الله، وأن يكون المشفوع فيه من أهل التوحيد ومن أهل الإيمان.

والشفاعة تُطلب من الله، لا تُطلب من المخلوق، فتقول: (اللهم، شفّع في نبيك وعبادك المؤمنين، اللهم لا تحرمني شفاعة نبيك وشفاعة أنبيائك

(١) كما في حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللَّهُ الطويل الذي أخرجه البخاري (٨٠٦، ٦٥٧٣، ٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢)، وفيه: «حَتَّى إِذَا أَرَادَ اللَّهُ رَحْمَةً مِنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ: أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، فَيُخْرِجُوهُمْ وَيَعْرِفُوهُمْ بِأَثَرِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرِ السُّجُودِ، فَيُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ، فَكُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ إِلَّا أَثَرِ السُّجُودِ، فَيُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ، قَدْ امْتَحَسُوا فَيَصَّبُ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حِمْلِ السَّيْلِ».

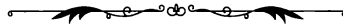
وعبادك المؤمنين)، تُطلب من الله جَلَّوَعَلَا؛ لأنها ملك لله: ﴿أَمْ أَتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ، مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٣-٤٤]، فهؤلاء الذين يتوجهون إلى القبور والأموات، ويطلبون منهم الشفاعة، هذا شرك أكبر، الميت لا يطلب منه شيء، والحي تطلب منه الشفاعة بمعنى الدعاء، فيدعو الله جَلَّوَعَلَا لك، وهذه الشفاعة تكون من الأحياء في الحياة الدنيا وفي الآخرة، أما بعد الموت، فلا يطلب من الميت شيء؛ لا شفاعة، ولا دعاء، ولا غيره.

فهؤلاء الذين يتوجهون للقبور، ويطلبون الشفاعة من الأموات، ويستغيثون بهم، ويذبحون لهم، وينذرون لهم، ويتبركون بتربتهم، فعلهم هذا هو الشرك الأكبر، الذي جاءت الرسل بإنكاره، وشرع الجهاد في سبيل الله من أجل إزالته، فالقبور لا يُطلب منها شيء، وإنما المشروع في القبور زيارتها من أجل الاعتبار والدعاء للأموات المؤمنين، هذا هو المقصود، أما أن تُزار من أجل طلب الشفاعة، أو طلب الغوث، أو طلب الرزق أو الولد، أو كف شر الأعداء، فهذا هو الشرك الأكبر، والذنب الذي لا يُغفر إلا بالتوبة، وهذا هو شرك الأولين الذين بعث إليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]؛

يعني: الملائكة، هذا فيه إثبات الشفاعة للملائكة، وأنها لا تكون إلا برضا الله جَلَّوَعَلَا، ورضاه عن المشفوع فيه بأن يكون من أهل التوحيد، أما الكافر، فإنه لا يرضى الله عنه.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَلَا تَنْفَعُ الْكَافِرَ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ)، فكون الكافر لا تنفعه شفاعاة الشافعين دل على أنها تنفع المؤمنين بالشروط التي ذكرها الله سُبحَانَهُوَعَالَى.



وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ لَا تَفْنِيَانِ، فَالْجَنَّةُ مَأْوَى أَوْلِيَائِهِ، وَالنَّارُ عِقَابٌ
لِأَعْدَائِهِ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ فِيهَا مُخْلَدُونَ: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧٤-٧٥).
لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿[الزخرف: ٧٤-٧٥].

وَيُؤْتَى بِالْمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحٍ، فَيَذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ:
«يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ»^(١).

الشرح

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ)، مما يكون في يوم القيامة: الجنة
والنار، وهما الداران الباقيتان، الجنة دار المتقين، والنار دار الكافرين، وهما
مخلوقتان الآن، ليس معناه أنها تخلقان يوم القيامة، بل هما مخلوقتان الآن؛
كما قال تعالى في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال في النار:
﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، ومعنى أعدت: أنها مخلوقة وموجودة.

وكما في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا بِالصَّلَاةِ، فَإِنَّ شِدَّةَ
الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ»^(٢)، فدل على أنها موجودة، وأن الله جعل لها نفسين:

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٧٣٠): عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ:
قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحٍ، فَيَنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ،
فَيَسْرِبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ
رَأَوْهُ، ثُمَّ يَنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَسْرِبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ:
نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَوْهُ، فَيَذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ
النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ».

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٦)، ومسلم (٦١٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

نفساً في الشتاء، وهو ما يجده الناس من شدة البرد، ونفساً في الصيف، وهو ما يجده الناس من شدة الحر^(١)، فدل على أنها موجودة.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالساً في أصحابه، فسمعوا وجبة -يعني: سمعوا شيئاً سقط-، فقال: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا»^(٢)، فدل على أن النار موجودة الآن، والجنة كذلك، وأن الميت إذا وضع في قبره، يأتيه من نعيم الجنة، أو يأتيه من عذاب النار، دل على أنها موجودتان، ويُفتح له باب من الجنة، أو يُفتح له باب من النار، فدل على أنها موجودتان، فيجب الإيمان بذلك؛ أنها موجودتان الآن، وأن القول بأنها تخلقان يوم القيامة قول باطل.

وكذلك الجنة والنار لا تفنيان، ولا تبيدان أبداً، فهما موجودتان في الماضي، ويستمر وجودهما إلى الأبد؛ لا تفنيان، ولا تبيدان، وأهلها مخلدون فيها؛ أهل الجنة مخلدون في الجنة، وأهل النار مخلدون في النار.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَالْجَنَّةُ مَأْوَى أَوْلِيَائِهِ، وَالنَّارُ عِقَابٌ لِأَعْدَائِهِ)، الجنة دار جزاء لأوليائه، والنار دار عقاب لأعدائه؛ جزاء على كفرهم.

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٧): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «اشْتَكَّتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: رَبِّ أَكَلْتُ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفْسَيْنِ: نَفْسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفْسٍ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا تَحْدُونَ مِنَ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَحْدُونَ مِنَ الزَّمْهِرِيرِ».

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٤٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَأَهْلُ الْجَنَّةِ فِيهَا مُخَلَّدُونَ ﴿٧٤﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٥﴾ لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٦﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٥])، هذا من الأدلة على بقاء النار واستمرارها: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ [الزخرف: ٧٤]، والخلود معناه: المكث الدائم الذي لا ينقطع^(١)، ﴿لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ [الزخرف: ٧٥]: آيسون من رحمة الله، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَمْلِكُ﴾: مالك خازن النار، ﴿لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَيْكَ﴾، طلبوا من مالك أن يشفع لهم عند الله في القضاء عليهم بمفارقة الحياة؛ حتى يستريحوا، يتمنون الموت، الموت أمنيتهم -والعياذ بالله-، ﴿لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَيْكَ﴾، فما كان الجواب؟ ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَعَكُوثٌ ﴿٧٧﴾ [الزخرف: ٧٦-٧٧]؛ يعني: باقون أبد الأباد؛ حتى يئسوا -والعياذ بالله!

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَيُؤْتَى بِالْمَوْتِ فِي صُورَةٍ كَبَشٍ أَمْلَحٍ، فَيُذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: «يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ»)، إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار، فيقال: «يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ»، فحينئذ ييأس أهل النار من الخروج منها، والمراد بالموت هنا ليس هو ملك الموت؛ ملك الموت لا يموت ولا يُذبح، لكن الموت يتصور يوم القيامة، فيكون في صورة كبش، والله قادر سبحانه على أن يجعل الأشياء المعنوية أعياناً وأشخاصاً، قادر على ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) انظر مادة (خلد) في: العين (٢٣١/٤)، وتهذيب اللغة (١٢٤/٧)، والصحاح (٤٦٩/٢)، ومقاييس اللغة (٢٠٧/٢)، ولسان العرب (١٦٤/٣).

فَصْلٌ

وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ^(١)، وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ^(٢)، لَا يَصِحُّ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يُؤْمِنَ بِرِسَالَتِهِ، وَيَشْهَدَ بِنُبُوَّتِهِ، وَلَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الْقِيَامَةِ إِلَّا بِشَفَاعَتِهِ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أُمَّةٌ إِلَّا بَعْدَ دُخُولِ أُمَّتِهِ.

صَاحِبُ لِيَوَاءِ الْحَمْدِ، وَالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، وَالْخَوْضِ الْمَوْرُودِ، وَهُوَ إِمَامُ النَّبِيِّينَ وَخَطِيبُهُمْ، وَصَاحِبُ شَفَاعَتِهِمْ^(٣).

الشرح

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَصْلٌ)، لما تكلم المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في أول هذه العقيدة عن الإيْمَانِ بالله، والإيْمَانِ بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيْمَانِ بالقدر، بعد ذلك عقد هذا الفصل لبيان حقوق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحقوق أصحابه،

(١) دليله قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

(٢) ورد في حديث الشفاعة المتفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَحْمٍ، فَرَفَعَ إِلَيْهِ الدَّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَهَسَسَ مِنْهَا مَهْسَةً ثُمَّ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...» الحديث، رواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

(٣) أخرج الترمذي (٣٦١٣)، وابن ماجه (٤٣١٤) وأحمد في مسنده (١٣٧/٥)، وابن أبي عاصم في السنة (٣٦٦/٢)، والحاكم في مستدركه (٧٨/٤). وقال صحيح الإسناد، ولم يخرجاه بهذه السياقة. من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كُنْتُ إِمَامَ النَّبِيِّينَ وَخَطِيبُهُمْ وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِمْ غَيْرُ فَخْرٍ».

وحقوق زوجاته؛ لأجل أن يكون المسلم على بصيرة مما يختلف فيه أهل الأهواء والمبتدعة في حق الصحابة، وفي حق زوجات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغير ذلك؛ لئلا تؤثر عليه هذه الأهواء وهذه الشبهات التي يوردها هؤلاء الضالون، فيكون المسلم على بصيرة.

هذا هو السبب في النص على حقوق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحقوق أصحابه وحقوق زوجاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ذلك لأن حقوق أصحابه وحقوق زوجاته داخله في حق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الأصل، وهذه داخله وتابعة في حقوقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا فصل مهم، يجب العناية به ومعرفة أحكامه.

وكذلك ذكر في هذا الفصل حقوق المسلمين، وعدم تكفير المسلم بسبب ذنب ارتكبه، وعدم الغلو في الأشخاص، وألا يحكم لأحد بالجنة أو بالنار بدون دليل من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن كل هذه المسائل وقع فيها كثير من أهل الضلال، وخالفوا الحق فيها، فكان واجباً على أهل السنة والجماعة أن يبينوها ويوضحوها.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ)، محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم النبيين، لا نبي بعده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن تقوم الساعة، فهو آخر الأنبياء، وهو خاتمهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، والخاتم أو الخاتم - بالكسر - هو الآخر، الذي ليس بعده رسول ولا نبي، ولكن شريعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باقية ومستمرة إلى أن تقوم الساعة، وكاملة لا تحتاج إلى

بعثة نبي جديد، كأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستمر بين أظهرنا، وذلك بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فلا حاجة إلى بعثة نبي بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الأنبياء كانت تُبعث إذا اندثرت آثار الرسالات، وعم الجهل في الأمم السابقة، كلما مضى نبي، خلفه نبي آخر، يجدد للناس الدين.

فلما جاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الشريعة الكاملة المحفوظة من التغيير والتبديل، الوافية بحاجات العباد إلى أن تقوم الساعة، فكأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيٌّ، لا يحتاج الناس إلى بعثة رسول جديد؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِن تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي»^(١)، فلذلك خُتِمت الرسالة برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورسالته مستمرة إلى أن تقوم الساعة، وشريعته باقية إلى أن تقوم الساعة، وإنما يأتي بعده المجددون من أهل العلم، الذين يوضحون الشريعة للناس، ويعلمون الناس ما جهلوا منها، فليس بعده رسول، وإنما بعده العلماء والمجددون؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»^(٢)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ»^(٣).

فالعلماء من هذه الأمة يقومون مقام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في البيان والإيضاح والهداية للناس، فلا نبي بعده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا في القرآن،

(١) أخرجه الدارقطني في سننه (٤٤٠/٥)، والحاكم في المستدرك (١/١٧٢)، والبيهقي في الكبرى (١٠/١٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٩١)، والطبراني في الأوسط (٦/٣٢٣)، والحاكم في المستدرك (٤/٥٦٧، ٥٦٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال الله في حق نبيه: ﴿وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وفي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَابُونَ ثَلَاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيُّهُمْ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي»^(١).

فمن اعتقد أنه يأتي بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبي، أو أنه يُبعث نبي، فهو كافر؛ لأنه مكذب لله، ومكذب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومخالف لإجماع المسلمين، ولذلك حكم أهل العلم بكفر كل من ادعى النبوة بعد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، ومن جاء بعدهم ممن يدعي النبوة، حكموا بكفره، وكذلك حكموا بكفر القاديانية، الذين يعتقدون نبوة غلام أحمد القادياني في باكستان، فهؤلاء كفار خارجون من الملة؛ لأنهم زعموا أن بعد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولاً يُبعث، فكفروا لأنهم اعتقدوا أن هذا الرجل -وهو غلام أحمد القادياني- نبي، ويسمون بالقاديانية؛ نسبة إليه.

فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم النبيين، لا نبي بعده، هذه عقيدة يجب على المسلم أن يعتقدوها، وأن يكذب كل من ادعى النبوة بعد بعثة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر الزمان، فإنه ينزل بشريعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيكون تابِعاً لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يحكم بشريعته، ولا يأتي بشريعة جديدة، فهو يُعتبر من المجددين، ومن أتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا نزل، فإنه سيكون من أتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يُشكل نزول المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر الزمان مع قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»، ومع قوله تعالى:

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، وأحمد (٢٧٨/٥)، وأصله في مسلم (٢٨٨٩)، من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]؛ لأن المسيح عليه السلام بنزوله ومكثه في الأرض يحكم بالإسلام وبشريعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال رحمه الله: (وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ)، محمد سيد المرسلين أفضلهم صلى الله عليه وسلم، هو أفضل المرسلين؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ»^(١) فهو سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وهو أفضل الرسل صلى الله عليه وسلم؛ وذلك لما خصه الله به من عموم رسالته إلى جميع الناس، وكان النبي قبله يُبعث إلى قومه خاصة، فهذا الرسول صلى الله عليه وسلم بعثه الله إلى الناس عامة.

ولما ظهر من فضله في ليلة الإسراء على الأنبياء؛ في كونه صلى بهم إماماً في المسجد الأقصى، ورُفع صلى الله عليه وسلم فوق السماوات العلى، وهذا مقام لم يصل إليه غيره من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فهو أفضلهم على الإطلاق.

والأنبياء يتفاضلون، لا شك في ذلك؛ أن الأنبياء يتفاضلون؛ كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَةً وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فالأنبياء يتفاضلون، ولكن لا يجوز لنا أن نتنقص المفضول، وأن نثير هذا الأمر من أجل أن نتنقص المفضول، هذا أمر لا يجوز، نهى عنه صلى الله عليه وسلم،

(١) أخرجه مسلم (٣) (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فقال: «لَا تَفْضَلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ»^(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَفْضَلُونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى»^(٢).

فلا يجوز انتقاص المفضل من الأنبياء؛ لأن الأنبياء لهم فضل، ولهم مكان عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكون بعضهم أفضل من بعض لا يقتضي هذا تنقص المفضل، بل كلهم -عليهم الصلاة والسلام- لهم مكانة عند الله، لا يصل إليها غيرهم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَا يَصِحُّ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يُؤْمِنَ بِرِسَالَتِهِ)، لا يصح إيمان عبد حتى يؤمن برسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقر بنبوته، وفي هذا رد على اليهود والنصارى، الذين يزعمون أنهم على الإيمان، وأنهم أتباع للأنبياء، ولكنهم ينكرون رسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو ينكرون عموم رسالته، يقولون: (هو نبي، ولكنه للعرب خاصة)، فينكرون عموم رسالته، هذا كفر بالله عَزَّ وَجَلَّ؛ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨].

فمن لم يؤمن برسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو كافر، وإن ادعى أنه يؤمن بموسى أو عيسى؛ كاليهود والنصارى، وفي هذا رد على من يريد التقريب

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (١٥٩) (٢٣٧٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤١٦، ٤٦٣١، ٤٨٠٥)، ومسلم (١٦٦) (٢٣٧٣): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى».

بين الأديان الثلاثة، وينادي الآن بالتقارب بين الأديان الثلاثة، ويقول: كلها حق. لا هذا ليس صحيحًا؛ بل بُعث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمر الناس كلهم باتباع هذا الرسول: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لِنَاسٍ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فليس بعد بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا اتباعه، فمن خالفه، وبقي يظن أنه على دين - من دين اليهود، أو دين النصارى -، فإنه كافر بالله عَزَّوَجَلَّ، حتى يؤمن برسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الناس كافة، لا يكفي أن يؤمن برسالته فقط، بل لابد من الإيمان برسالته إلى الناس كافة؛ لأن هناك من يرى أنه رسول، لكنه إلى العرب فقط.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَيَشْهَدُ بِنُبُوَّتِهِ)، ويشهد بنبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالشهادة بأنه رسول الله تأتي بعد شهادة أن لا إله إلا الله، لاتصح إحداها بدون الأخرى.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الْقِيَامَةِ إِلَّا بِشَفَاعَتِهِ) هذا من فضائله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من فضائله أنه لا يؤمن أحد بعد بعثته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلا إذا آمن به، وأقر بعموم رسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن فضائله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لا يُقضى يوم القيامة بين العباد، إلا بشفاعته، وهذا كما مر بنا أن الناس إذا طال عليهم الوقوف في المحشر، يتقدمون لطلب الشفاعة لهم من الأنبياء، بأن يقضي الله بينهم، ويريحهم من

طول الوقوف، فيأتون إلى آدم، ثم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم، ثم إلى موسى، ثم إلى عيسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كلهم يعتذر، تنتهي إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيقوم بها، فيشفع عند ربه، ويدعوه، ويتضرع إليه، حتى يعطيه ما سأل، ويقضي بين العباد.

فهذا من فضائله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشفاعة العظمى والمقام المحمود، الذي يحمده عليه الأولون والآخرون.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أُمَّةٌ إِلَّا بَعْدَ دُخُولِ أُمَّتِهِ) أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم السابقون، وهم الآخرون السابقون يوم القيامة، فلا يدخل الجنة أحد قبل أمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يدخل الناس الجنة إلا بشفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فهو الذي يفتح باب الجنة، وأول من يدخلها من الأمم أمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (صَاحِبُ لَوَاءِ الْحَمْدِ) اللواء: هو العلامة التي يتخذها قائد الجند أو قائد العسكر؛ لأجل اجتماع أتباعه عليها^(١).

والراية في يوم القيامة تكون بيد محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكل الرسل تحت لوائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا إظهار لفضله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

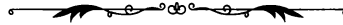
قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالْمَقَامُ الْمَحْمُودُ)، والمقام المحمود الذي سبق في الشفاعة العظمى.

(١) انظر مادة (لوي) في: العين (٣٦٣/٨)، وتهذيب اللغة (٣١٩/١٥)، والصحاح (٢٤٨٥/٦)، ومقاييس اللغة (٢١٨/٥)، ولسان العرب (٢٦٢/١٥).

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَالْحَوْضُ الْمُرُودِ)، والحوض -أيضاً- سبق بيانه والكلام عليه.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَهُوَ إِمَامُ النَّبِيِّنَّ وَخَطِيبُهُمْ)، وهو إمام النبيين؛ كما صلى بهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة الإسراء، ومقدمهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا وفدوا على ربهم، وهو خطيبهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا وفدوا إلى ربهم.

(وَصَاحِبُ شَفَاعَتِهِمْ)، وصاحب شفاعتهم؛ كما سبق في المقام المحمود.



أُمَّتُهُ خَيْرُ الْأُمَمِ، وَأَصْحَابُهُ خَيْرُ أَصْحَابِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَأَفْضَلُ
 أُمَّتِهِ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ، ثُمَّ عُمَرُ الْفَارُوقُ، ثُمَّ عُثْمَانُ ذُو النُّورَيْنِ، ثُمَّ عَلِيٌّ الْمُرْتَضَى
 -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ-؛ لِمَا رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كُنَّا نَقُولُ
 وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيٌّ: أَفْضَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ
 عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ، فَيَبْلُغُ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَا يُنْكِرُهُ»^(١).

وَصَحَّتِ الرَّوَايَةُ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو
 بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ، وَلَوْ شِئْتُ لَسَمَّيْتُ الثَّلَاثَ^(٢).

وَرَوَى أَبُو الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ
 وَلَا غَرِبَتْ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ عَلَى أَفْضَلٍ مِنْ أَبِي بَكْرٍ»^(٣).

(١) أخرج البخاري طرفاً منه من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (٣٦٥٥)، قال: كنا نخير بين
 الناس في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنخير أبا بكر، ثم عمر، ثم عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
 ورواه أيضاً من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ابن أبي عاصم في السنة (٥٦٧/٢) وفيه: فيبلغ
 ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا ينكره. ورواه كذلك الطبراني في مسند الشاميين (٤٠/٣).
 (٢) صحيح: رواه أحمد وابنه عبد الله في المسند من طرق (١٠٦/١)، وفي فضائل الصحابة
 (٧٩/١)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٥١/٦)، وابن أبي عاصم في السنة (١٢٠١)،
 وما بعده (٥٧٠/٢). والطبراني في الأوسط (١٣٩/٣). وروى أبو داود طرفاً منه
 (٤٦٢٩).

(٣) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٣٥)، وعبد بن حميد في مسنده (١٠١/١)، وابن
 أبي عاصم في السنة (١٢٢٤)، وأبو نعيم في الحلية (٣٢٥/٣)، وقال: غريب من حديث
 عطاء عن أبي الدرداء تفرد به عنه ابن جريج، ورواه عنه بقرينة وغيره. اهـ. وابن حبان في
 الثقات (٢٤/٧) والخطيب البغدادي في تاريخه (٤٣٨/١٢)، وابن عساكر في تاريخ
 دمشق (٢٠٨/٣٠). وقال الهيثمي في المجمع (٤٧/٩): رواه الطبراني وفيه بقرينة، وهو
 مدلس، وبقرينة رجاله وثقوا.

وَهُوَ أَحَقُّ خَلْقِ اللَّهِ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِفَضْلِهِ وَسَابِقَتِهِ،
وَتَقْدِيمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ فِي الصَّلَاةِ عَلَى جَمِيعِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَإِجْمَاعِ
الصَّحَابَةِ عَلَى تَقْدِيمِهِ وَمُبَايَعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَجْمَعَهُمْ عَلَى صَلَاةٍ.
ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِفَضْلِهِ وَعَهْدِ أَبِي بَكْرٍ إِلَيْهِ.
ثُمَّ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِتَقْدِيمِ أَهْلِ الشُّوَرَى لَهُ.
ثُمَّ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِفَضْلِهِ، وَإِجْمَاعِ أَهْلِ عَصْرِهِ عَلَيْهِ.
وَهَؤُلَاءِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيُّونَ الَّذِينَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
فِيهِمْ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا
عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ»^(١).
وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْخِلَافَةُ مِنْ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً»، فَكَانَ آخِرُهَا
خِلَافَةُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢).

(١) سبق تخريجه (ص ٦٠).

(٢) رواه أبو داود في سننه (٤٦٤٦)، والترمذي (٢٢٢٦)، وقال: حديث حسن قد رواه غير واحد عن سعيد بن جهمان، ولا نعرفه إلا من حديث سعيد بن جهمان. وأخرجه النسائي في الكبرى (٨٠٩٩)، وأحمد في مسنده (٢٢٠ / ٥) وابن أبي عاصم في السنة [ح ١١٨١ (٢ / ٥٦٢)]، وابن حبان في صحيحه [٦٩٤٣ (١٥ / ٣٩٢) - إحصان]، والحاكم في المستدرک (١٤٥ / ٣)، وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص ٤٨٢، ط: دار ابن الجوزي): وقد صححه الإمام أحمد، واحتج به على خلافة الأئمة الأربعة. وقال العيني في عمدة القاري (٧٤ / ١٦): وهكذا وقع فإن خلافة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ستان وأربعة أشهر إلا عشر ليال، وخلافة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنه عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام، وخلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اثنا عشر سنة إلا اثني عشر يوماً، وخلافة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنه خمس سنين إلا شهرين، وتكملة الثلاثين بخلافة الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما نحواً من ستة أشهر، حتى نزل عنها لمعاوية عام أربعين من الهجرة. اهـ.

الشرح

قال رَحِمَهُ اللهُ: (أُمَّتُهُ خَيْرُ الْأُمَمِ)، أُمَّتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرُ الْأُمَمِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾؛ يعني: عدولاً خياراً، ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فهذه الأمة تُستشهد يوم القيامة على الأمم؛ أنها قد بلغت أُنبياءُها الرسالة، فيشهدون أن الرسل قد بلغوا أممهم. وما الذي أدراهم بذلك؟ قرؤوا هذا في كتاب الله، وعلموه من الوحي المنزَّل. ثم يشهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذه الأمة ويزكيها؛ ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّيَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]، وهذا لفضلهم، وقبول شهادتهم عند الله على جميع الأمم هذا يدل على فضلهم وزكائهم وإيمانهم بالله عَزَّوَجَلَّ، وقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، هذه شهادة من الله على خيرية هذه الأمة، ثم ذكر صفاتهم: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، فأُمَّتُهُ خَيْرُ الْأُمَمِ.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَأَصْحَابُهُ خَيْرُ أَصْحَابِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) أصحاب الرسول محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم خير أتباع الأنبياء، والأصحاب: جمع صاحب وصحابي، والصحابي: هو من لقي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مؤمناً به ومات على

ذلك^(١). يخرج بذلك من آمن بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وقته، ولم يره؛ كالنجاشي رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنه آمن بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واتبعه، ولكنه لم ير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يسمى صحابياً، وإنما يكون من التابعين. وكذلك من لقيه، ولم يؤمن به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك كسائر الكفار، الذين رأوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واجتمعوا به، ولكنهم لم يؤمنوا به، فمجرد لقيا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يكفي، لابد من الإيمان به.

ومات على ذلك، يخرج بذلك من لقيه وآمن به، ثم ارتد، ومات على الردة، فإنه تبطل صحبته، وتبطل جميع أعماله: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ - فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ولهذا يزداد أقوام عن حوضه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا وردوا، فيقول: «يَا رَبُّ أَصْحَابِي، أَصْحَابِي. فَيَقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ»^(٢)، «إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ»^(٣)، فمن ارتد عن الإسلام بطلت صحبته للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبطلت جميع أعماله إلا أن يتوب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فصحابة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم الذين لقوه مؤمنين به، وثبتوا على ذلك إلى وفاتهم، هؤلاء هم صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم أفضل

(١) انظر: شرح التبصرة والتذكرة = ألفية العراقي (٢/ ١٢٠)، والإصابة لابن حجر (١/ ١٥٨)، ونخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر (٤/ ٧٢٤)، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٦/ ١٦٩).

(٢) سبق تخريجه (ص ٢٦٨).

(٣) سبق تخريجه (ص ٢٦٨).

وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴿[التوبة: ١١٧]، فتقديمهم في الذكر يدل على فضلهم على غيرهم.

ثم المهاجرون -أيضاً- يتفاضلون، فأفضلهم على الإطلاق الخلفاء الراشدون: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، هؤلاء هم الخلفاء الراشدون، وهم أفضل صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الإطلاق، ثم من بعدهم العشرة المشهود لهم بالجنة، العشرة: الخلفاء الأربعة، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة بن الجراح، هؤلاء العشرة المشهود لهم بالجنة. سموا بالعشرة المشهود لهم بالجنة؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشرهم بالجنة وهم أحياء؛ كما يأتي في الحديث، فهؤلاء بقية العشرة في المرتبة بعد الخلفاء الراشدين.

ثم السابقون إلى الإسلام أفضل ممن تأخر إسلامهم: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠]، نص الله جلَّ وَعَلَا على السبق، قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهِجَرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ثم أصحاب بدر وأصحاب بيعة الرضوان، هؤلاء لهم مزية على غيرهم من بقية الصحابة، لهم فضائل عظيمة:

أولاً: السبق إلى الإسلام.

وثانياً: الجهاد والهجرة.

وثالثاً: أن منهم من خصه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخصائص لم تكن لغيره.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَفْضَلُ أُمَّتِهِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ)، أفضل الصحابة على الإطلاق الخلفاء الراشدون، هذا ترتيب الخلفاء الراشدين في الفضيلة، ويليهِ ترتيبهم في الخلافة: فأفضل الخلفاء الراشدين أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واسمه عبد الله بن عثمان، و«أبو بكر» كنيته، اشتهر بها، وهو من أسبق السابقين إلى الإسلام، ومواقفه مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معروفة، وهو الذي صحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الهجرة وفي الغار؛ يعني: اختاره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لصحبته في الهجرة، وكان معه في الغار: ﴿إِلَّا نَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾؛ هو وأبو بكر ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾؛ غار ثور في مكة ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾؛ يعني: أبا بكر، شهد الله له بالصحة، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وكذلك موقفه مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة قبل الهجرة، ومدافعتة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبذله لنفسه وماله في نصرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان ملازمًا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أسفاره وفي غزواته، ولما توفى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وارتد من ارتد عن الإسلام، قام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقتال المرتدين، حتى ثبت الله به الإسلام بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفضائله كثيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يحبه حبًّا شديدًا، ويشني عليه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثُمَّ عُمَرُ الْفَارُوقُ)، الثاني: عمر الفاروق؛ عمر بن الخطاب بن عمرو بن نفيل العدوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو في المرتبة الثانية بعد أبا بكر. سباه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالفاروق؛ لأن الله فرق به بين الحق والباطل، فكان المسلمون مستضعفين في مكة، ويتهددهم الكفار، فلما أسلم عمر، أعز الله به

الإسلام، واعتز به المسلمون؛ لقوته وشجاعته وهيبته - رضي الله تعالى عنه -، وهو الخليفة الثاني بعد الخليفة الأول، وذلك بعهد أبي بكر إليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثُمَّ عُثْمَانُ ذُو الثُّورَيْنِ)، ثم عثمان بن عفان ذو النورين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي هاجر المجرتين، هاجر إلى الحبشة، ثم هاجر إلى المدينة، وهو من أسبق السابقين إلى الإسلام، وهو سمي بذي النورين؛ لأنه تزوج ابنتي الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تزوج رقية بنت رسول الله، ثم ماتت معه، ثم زوجه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم كلثوم، ثم ماتت معه، ثم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَلَوْ كَانَتْ عِنْدِي ثَلَاثَةٌ لَزَوَّجْتُهُ»^(١).

وقد أنفق أمواله في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وجهاز جيش العسرة، واختاره أهل الشورى الذين أفضى إليهم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باختيار الخليفة من بعده، فاختاروا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذلك بإجماعهم، هذا دليل على فضله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن فضائله العظيمة توحيده المصحف، لما فتحت الفتوح، وانتشر الصحابة والأنصار، وكثر القراء، وصار بينهم اختلاف في القراءات، وَحَدَّ القراءة على حرف واحد، وكتب المصحف العثماني المشهور، ووزعه على الأمصار، فدرأ الله به فتنة الخلاف في القرآن العظيم، وهذا من حفظ الله لكتابه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ومن فضل هذا الخليفة الراشد الذي قام بهذا العمل الجليل وخُلد ذكره في ذكر المصحف العثماني؛ يعني: المصحف الذي كتبه عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ووجد

(١) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٤٨١)، وعبد الله بن أحمد في فضائل عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١/ ١٢٠).

المسلمين عليه، وأنهى الاختلاف في القراءات، هذا من فضائله - رضي الله تعالى عنه وأرضاه -، وقُتل شهيداً مظلوماً، قد أخبر بذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبشره بالجنة على بلوى تصيبه^(١)، فتحقق ما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقُتل مظلوماً شهيداً - رضي الله تعالى عنه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثُمَّ عَلِيَ الْمُرْتَضَى - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ)، ثم من بعد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هو الخليفة الرابع، وهو ابن عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وزوج ابنته فاطمة، وأبو الحسن والحسين سبطي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيدا شباب أهل الجنة، وجهاده وشجاعته معروفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعبادته وعلمه وزهده وفضله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معروف، هؤلاء الخلفاء الراشدون.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَمَّا رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كُنَّا نَقُولُ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيٌّ: أَفْضَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ، فَيَبْلُغُ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَا يُنْكِرُهُ»)، فهذا دليل على فضلهم، وترتيبهم هذا الترتيب في الفضل؛ أفضلهم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان،

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٦٧٤، ٣٦٩٣، ٣٦٩٥، ٦٢١٦، ٧٠٩٧)،

ومسلم (٢٤٠٣): عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: (كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ فَجَاءَ رَجُلٌ فَاسْتَفْتَحَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ» فَفَتَحْتُ لَهُ، فَإِذَا أَبُو بَكْرٍ، فَبَشَّرْتُهُ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَمَدَ اللَّهَ، ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ فَاسْتَفْتَحَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»، فَفَتَحْتُ لَهُ فَإِذَا هُوَ عُمَرُ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَمَدَ اللَّهَ، ثُمَّ اسْتَفْتَحَ رَجُلٌ، فَقَالَ لِي: «افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ، عَلَى بَلْوَى تُصِيبُهُ»، فَإِذَا عُثْمَانُ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمَدَ اللَّهَ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ).

ثم عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان الصحابة يصرحون بهذا في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقرهم عليه، ولا ينكره عليهم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَصَحَّتِ الرَّوَايَةُ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ، وَلَوْ شِئْتُ لَسَمَّيْتُ الثَّالِثَ)، وهذا عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شهد بأن أفضل هذه الأمة أبو بكر، ثم عمر، وسكت عن الثالث، قيل: المراد به عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقيل: المراد به عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَرَوَى أَبُو الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَلَا غَرِبَتْ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ عَلَى أَفْضَلٍ مِنْ أَبِي بَكْرٍ»)، وهذه شهادة من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَلَا غَرِبَتْ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ عَلَى أَفْضَلٍ مِنْ أَبِي بَكْرٍ».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَهُوَ أَحَقُّ خَلْقِ اللَّهِ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَفْضَلِهِ وَسَابِقَتِهِ)، هذا ترتيبهم في الخلافة، فأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحق خلق الله بالخلافة، أولاً: لأنه أفضل الصحابة على الإطلاق، وثانياً: لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يختاره للصلاة بالمسلمين، لما مرض صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»^(١)، فاختيار الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له للإمامة في الصلاة والوقوف في محرابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دليل على أنه الأحق بالخلافة، وهذا إشارة منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى استخلافه من بعده، ولهذا قال الصحابة لما أرادوا بيعته:

(١) أخرجه البخاري (٦٦٤، ٦٧٩، ٦٨٣، ٦٨٧، ٧١٢، ٧١٣، ٧١٦، ٣٣٨٤، ٧٣٠٣)،

ومسلم (٤١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

«أيرضاك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لديننا، ولا نرضاك لدينانا؟!»^(١)، فقدموه بالخلافة، وهذا بإجماع المسلمين.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَتَقْدِيمُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ فِي الصَّلَاةِ عَلَى جَمِيعِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ)، وكانوا موجودين بما فيهم أبو بكر وعثمان وعلي وأفاضل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومع هذا نص صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تقديم أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولما روجع في ذلك، أصر على أن يُقَدَّمَ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصلاة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَإِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ عَلَى تَقْدِيمِهِ وَمُبَايَعَتِهِ)، إجماع الصحابة في يوم السقيفة بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بيعته واستخلافه بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنهم بايعوه بالإجماع بما فيهم المهاجرون والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَجْمَعْهُمْ عَلَى ضَلَالَةٍ)؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ»^(٢)، حصل اختلاف في الأول، ثم تراجعوا فيما بينهم، ثم انحسم الخلاف، وأجمعوا على بيعة أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِفَضْلِهِ وَعَهْدِ أَبِي بَكْرٍ إِلَيْهِ)، ثم من بعد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخلافة لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذلك بالعهد الذي عهد به أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه لما حضرت أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الوفاة، عهد إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالخلافة، وإذا عهد ولي الأمر من بعده إلى من يخلفه، تعين ذلك؛ كما عهد أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لفضله المعروف، وسابقته في الإسلام،

(١) انظر: التمهيد في أصول الفقه (٧/٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٠)، وابن أبي عاصم في السنة (٤١/١)، والطبراني في الشاميين (٣/١٩٦)، والحاكم في المستدرک (١/٢٠٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوته وصرامته، وأنه لا يخشى في الله لومة لائم، ولتقديم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ له، وعملاً بعهد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

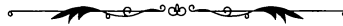
قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثُمَّ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِتَقْدِيمِ أَهْلِ الشُّورَى لَهُ)، الثالث من الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذلك لإجماع أهل الشورى، الذين عهد إليهم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لما حضرته الوفاة، عهد بالأمر إلى أهل الشورى؛ ليختاروا خليفة للمسلمين، وأهل الشورى ستة، هم: عثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، هؤلاء أجمعوا على اختيار عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فبايعه المسلمون.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثُمَّ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِفَضْلِهِ، وَإِجْمَاعِ أَهْلِ عَصْرِهِ عَلَيْهِ)، ولما قُتِلَ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شهيداً مظلوماً، اجتمع المسلمون علىبيعة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه أفضل الصحابة بعد الثلاثة الذين سبقوه، وكان حقيقاً وخليفاً بالخلافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكن حصلت الفتن في وقته؛ لحدوث الشقاق واندساس أصحاب الأهواء والأعداء في صفوف المسلمين، فحصل في وقته من الحروب والشقاق الشيء الكثير، لكن لا شك في خلافته، وأنه خليفة المسلمين بعد أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وما حصل في وقته لا يقدح في خلافته؛ لأنه أمر خارج عن إرادته، وحاول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يقضي على هذه الفتن، وجاهد، وقاتل الخوارج، وحاول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبذل وسعه، لكن لم يتم الأمر على المطلوب. والذين قاتلوه من الصحابة لم ينازعوا في خلافته، الذين قاتلوا في الجمل وفي صفين مع معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم ينازعوا في أنه هو الخليفة، ولكنهم يريدون القصاص من

قتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هذا الذي يريدون، ولم يقاتلوا علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأنهم لا يرون أنه الخليفة، وإنما يريدون القصاص من قتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَهُؤُلَاءِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيُّونَ الَّذِينَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِمْ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ»)، هؤلاء هم المقصودون بهذا الحديث: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي»^(١)، والخلفاء الراشدون هم هؤلاء الأربعة: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ساهم بالخلفاء، وساهم بالراشدين، وأمر بالعمل بسنتهم مع سنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْخِلَافَةُ مِنْ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً»، فَكَانَ آخِرُهَا خِلَافَةُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الخلافة بعده ثلاثون سنة، وقد تحقق هذا في خلافة الخلفاء الأربعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فكانت ثلاثين سنة، ثم من بعد ذلك صار الأمر ملكاً، وجاء الملوك من المسلمين بعد الخلفاء الراشدين، وأعد لهم وأفضلهم وخيرهم معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



وَنَشْهَدُ لِلْعَشْرَةِ بِالْجَنَّةِ، كَمَا شَهِدَ لَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعِيدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ»^(١).

وَكُلُّ مَنْ شَهِدَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجَنَّةِ شَهِدْنَا لَهُ بِهَا، كَقَوْلِهِ: «الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٢).

وَقَوْلِهِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٣).

وَلَا نَجْزِمُ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِجَنَّةٍ وَلَا نَارٍ إِلَّا مَنْ جَزَمَ لَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَكِنَّا نَرْجُو لِلْمُحْسِنِ وَنَخَافُ عَلَى الْمُسِيءِ.

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٦٤٩)، والترمذي (٣٧٥٧)، وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرى (١٦٣٠)، وابن ماجه (١٣٤)، وأحمد (١٨٧/١)، وابن أبي عاصم في السنة (١٤٢٨/٢/٦١٩). والحاكم في مستدركه (٣١٦/٣).

(٢) روي هذا الحديث عن عدد كبير من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، حتى قال السيوطي: هذا متواتر. انظر: فيض القدير (٤١٥/٣)، وقال الذهبي: هذا الحديث قد صحَّ من أوجه كثيرة، وأنا أتعجب أنها لم يخرجها. اهـ. المستدرک (١٦٧/٣)، فقد روي عن أبي سعيد الخدري عند الترمذي (٣٧٦٨)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى (٨١١٣)، وأحمد (١٦٦/٣) وابن حبان (٦٩٥٩ - إحصان)، وأبو يعلى (١١٦٩)، وورد عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في سنن ابن ماجه (١١٨)، والحاكم في المستدرک (١٦٧/٣)، وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الحاكم (١٨٢/٣)، وعن الحسين بن علي عند الطبراني في الأوسط (٣٦٦)، وعن جابر وحذيفة وأبي هريرة وعلي وقرعة بن إياس ومالك بن الحويرث وأسامة بن زيد وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عند الطبراني في الكبير (٢٦١٦، ٢٦٠٨، ٢٦٠٤، ٢٦٠١، ٢٥٩٨، ٢٦١٨، ٢٦١٧).

(٣) رواه البخاري (٣٦١٣)، ومسلم [١٨٧/١١٩]، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشرح

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَنَشْهَدُ لِلْعَشْرَةِ بِالْجَنَّةِ، كَمَا شَهِدَ لَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، هؤلاء العشرة المشهود لهم بالجنة، من الذي شهد لهم؟ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو لا ينطق عن الهوى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا يدل على فضلهم. وكلهم من قريش، وكلهم من المهاجرين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، هذه ميزة عظيمة تضاف إلى فضائلهم، بل هذه أعظم فضائلهم.

وشهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لغيرهم، شهد لعكاشة بن محصن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ من أهل الجنة، لما قال: «ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُجْعَلَ مِنْهُمْ»؛ يعني: من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، قام عكاشة بن محصن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: يا رسول الله، «ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُجْعَلَ مِنْهُمْ»، قال: «أَنْتَ مِنْهُمْ»^(١)، هذه شهادة لعكاشة.

شهد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للحسن والحسين بأنهما من أهل الجنة، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، وشهد لثابت بن قيس بن شماس الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، شهد له بالجنة، قال له: «أَنْتَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، وقتل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شهيداً في حروب اليمامة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا نَجْزِمُ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِجَنَّةٍ وَلَا نَارٍ إِلَّا مَنْ جَزَمَ لَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، نحن لا نشهد بالجنة والنار، إلا لمن شهد له

(١) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/٦٦٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٩٩)، عَنْ مِقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ.

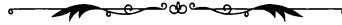
رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما من عداهم، فلا نشهد لأحد معين؛ لا نشهد لمعين بالجنة، ولا لمعين بالنار، ولكننا نرجو للمحسنين، ونخاف على المسيئين، وأما الجزم بالجنة أو بالنار لمعين، فهذا يحتاج إلى دليل من كتاب الله ومن سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لا نجزم لأحد بشهادة أنه شهيد، أو أنه من أهل الجنة، إلا بدليل، لكننا نرجو للمحسن؛ نرجو الشهادة لمن قُتل في سبيل الله، وجاهد لإعلاء كلمة الله، نرجو له الشهادة، وكذلك نخاف على المسيئين من العصاة والمذنبين والفسقة، نخاف عليهم من النار، لكن لا نجزم لهم بالنار؛ لأن الله قد يتوب عليهم.

(مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ)؛ يعني: الذين يصلون إلى القبلة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَكِنَّا نَرْجُو لِلْمُحْسِنِ وَنَخَافُ عَلَى الْمُسِيءِ)؛ لأن الجنة والنار من علم الغيب، الذي لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولم يُعلم به رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما نحن، فلا نعلم الغيب، لا ندري ماذا يكون خاتمة هذا الرجل، هل هي خير أو شر، ولو ظهر منه العمل الصالح والطاعات، فهذا لا يوجب لنا الجزم له بالجنة، لكن هذا يجعلنا نرجو له الجنة، ونحسن به الظن، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ

إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ عَمَلُ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»^(١)، «الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ»^(٢)، ونحن لا نعلم الخواتيم؛ ماذا يُحْتَمُّ لهذا الرجل أو لهذه المرأة، ولكن هذا لا يمنع أننا نُحَسِّنُ الظنَّ بالمسلم، ونرجو له الخير، ونسيء الظنَّ بالفاسق والعاصي، ونخاف عليه من الشر. هذا موقف المسلمين من الشهادة بالجنة والنار.



(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣)، من حديث عبد الله بن

مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠٧)، من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلَا تُكْفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ، وَلَا نُخْرِجُهُ عَنِ الْإِسْلَامِ بِعَمَلٍ.

الشرح

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا تُكْفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ، وَلَا نُخْرِجُهُ عَنِ الْإِسْلَامِ بِعَمَلٍ)، هذه مسألة التكفير، وهي مسألة خطيرة ومهمة جدًا، خصوصًا في هذا الزمان، الذي التبس فيه الحق بالباطل على كثير من الناس بسبب الجهل، وكثرة أدعياء العلم، الذين لم يأخذوا علمهم عن أهل العلم، ولم يتلقوا العلم عن أهل العلم، وصاروا يخطبون في هذا الأمر.

أما من ارتكب ناقضًا من نواقض الإسلام - كالشرك بالله، والسحر، والاستهزاء بالدين، أو تنقص الكتاب والسنة -، فهذا لاشك في كفره.

من ارتكب ناقضًا من نواقض الإسلام، حكمنا عليه بالردة والخروج من دين الإسلام، ونُكْفِرُهُ بذلك؛ لأنه ارتكب ناقضًا من نواقض الإسلام يقتضي رده وكفره.

أما من كان ذنبه دون الردة - كشرب الخمر، وأكل الربا، والزنا، وشرب المسكر، والسرقة -، فهذه كبائر وموبقات خطيرة جدًا، لكن لا نحكم على مرتكبها بالكفر، بل نقول: هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، أو نقول: هو مؤمن ناقص الإيمان. هذا معتقد أهل السنة والجماعة في أصحاب الكبائر، لا نُكْفِرُهُم بِالْكَبَائِرِ، التي لم تبلغ حد الشرك والردة، ولكن نحكم بفسقهم ونقصان إيمانهم؛ خلافًا للخوارج والمعتزلة، الذين يُكْفِرُونَ أصحاب الكبائر

التي هي دون الشرك، ويحكمون على شارب الخمر بأنه كافر، وعلى الزاني بأنه كافر، وآكل الربا بأنه كافر، وهذا ضلال -والعياذ بالله-، هذا ضلال مبين.

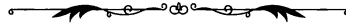
والمعتزلة يقولون: (إنه يخرج من الإسلام، ولا يدخل في الكفر، بل يكون في منزلة بين المنزلتين، لا هو بكافر ولا هو بمسلم)، فإن مات على ذلك، فهو كافر، ويُحَلد في النار؛ كما تقوله الخوارج.

وكلا المذهبين باطل، فالؤمن يبقى معه أصل الإيمان، ولو ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب، وهذه الكبيرة تُنقص إيمانه، وتُفسقه، لكن لا يقال: (إنه كافر)، هذا مذهب أهل السنة والجماعة من هذه المسألة العظيمة.

هناك فريق المرجئة -على العكس من الخوارج والمعتزلة- يقولون: (إن الإيمان في القلب، والتصديق في القلب، ولا تدخل فيه الأعمال، فمهما فعل الإنسان، لا يحكم بكفره، ما دام أنه مؤمن بقلبه)، والإيمان هو التصديق بالقلب. مهما فعل، مهما دعا غير الله، ومهما أشرك، يقولون: (إنه ما دام أنه مصدق بقلبه، مؤمن بالله في قلبه، لانحكم بكفره، لا يضر مع الإيمان معصية -هذا ما يقولونه-؛ كما لا ينفع مع الكفر طاعة، والإيمان بالقلب، وهو شيء واحد، لا يزيد، ولا ينقص عندهم، فإيمان أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مثل إيمان أفسق الناس. هذا ضلال مبين -والعياذ بالله!

فأهل السنة والجماعة يتوسطون بين هاتين الطائفتين الضالتين، فيقولون: (المعاصي الكبيرة تضر مع الإيمان، وتنقص الإيمان، ويحكم بفسق صاحبها ونقصان إيمانه -لا كما تقوله المرجئة-، لكنه لا يخرج بها من الملة -كما تقوله الخوارج والمعتزلة-)، هذا هو الموقف الصحيح المتمشي مع الكتاب والسنة.

قد جاء في الحديث الصحيح أن الله جَلَّ وَعَلَا يقول: «أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَزْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ»^(١). وجاء أيضًا من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ». قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ». قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ». قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ عَلَى رَغَمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ». وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا قَالَ: «وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ»^(٢)، فكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يروي هذه الكلمة ويرددها: «وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ».



(١) أخرجه البخاري (٢٢، ٦٥٦٠، ٧٤٥٤)، ومسلم (١٨٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (٩٤)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَنَرَى الْحَجَّ وَالْجِهَادَ مَاضِيًا مَعَ طَاعَةِ كُلِّ إِمَامٍ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا، وَصَلَاةُ الْجُمُعَةِ خَلْفَهُمْ جَائِزَةٌ.

قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ مِنْ أَصْلِ الْإِيمَانِ: الْكَفُّ عَمَّنْ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا نُكْفِّرُهُ بِذَنْبٍ، وَلَا نُخْرِجُهُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِعَمَلٍ، وَالْجِهَادُ مَا ضُ مُنْذُ بَعَثَنِي اللَّهُ إِلَى أَنْ يُقَاتَلَ آخِرُ أُمَّتِي الدَّجَالُ لَا يُبْطِلُهُ جَوْرُ جَائِرٍ، وَلَا عَدْلُ عَادِلٍ، وَالْإِيمَانُ بِالْأَقْدَارِ»^(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

الشرح

قال رحمه الله: (وَنَرَى الْحَجَّ وَالْجِهَادَ مَاضِيًا مَعَ طَاعَةِ كُلِّ إِمَامٍ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا، وَصَلَاةُ الْجُمُعَةِ خَلْفَهُمْ جَائِزَةٌ)، فمن أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة وجوب الطاعة لولاة أمور المسلمين، وتحريم الخروج عليهم ومعصيتهم ومخالفتهم في غير معصية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لما في ذلك من اجتماع الكلمة، واتحاد المسلمين، وبقاء قوتهم، ولما في الاختلاف من الضرر على المسلمين، وتسلب العدو، وغير ذلك من المحاذير.

ومن حقوق ولادة الأمور الصلاة خلفهم، ولو كانوا فسقة؛ يعني: لو كان عندهم من المعاصي والكبائر ما يقتضي فسقهم، ما لم يصل إلى حد

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٣٢)، وأبو يعلى في مسنده (٢٨٧/٧)، والبيهقي في السنن (١٥٦/٩)، وفي الاعتقاد (ص ١٨٨)، والضياء المقدسي في المختارة (٢٨٥/٧)، وفيه يزيد بن أبي نُشْبَةَ، قال المنذري في مختصر السنن (٣٨٠/٣): هو في معنى المجهول. وقال الذهبي في الكاشف: مجهول، وكذا قال الحافظ في لسان الميزان (٤٤/٧). وقد رواه الطبراني في الأوسط من حديث عليّ وجابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بمعناه (٩٦/٥).

الكفر، ما داموا لم يخرجوا عن الإسلام، فإن ولايتهم باقية، وطاعتهم واجبة، ولا يمتنع من الصلاة خلفهم إلا مبتدع؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر باجتماع الكلمة وائتلاف الأمة تحت قيادة ولي أمرها، ولو كان فاسقاً في نفسه، ما لم يصل إلى حد الكفر، ولو كان ظالماً وجائراً بأخذ المال وسفك الدماء، فإن ذلك لا يميز مخالفته والخروج عليه.

قد صلى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خلف الأمراء الذين عندهم معاص ومخالفات دون الكفر والشرك؛ كالوليد بن عقبة، والحجاج، والمختار بن عبيد، وغيرهم، وابن زياد، ولم يُذكر عن أحد من الصحابة أو من الأئمة أنه ترك الصلاة خلفهم، لاسيما في الشعائر الكبيرة - كصلاة العيدين والجمعة -، وكذلك في الحج يحجون معهم وتحت قيادتهم.

هذا هدي السلف الصالح؛ عملاً بوصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا هو إرشاد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأئمة؛ حيث أخبرهم أنه سيكون هناك اختلاف، قال: «مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي»، قال في الأول: «أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا»^(١)، وفي رواية: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنْ اسْتَعْمَلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، كَانَ رَأْسُهُ زَيْبَةً»^(٢).

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣)، من حديث العرياض

ابن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٣، ٧١٤٢)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعْشَ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرَىٰ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ»، ومن محدثات الأمور والبدع الخروج على أئمة المسلمين، وترك الصلاة خلفهم، ونحو ذلك من المخالفات، فهذا من البدع. السنة طاعتهم، والصلاة خلفهم، والجهاد معهم -أيضًا-، إذا استنفروا المسلمين بالجهاد، أو أمروا أحدًا معينًا بالجهاد، تعين ذلك عليهم؛ طاعة لولي الأمر: «وَإِذَا اسْتَنْفَرْتُمْ فَانْفِرُوا»^(١).

وكذلك الحج، كان الأمراء يقيمون الحج، وفيهم مخالفات دون الكفر، ولم يختلفوا عليهم، ولم يقولوا: (لا نقبل الحج معهم)، ما قالوا هذا، فهذا دليل على هذه المسألة العظيمة، عكس ما عليه الفرق الضالة التي تريد تشتيت الإسلام والمسلمين بزعم الغيرة عندهم، والغيرة ليست هكذا، هذا ليس من الغيرة، بل هذا من البدعة.

ويجب مناصحة ولادة الأمور بالطريقة اللائقة، التي تحببهم في الخير، وتحذرهم من الشر، فالمناصحة واجبة بالطرق الشرعية، لانقول: (إنه يُسكت عن أخطائهم وعن مخالفاتهم)، بل ينصحون بالطرق اللائقة، التي كان السلف ينصحون بها ولادة الأمور، من غير إظهار للإنكار عليهم أو الحديث عنهم في المجالس أو غير ذلك، فإن هذا ليس من هدي السلف،

(١) أخرجه البخاري (١٨٣٤، ٢٧٨٣، ٢٨٢٥، ٣٠٧٧، ٣١٨٩)، ومسلم (١٣٥٣)، من

حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وهذا لا يأتي بخير، وإنما يزيد الشر شراً، لكن إذا وصلت النصيحة لهم بطريقة سرية، تكون بينهم وبين الناصح، فهذا هو هدي السلف، وهذا هو منهج السلف الصالح، فإن قبلوا، فالحمد لله، وإن لم يقبلوا، برئت الذمة، ومسؤوليتهم تكون عليهم. لكن المصلحة في طاعتهم، والمصلحة في موافقتهم فيما وافقوا فيه الحق، هذا يترتب عليه مصالح عظيمة، والإغضاء عن بعض أخطائهم وهفواتهم هذا من ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما، فإن الخروج عليهم ونزع يد الطاعة يلزم عليه من المضار، وسفك الدماء، وتفرق الكلمة، والمنكرات أكثر مما عند الولاة من المنكرات الشخصية الخاصة بهم، ولذلك تجنب السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ منابذة الأئمة، تجنبوا مخالفتهم، وصلوا خلفهم، وحجوا معهم، وجاهدوا معهم، مع العلم بأنه بعد الخلفاء الراشدين وبعد معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جاء أمراء فيهم وفيهم؛ فيهم خير، وفيهم شر، وفيهم من جانب الشر فيه أكثر، ومع هذا كان المسلمون ملتفين حول أئمتهم. هذا منهج أهل السنة والجماعة، وأما مذهب الفرق المخالفة، فسيأتي ذكرها.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (مَعَ طَاعَةِ كُلِّ إِمَامٍ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا)، بَرًّا: يعني عاملاً بالبر، وهو الطاعات، ومستقيم على طاعة الله، وهذا إذا توفّر، فلا شك أن هذا أحسن وأتم، (أَوْ فَاجِرًا)، وهو الفاسق، الفجور: المراد به الفسق هنا، وليس فجور الكفر، أما إذا كفر، فإنه لا طاعة له.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَصَلَاةُ الْجُمُعَةِ خَلْفُهُمْ جَائِزَةٌ)، كان السلف يصلون خلف أمرائهم، وكان الأمراء يصلون بهم الجمعة والعيد، ولم يُذكر عن أحد منهم أنه تخلف عن الصلاة لفسق الأمير أو لظلمه؛ لأنهم إذا قاموا بطاعة الله،

فأطع الله معه، وصلّ معهم، الصلاة عبادة، فإذا أقاموها، صلّ معهم؛ لما في الصلاة معهم من جمع الكلمة.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (قَالَ أَنَسُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ مِنْ أَصْلِ الْإِيمَانِ: الْكُفُّ عَمَّنْ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»)، من قال: «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وجب الكف عنه، حتى يتبين منه ما يخالف هذه الكلمة من أنواع الردة، فإذا ارتكب شيئاً من أنواع الردة بعدما قال: «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، حكمنا بردته، أما ما لم يظهر منه شيء، فإنه مسلم، له ما للمسلمين، وعليه ما على المسلمين، ولا نفتش على ما في القلوب؛ القلوب أمرها إلى الله، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِذَا قَالُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ»^(١)، فنحن ما لنا إلا الظاهر.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَلَا تُكْفِّرُهُ بِذَنْبٍ، وَلَا نُخْرِجُهُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِعَمَلٍ، وَالْجِهَادُ مَاضٍ مُنْذُ بَعَثَنِي اللهُ إِلَيَّ أَنْ يُقَاتِلَ آخِرُ أُمَّتِي الدَّجَالَ لَا يُبْطِلُهُ جَوْرُ جَائِرٍ، وَلَا عَدْلُ عَادِلٍ، وَالْإِيمَانُ بِالْأَقْدَارِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ)، هذا الحديث ضعيف، لكن بعضه موافق للأحاديث الصحيحة. («ثَلَاثٌ مِنْ أَصْلِ الْإِيمَانِ: الْكُفُّ عَمَّنْ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»)، هذا من أصل الإيمان، حتى يظهر منه ما يخالف هذه الكلمة، («وَلَا تُكْفِّرُهُ بِذَنْبٍ»)، ما لم يستحله؛ يعني: ما كان دون الشرك من الذنوب، فإننا لا نكفره به، ما لم يستحله؛ كأكل الربا، إذا أكل الربا، هذا ذنب عظيم، وكبيرة من كبائر الذنوب، لكن إن قال: (إنه حلال)، فهذا كافر؛ لأن الله حرم الربا، وحرمه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأجمعت الأمة على

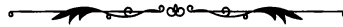
(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٤)، ومسلم (٢١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

تحريمه، أما إذا أكل الربا مع اعترافه بتحريمه، فهذا فاسق. كذلك السارق والزاني وشارب الخمر، بمجرد العمل لا نكفره، لكن لو اعتقد، أو قال: (إنه حلال)، حكمنا بكفره؛ لأنه مكذب لله ولرسوله.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ((وَلَا نُخْرِجُهُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِعَمَلٍ))، المراد بالعمل: ما دون الشرك.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ((وَالْجِهَادُ مَاضٍ مُنْذُ بَعَثَنِي اللَّهُ إِلَى أَنْ يُقَاتِلَ آخِرُ أُمَّتِي الدَّجَالُ لَا يُبْطِلُهُ جَوْرُ جَائِرٍ، وَلَا عَدْلُ عَادِلٍ))، وكذلك هذه الجملة، وهي أن الجهاد ماضٍ حتى يقاتل آخر هذه الأمة الدجال، هذا تشهد له الأحاديث الصحيحة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ((وَالْإِيمَانُ بِالْأَقْدَارِ))، الإيمان بالقدر سبق أنه من أصول الإيمان في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَام: «وَتُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(١).



(١) سبق تخريجه (ص ١١).

وَمِنَ السُّنَّةِ تَوَلَّى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَحَبَّتُهُمْ، وَذَكَرُوا خَاسِرِينَ، وَالتَّرَحُّمُ عَلَيْهِمْ، وَالْأَسْتِغْفَارُ لَهُمْ، وَالْكَفُّ عَنْ ذِكْرِ مَسَاوِيهِمْ، وَمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَاعْتِقَادُ فَضْلِهِمْ، وَمَعْرِفَةُ سَابِقَتِهِمْ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ، ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ»^(١).

الشرح

قال رحمه الله: (وَمِنَ السُّنَّةِ تَوَلَّى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَحَبَّتُهُمْ)، ومن السنة تولى أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومحبتهم، ومحبتهم مطلقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لما خصهم الله به من الصحبة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والسبق إلى الإسلام، والجهاد مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولما فضلهم الله به من العلم والعمل، فهم خير القرون بعد الأنبياء، وأفضل هذه الأمة بعد نبيها محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويجب احترامهم، ولا يجوز الكلام في أحد منهم، ولا يجوز تصيد أخطائهم، إن كان لبعضهم أخطاء، فلا نتصيدا ونظهرها للناس،

(١) رواه البخاري (٣٦٧٣)، مسلم [٢٢٢] (٢٥٤١)، من حديث أبي سعيد الخدري

لا يجوز هذا؛ لما لهم من الفضائل، التي تغطي ما قد يصدر من بعضهم من الخطأ، ويكفر ما عنده من الخطأ، ونحن مأمورون بمحبتهم وموالاتهم والثناء عليهم، وترك تلمس الأخطاء لهم وتنقص أحد منهم، قال الله تعالى فيهم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾؛ يعني: الفيء ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، هذا في المهاجرين، وقال في الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَيْتٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَظْلَمَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزَّعَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، والآيات في مدحهم والثناء عليهم كثيرة.

وأما من السنة، فقد صح في الصحيحين عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ، ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ»، لو واحد من غير الصحابة من المؤمنين أنفق مثل جبل أحد من الذهب في سبيل الله - لا رياء فيه ولا سمعة، خالصًا لوجه الله -، ما بلغ في الثواب والأجر والفضل مثل المد من الطعام الذي يتصدق به صحابي، ولا نصف المد، أكبر الجبال من الذهب لا يعادل المد، وهو ربع الصاع، يتصدق به رجل من صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل نصف المد. أي فضل أعظم من هذا؟! يجيء واحد ويتلمس في بعض الصحابة أخطاء أو عثرات، ويظهرها للناس!! هذا لا يجوز.

ولا يجوز الدخول فيما شجر بينهم في وقت خلافة عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الخلاف بسبب الفتنة، والفتنة إذا جاءت -والعياذ بالله-، فإن خطرها عظيم، أخذت عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قُتِلَ شهيدًا مظلومًا، ببيع لعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يتم له الأمر بسبب ما حصل من الذي زرعه من الفتنة، وصاروا يثيرون الفتن، حتى قامت الحروب بسبب هؤلاء المندسين، قتلوا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم اندسوا في جيش عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم أضرموا الحرب في وقعة الجمل وفي صفين وغيرها، هؤلاء المندسون لم يكونوا من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، إنما هو ناس مندسون من أهل الفتن، الذين يوقدون العداوة، ويصطنعون الخلاف، حتى حصل ما حصل.

ومن دخل فيها من الصحابة، فهو مجتهد، يريد نصرة الحق، وكلهم مجتهدون؛ إما مصيبون، وإما مخطئون، والخطأ مغفور، ولهم من الفضائل

والمناقب ما يكفر ويغطي ما صدر من بعضهم من الأخطاء - رضي الله تعالى عنهم -، ولهم من السوابق في الإسلام، فلا يجوز لنا أن نخوض في الحروب التي حصلت، وفي الفتن التي حصلت، إلا على وجه الاعتذار لهم، أما على وجه التخطئة، فهذا لا يجوز، أهل السنة لا يدخلون هذا المدخل، إنما يعتذرون عن صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يدخلون في هذا الأمر إلا مضطرين، وإلا فالأصل الكف وعدم الدخول، لكن من اضطر للدخول؛ ليرد على مبطل، أو يجادل مارقاً، فإنه يتوقى، ويعتذر عن الصحابة، ويعتقد فضائلهم، وأن ما حصل من بعضهم، فإنه مغفور بفضائله وسوابقه وصحبته لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولهذا - لما ذكر المهاجرين والأنصار - قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، خذ هذه الآية نصب عينيك، ولا تحد عنها: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَذَكِّرْ مُحَاسِنَهُمْ، وَالتَّرَحُّمُ عَلَيْهِمْ، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمْ، وَالْكَفُّ عَنْ ذِكْرِ مَسَاوِيهِمْ، وَمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)، وما شجر بينهم: يعني ما حصل بينهم من الاختلاف؛ لأن هذا الاختلاف بينهم عن اجتهاد، يتحرون فيه الحق والصواب، فما كان من صواب، فلهم فيه أجران، وما فيه من خطأ،

فهو مغفور؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ، فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ، فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ»^(١)، وهم أولى بذلك.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَاعْتِقَادُ فَضْلِهِمْ، وَمَعْرِفَةُ سَابِقَتِهِمْ)، اعتقاد فضلهم ومعرفة سابقتهم، لا يكفي أنك تتحدث عن فضلهم فقط، أو تكتب عن فضلهم، بل لا بد أن تعتقد هذا بقلبك، أما إن كتبت أو تكلمت مجرد كلام أو مجرد كتابة من غير اعتقاد لهذا بقلبك، فهذا لا يكفي.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠])، هذا موقف المؤمنين من صحابة نبيهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ أنهم يستغفرون لهم، ويعترفون لهم بالسبق في الإسلام والإيمان، ويسألون الله أن يزيل الغل - وهو البغض أو الكراهية - لأحد من صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قلوبهم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]) هذه صفتهم، ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾؛ يعني: الصحابة، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾: أقوياء على الكفار، أقوياء لا تأخذهم في الله لومة لائم؛ لأنهم أعداء الله ورسوله، ويبغضونهم أشد البغض، ويتبرؤون منهم، ويجاهدونهم في الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، أما فيما بينهم، فرحمة

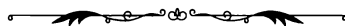
(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦)، من حديث عمرو بن العاص وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بعضهم لبعض كالجسد الواحد^(١)، وكالبنيان يشد بعضه بعضاً؛ كما شبههم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢)، ﴿أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا سُجَّدًا﴾، هذه صفتهم ﴿سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، صفة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كثرة السجود؛ طاعة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وكثرة الصلاة والتهجد في الليل والجهاد في النهار، الجهاد في سبيل الله، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ﴾؛ يعني: صفتهم ﴿فِي التَّوْرَةِ﴾، وصفهم الله بالتوراة بهذه الأوصاف. فهذه الأوصاف لهذه الأمة موجودة في التوراة، التي نزلت على موسى عَلَيْهِ السَّلَام، وإن جردها اليهود وحرفوها، هي موجودة بخبر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى الذي أنزل التوراة. ﴿وَمَثَلُهُمْ﴾؛ يعني: صفتهم ﴿فِي الْإِنْجِيلِ﴾، وهو الكتاب المنزل على عيسى عَلَيْهِ السَّلَام ﴿كَزَيْجٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَتَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾، نشأ الإسلام في الأول ضعيفاً، والصحابة قليلون ومستضعفون مثل الزرع أول ما ينبت، ثم إنه قوي شأنهم؛ مثلما يقوى الزرع ويشد، ﴿أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَتَازَرَهُ﴾؛ يعني: قواه، والشطء: هي فراخ الزرع، ﴿فَاسْتَغْلَظَ

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦): عَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَنِعَاطِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٨١، ٢٤٤٦، ٦٠٢٦)، ومسلم (٢٥٨٥): عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا».

فَأَسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ ﴿١﴾ ارتفع على سوقه، جمع ساق، وهو القصب، هذا مثل
للزراع عندما يتكامل، ﴿يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ﴾، هذا الزرع يعجب الزراع؛ لما فيه
من القوة، ولما فيه من الثمرة، ولما فيه من الالتفاف بعضه مع بعض ﴿لِيَغِظَ
بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾، ليغظ بالصحابة الكفار، فالكفار يغتاظون من الصحابة،
ويغضون الصحابة، واستدل بعض الأئمة على كفر الرافضة من هذه الآية؛
لأن الرافضة يغضون الصحابة، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿لِيَغِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾
[الفتح: ٢٩]، فدل على أن الذي يغتاظ من صحابة رسول الله، ويغضهم؛ أنه
كافر.



وَمِنَ السُّنَّةِ التَّرَضِّي عَنْ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُطَهَّرَاتِ، الْمُبْرَاتِ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، أَفْضَلُهُنَّ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَعَائِشَةُ الصَّدِيقَةُ بِنْتُ الصَّدِيقِ، الَّتِي بَرَّاهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، زَوْجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَمَنْ قَدَّحَهَا بِمَا بَرَّاهَا اللَّهُ مِنْهُ، فَقَدْ كَفَرَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ. وَمُعَاوِيَةُ خَالَ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَاتِبُ وَحْيِ اللَّهِ، أَحَدُ خُلَفَاءِ الْمُسْلِمِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشرح

ومن صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل من خواصهم وأفضلهم: زوجات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهن من أهل بيت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الله لما ذكر أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمرهن بالقرار في البيوت، ونهاهن عن التبرج، وأمرهن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله، قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فدل على أن أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أهل بيته.

قال رحمه الله: (وَمِنَ السُّنَّةِ التَّرَضِّي عَنْ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ)، وهن أمهات المؤمنين، هذا من حقوقهن أنهن أمهات المؤمنين؛ يعني: في الاحترام، والتوقير، وتحريم التزوج منهن بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما أنهن أمهات المؤمنين، فهذا في نص القرآن: ﴿الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، فهن أمهات المؤمنين في التوقير والاحترام، وعدم التزوج منهن: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُزْوَوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ

اللَّهُ عَظِيمًا ﴿[الأحزاب: ٥٣]﴾، لماذا؟ لأنهن زوجاته في الجنة؛ لأن الله خيرهن بين أن يطلقهن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويتزوجن غيره، أو أن يبقين مع رسول الله، ويصبرن على الفقر والفاقة والشدة في المعيشة، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، وصبرن على واقعهن، فجزاهن الله بهذا الجزاء أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، وقصر نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهن: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْبَسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢]، فلما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، قصر الله رسوله عليهن، وجعلهن زوجاته في الآخرة - رضي الله تعالى عنهن.

أما من ناحية الحجاب، ومن ناحية عدم المحرمية، وتحريم الخلوة، فهن كسائر نساء المسلمين أجنبيات، ولذلك أمرهن الله بالحجاب: ﴿يَتَأْتِيَنَّكَ النِّسَاءُ فَلَا زُورَ لَكِ وَبَنَاتُكَ وَزِجَارُهُنَّ وَنِصَابُهُنَّ وَلَا خُلُقُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، أمرهن الله بالحجاب عن رجال الأمة، مع أنهن أمهاتهن، لكن دل على أن هذا ليس في المحرمية، لسن أمهاتهن في المحرمية، ولا في ترك الحجاب، ولا في الخلوة، فإنهن في هذه الأمور كسائر نساء المسلمين؛ مأمورات بالحجاب، ومنهيات عن الخلوة مع أحد.

وأولهن: خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تزوجها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة قبل البعثة، ثم أنزل الله عليه القرآن، وبعثه وهي معه، ولما وجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من نزول الملك عليه والوحي عليه في أول مرة، لما وجد شيئاً من الشدة عليه، وتخوف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نفسه؛ لأنه وجد شيئاً لم يعهده، ولا يعرفه، فتخوف،

فذكر ذلك لها، قال: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، فقالت: «كَأَلَا وَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»^(١)، فما زالت توطئه، حتى هدا من روعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم وقفت معه بالنصرة والتأييد في حياتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في مكة وقت شدة أذى الكفار، وهي إلى جنب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحبها حبًّا شديدًا، ولم يتزوج عليها في حياتها غيرها^(٢)، وأولاده كلهم منها، إلا إبراهيم، فإنه من مارية القبطية، التي تسراها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشي عليها بعد موتها، وكان يكرم صديقاتها بعد وفاتها، ويذكرها بالخير بعد وفاتها، حتى إن بعض أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصابتهن غيرة من ذكره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لخديجة^(٣).

والثانية: سودة بنت زمعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تزوجها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد خديجة في مكة -أيضًا-، وبقيت في عصمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولما أراد

(١) أخرجه البخاري (٣، ٤٩٥٣، ٦٩٨٢)، ومسلم (١٦٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٤٣٦): عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «لَمْ يَتَزَوَّجِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى خَدِيجَةَ حَتَّى مَاتَتْ».

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٨١٦، ٣٨١٧، ٣٨١٨، ٣٨٢١، ٥٢٢٩، ٦٠٠٤، ٧٤٨٤)، ومسلم (٢٤٣٥): عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «مَا غُرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ مَا غُرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ، وَلَقَدْ هَلَكْتُ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَنِي بِثَلَاثِ سِنِينَ، لِمَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا، وَلَقَدْ أَمَرَهُ رَبُّهُ أَنْ يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، وَإِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ ثُمَّ يَهْدِي فِي خُلَّتِهَا مِنْهَا».

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَطْلُقَهَا، قَالَتْ: (أَنَا أَسْقُطُ عَنْكَ حَقِّي، وَأَهْبَهُ لِعَائِشَةَ، وَأَبْقَى فِي عَصْمَتِكَ) ^(١)، تريد بذلك شرف أمهات المؤمنين، فلم يطلقها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومات قبلها، وبقيت في عصمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والثالثة: زينب بنت خزيمة الهلالية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تزوجها ولم تلبث معه إلا قليلاً وتوفيت، ولقد توفي من نسائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو حي ثنتان: خديجة، وزينب بنت خزيمة الهلالية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وتوفيتا قبله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والرابعة: عائشة، الصديقة بنت الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تزوجها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد الهجرة، ودخل بها وهي بنت تسع سنين، ولم يتزوج بكراً غيرها، وحصل لها من الفضائل مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما لم يحصل لغيرها؛ من أن الوحي كان ينزل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فراشها، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحبها حباً شديداً، فهي أحب النساء إليه، وأبوها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو أحب الرجال إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولما مرض صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، استأذن زوجاته في أن يمرض في بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَأَذِنَ لَهُ ^(٢)، وتوفي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورأسه

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٢١٣٥): عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يَا ابْنَ أُخْتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُفَضِّلُ بَعْضَنَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْقِسْمِ، مِنْ مَكْنِيهِ عِنْدَنَا، وَكَانَ قَلَّ يَوْمٌ إِلَّا وَهُوَ يَطُوفُ عَلَيْنَا جَمِيعاً، فَيَدْنُو مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ مِنْ غَيْرِ مَسِيسٍ، حَتَّى يَبْلُغَ إِلَى الَّتِي هُوَ يَوْمُهَا فَيَبِيتُ عِنْدَهَا. وَلَقَدْ قَالَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ: حِينَ أَسَنْتُ وَفَرَّقْتَ أَنْ يُفَارِقَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَوْمِي لِعَائِشَةَ، فَقَبِلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهَا».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٩٨، ٦٦٥، ٢٥٨٨، ٣٠٩٩، ٤٤٤٢، ٤٤٥٠، =

في حجر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا^(١).

وروت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأحاديث والأحكام الشرعية الشيء الكثير، فكانت فقيهة النساء، وكانت تعد من المفتين من صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، التي يرجع إليها الصحابة في الرواية، ويرجعون إليها -أيضاً- في الفتوى.

واختلف العلماء أيهما أفضل: خديجة أو عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؟ والصواب: أن لكل واحدة منهن فضائل ليست عند الأخرى، وأنهن لا يظهر التفضيل بينهما؛ لأن لكل واحدة فضائل تعادل فضائل الأخرى، فهذه لها فضل سبق، والناصرة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنها أم أولاده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لها فضل التعلم والتلقي عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتعليم الأمة أمور دينها، وكانوا يرجعون إليها، وفضل تقرب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها ومحبة لها المحبة الشديدة، هذا يدل على فضلها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والخامسة: ميمونة بنت الحارث الهلالية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والسادسة: حفصة بنت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والسابعة: زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، التي زوجها الله جَلَّ وَعَلَا من فوق سبع سنوات، تولى الله عقد نكاحها لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى:

= (٥٢١٧)، ومسلم (٩١، ٩٢) (٤١٨): عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «لَمَّا ثَقُلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اسْتَأْذَنَ أَزْوَاجُهُ أَنْ يُمَرَّضَ فِي بَيْتِي، فَأُذِنَ لَهُ».

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٣٨٩، ٤٤٣٨، ٤٤٤٦)، ومسلم (٢٤٤٣):

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «مَاتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّهُ لَبَيْنَ حَاقَتِي وَذَاقَتِي، فَلَا أَكْرَهُ شِدَّةَ الْمَوْتِ لِأَحَدٍ أَبَدًا، بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، فالذي عقد لها هو رب العزة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكانت تفتخر على نساء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، تقول: «زَوَّجَكُنْ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللَّهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ»^(٢).

والثامنة: جويرية بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والتاسعة: أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والعاشرة: أم حبيبة، رملة بنت أبي سفيان بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والحادية عشرة: صفية بنت حيي بن أخطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، توفي قبله منها اثنتان، وتوفي هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تسع منهن.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (المُطَهَّرَاتِ، الْمُبَرَّاتِ مِنْ كُلِّ سُوءٍ)؛ لأن الله لم يكن ليختار لنبية صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أطيب النساء وأفضل النساء، قال تعالى: ﴿ الْخَيْثُوتُ لِلْخَيْثِينَ وَالْخَيْثُوتُ لِلْخَيْثِثِ وَالْطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ [النور: ٢٦]، فلم يكن الله ليختار لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من النساء إلا أفضل النساء، واختيار الله لهن لرسوله دليل على فضلهن على غيرهن من نساء الأمة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَفْضَلُهُنَّ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَعَائِشَةُ الصَّدِيقَةُ بِنْتُ الصَّدِيقِ)، اختلف في أفضل أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل هي خديجة أو عائشة؟ على قولين، والصحيح التوقف في هذا، وأن لكل واحدة من الفضل ما ليس عند الأخرى.

(الَّتِي بَرَّأَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ)، ومن لم يبرئها، فهو كافر؛ لأنه مُكذِّبٌ لله ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولإجماع المسلمين، ولما اشتد بها الأمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت:

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ما كنت أتوقع أن الله سينزل في قرآننا يتلى، ولكن كنت أتوقع أن يأتي رؤيا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبرئني الله بها، لكن أنزل الله القرآن العظيم الذي يتلى إلى يوم القيامة في فضلها وبراءتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا^(١).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (زَوْجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَمَنْ قَذَفَهَا بِمَا بَرَّأَهَا اللَّهُ مِنْهُ، فَقَدْ كَفَرَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)؛ لأنه مكذب لله ولرسوله؛ كما تفعله الرافضة -قبحهم الله-، فإنهم يثيرون الفتن؛ لأنهم منافقون، ليسوا مسلمين، يظهرون الإسلام، وهم منافقون في الدرك الأسفل من النار، فهم يثيرون هذه الإشاعة في كتبهم وفيما بينهم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَمُعَاوِيَةُ خَالُ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَاتِبُ وَحْيِ اللَّهِ، أَحَدُ خُلَفَاءِ الْمُسْلِمِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له فضائل، منها أنه خال المؤمنين؛ لأن أخته أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهي من أمهات المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهو أخوها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيكون خالاً للمؤمنين في الفضل، لا في النسب.

ومن فضائله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتخذته كاتباً للوحي، فكان من جملة كتاب الوحي بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يختار الله لكتابة الوحي لرسوله إلا الأمين، فهو من كتاب الوحي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين يدي رسول الله

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦١، ٤٧٥٠، ٧٥٤٥)، ومسلم (٢٧٧٠): عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «وَلَكِنِّي وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ فِي بَرَاءَتِي وَحْيًا يُتْلَى، وَلَكِنِّي فِي نَفْسِي كَأَنِّي أَحْقَرُ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنَّ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبْرِئُنِي اللَّهُ بِهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ الْعَشْرُ الْآيَاتِ».

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد جاهد مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتولى الإمارة على الشام في عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولما حصلت الفتنة في خلافة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقُتِلَ علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبويع للحسن بن علي من بعد أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ورأى الحسن أن الأمر لا يتم له، عند ذلك تنازل معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الخلافة؛ من أجل حقن دماء المسلمين وجمع الكلمة، وهذا ذكره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خبر من المعجزات، حين قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»^(١)، فكان في تنازله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مصالح عظيمة للمسلمين، فاجتمعت الكلمة على معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وساس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الناس بالحكمة والسياسة الشرعية، وساسهم بالعدل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والعقل والحكمة والرفق بالمسلمين، وصار شوكة في حلق الفرق الضالة، شجى في حلق الفرق الضالة، وسد الطريق عليهم، وسُمي العام الذي تنازل فيه الحسن لمعاوية -رضي الله عن الجميع-، سماء المسلمون عام الجماعة؛ لأنه انعقدت فيه الجماعة، وتوحدت فيه الكلمة، وذلك لفضل الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أثر مصلحة المسلمين وجمع كلمة المسلمين على مصلحته هو، تحقق فيه قول الرسول: «وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

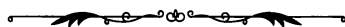
قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَمُعَاوِيَةُ خَالُ الْمُؤْمِنِينَ) ومعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له فضائل: أولاً: أنه من صحابة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فله فضل الصحبة. وثانياً: أنه أخو زوجة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو خال المؤمنين.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٤، ٣٦٢٩، ٣٧٤٦، ٧١٠٩)، من حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وثالثاً: أنه جاهد مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ورابعاً: أنه أمّره عمر بن الخطاب الخليفة الثاني على إقليم عظيم من أقاليم المسلمين، وهو الشام، وساسه خير سياسة، وأحبه الناس حباً عظيماً لحسن سياسته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وخامساً: أنه جمع الله به بين المسلمين، ودرا به الفتنة، التي كانت مشتعلة من مقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى تنازل الحسن، كانت الفتن مشتعلة بين المسلمين. سادساً: ومن فضائله أنه كاتب الوحي، ولم يكن الله ليختار لكتابة الوحي لرسوله إلا الأمين.



وَمِنَ السُّنَّةِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَأُمَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِرَّهِمْ
وَفَاجِرِهِمْ، مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ لِأَحَدٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ،

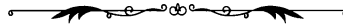
الشرح

قال رحمه الله: (وَمِنَ السُّنَّةِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَأُمَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ
بَرَّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ) هذا مكمل لما سبق مع الولاية (من وجوب الجهاد والحج
مع كل إمام من أئمة المسلمين براءً كان أو فاجراً)، وكذلك السمع والطاعة،
قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا
حَبَشِيًّا»^(١)، السمع والطاعة لولاية الأمور، وهذا في القرآن: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، السمع والطاعة
لولاية أمور المسلمين مذهب أهل السنة والجماعة، وعدم السمع والطاعة لهم
مذهب المبتدعة.

قال رحمه الله: (مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ)، ما لم يأمرُوا بمَعْصِيَةِ اللَّهِ - من
فعل محرم، أو ترك واجب -، فإذا أمرُوا بمَعْصِيَةِ اللَّهِ، لا يطاعون في تلك المعصية،
وتبقى طاعتهم فيما عداها، وهذا ليس معناه أنهم إذا أمرُوا بمَعْصِيَةِ اللَّهِ، تنحل
ولايتهم، أو يجوز الخروج عليهم، لكن نتجنب المعصية التي أمرونا بها،
ونلزم الطاعة فيما عداها من الأمور التي ليس فيها معصية.

(١) سبق تخريجه (ص ٣١٠).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ لِأَحَدٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ)، لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ»^(١)، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى! لكن ليس معنى ذلك أنهم إذا أمروا بمعصية دون الشرك أننا نخلع أيدينا من طاعتهم، بل نتجنب المعصية، ونلزم الطاعة.



(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥٤٥ / ٦)، والخلال في السنة (١١٣ / ١)، من حديث الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورفع الطبراني من طريق الحسن عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الكبير (١٧٠ / ١٨).

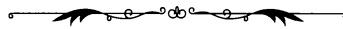
وَمَنْ وَلِيَ الْخِلَافَةَ، وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ وَرَضُوا بِهِ، أَوْ غَلِبَهُمْ بِسَيْفِهِ حَتَّى صَارَ خَلِيفَةً، وَسُمِّيَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَجَبَتْ طَاعَتُهُ، وَحُرِّمَتْ مُخَالَفَتُهُ وَالْخُرُوجُ عَلَيْهِ وَشَقُّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ.

الشرح

الخلافة أو الولاية أو الإمامة في الإسلام تنعقد بأحد ثلاثة أمور:
الأول: اختيار أهل الحل والعقد له؛ كما حصل لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإن بيعته تمت بإجماع أهل الحل والعقد.

ثانياً: العهد، إذا عهد ولي الأمر إلى أحد من بعده، فإنه يلزم طاعته في ذلك؛ كما عهد أبو بكر إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الثالث: إذا تغلب على المسلمين بسيفه وأخضعهم لطاعته؛ كما حصل لعبد الملك بن مروان، وغيره من ملوك المسلمين الذين يخضعون الناس بالسيف؛ حتى ينقادوا لهم، يلزم المسلمين طاعتهم في ذلك؛ لأجل جمع الكلمة، وتجنب المسلمين لسفك الدماء واختلاف الكلمة. بهذه الأمور الثلاثة تنعقد الولاية لولي الأمر.



وَمِنَ السُّنَّةِ هِجْرَانُ أَهْلِ الْبِدْعِ وَمُبَايَنَتُهُمْ، وَتَرْكُ الْجِدَالِ وَالْخُصُومَاتِ فِي الدِّينِ، وَتَرْكُ النَّظَرِ فِي كُتُبِ الْمُبْتَدِعَةِ، وَالْإِضْغَاءِ إِلَى كَلَامِهِمْ، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ فِي الدِّينِ بِدْعَةٌ.

الشرح

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَمِنَ السُّنَّةِ)؛ أي سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، التي هي طريقته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أقواله وأفعاله وتقريراته^(١)، هذا هو المراد بالسنة هاهنا، وليس المراد بالسنة المستحب؛ لأن هجران أهل البدع واجب، وليس بمستحب فقط، وإنما هو واجب.

والسنة في الأصل تطلق، ويراد بها طريقة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد تطلق، ويراد بها المستحب، ولكن الغالب أن المراد بها المعنى الأول، فإذا قيل: (من السنة كذا)، فمعناه: أنه من طريقة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (هِجْرَانُ أَهْلِ الْبِدْعِ)، الهجر: معناه الترك، ومنه الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام؛ فرارًا بالدين، سميت هجرة لأنها ترك للأوطان؛ من أجل الفرار بالدين من الفتنة^(٢)، قال تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]، و﴿وَالرُّجْزَ﴾: هو الأصنام، واهجر: يعني اترك؛ أي: اترك الأصنام

(١) سبق (ص ٦٣).

(٢) انظر الهجرة في اللغة في: النهاية في غريب الأثر (٥/ ٢٤٣)، ولسان العرب (٥/ ٢٥٠)، ومختار الصحاح (ص ٢٨٨).

وانظر الهجرة في الشرع في: أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٥٩٢)، والكافي (١/ ١٨٧)، والمغني (٩/ ٢٣٦)، ومجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٠٤)، وفتح الباري (١/ ١٦)، وفتح القدير (١/ ٢١٨).

وعبادتها وأهلها، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»^(١)؛ يعني: تَرَكَ ما نهى الله عنه، فلهجرة ترك، وهجران أهل البدع يعني: ترك مصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم والتعلم منهم، إلا على طريق المناصحة والبيان، وأما على طريق المؤانسة والمحبة، فإن هذا لا يجوز؛ لأن فيه رضا بما هم عليه من البدع وتشجيعاً لهم، وفيه إقرار لهم على ما هم عليه، والواجب هجرهم حتى يعرف الناس شرهم، ويتعدوا عنهم؛ لأن الغالب أن المبتدع لا يقبل النصيحة، ولا يتوب إلى الله عَزَّجَلَّ؛ لأنه يرى أن ما هو عليه هو الحق، يزينه له الشيطان، فقلَّ أن يقبل النصيحة، وقلَّ أن يتوب، ولهذا جاء في الأثر «أَنَّ الْبِدْعَةَ أَحَبُّ إِلَى الشَّيْطَانِ مِنَ الْمَعْصِيَةِ»^(٢)؛ لأن المبتدع لا يتوب عن بدعته، وأما العاصي، فإنه يعلم أن ما فعله حرام، فيكون خجلاً، يوبخ نفسه، ثم يتوب إلى الله عَزَّجَلَّ، إنه قريب من التوبة، خلاف المبتدع؛ فإنه يرى أن ما هو عليه هو الحق، فلا يرجع عن بدعته، ويرى أن ما هو عليه مشروع.

والبدعة: هي إحداث شيء في الدين ليس منه على سبيل التقرب إلى الله عَزَّجَلَّ، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»^(٣)، وفي رواية: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ، فَهُوَ رَدٌّ»^(٤)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(١) أخرجه البخاري (١٠، ٦٤٨٤)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٢) أخرجه ابن الجعد في مسنده (ص ٢٧٢)، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ١٤٩)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٦)، وابن بشران في أماليه (١/ ٣٠٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢/ ٥٣)، والبعوي في شرح السنة (١/ ٢١٦)، قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: «الْبِدْعَةُ أَحَبُّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، الْمَعْصِيَةُ يُتَابُ مِنْهَا، وَالْبِدْعَةُ لَا يُتَابُ مِنْهَا».

(٣) سبق تخريجه (ص ٦٤).

(٤) سبق تخريجه (ص ٦٤).

«عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَصُوا عَلَيَّهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(١).

إن الله تعالى لا يرضى أن يتقرب إليه إلا بما شرع؛ لأن الدين كَمَلٌ - والله الحمد -: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فما توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلا بعد أن أكمل الله به الدين، فلم يبق مجال للزيادات والاستحسانات، فمن ابتدع بدعة، فقد اتهم الدين بأنه ناقص، وكَذَّبَ قوله تعالى: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

والبدعة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: بدعة أصلية؛ كأن يحدث عبادة ليس لها أصل في الدين، كإحداث بدعة الاحتفال بالمولد، هذه لا أصل لها في الدين، لا موالد الرسل، ولا موالد غيرهم من الأولياء والصالحين، وإن حسنوها ورغبوا فيها، وأشاعوا عنا بأنها خير، هي بدعة وشر، هي شر، وإن قالوا: (إنها بدعة حسنة)؛ لأن هذا مصادم لقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(٢)، فالبدع كلها ضلالة بنص حديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالذي يدعي أن هناك بدعة حسنة مُكذَّبٌ لله ولرسوله، ليس في الدين بدعة حسنة، بل الدين ما شرعه الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، أما البدع، فإنها من أهواء الشياطين.

(١) سبق تخريجه (ص ٦٠).

(٢) سبق تخريجه (ص ٦٠).

وإذا فتحنا المجال، تغير الدين بهذه الطريقة؛ كلُّ يُحدث ما يستحسن، وكلُّ يعمل ما يشاء، ثم يُقضى على السنن، ولا تجتمع السنن والبدع؛ كما جاء في الحديث: «مَا أَحْدَثَ قَوْمٌ بَدْعَةً إِلَّا رُفِعَ مِثْلُهَا مِنَ السُّنَّةِ»^(١)، فيتحول الدين من سنن إلى بدع ومحدثات، فلا يُفتح المجال أبداً للبدع، ولا يتساهل فيها أبداً.

القسم الثاني: بدعة نسبية؛ بأن أصل الشيء مشروع، لكن يخصص بزمان أو بمكان لم يشرعه الله ولا رسوله، مثلاً: صيام بعض الأيام خاصة؛ مثل: صيام يوم النصف من شعبان، أو صيام شهر رجب -تخصيص رجب بالصوم-، أو صيام النصف من شعبان بدعة، الصيام أصله مشروع، لكن إضافة تخصيص الوقت بدون دليل؛ بأن تخصص وقتاً للصوم بدون دليل، أو تخصص مكاناً للعبادة بدون دليل، هذه بدعة في الدين، ما أنزل الله بها من سلطان. أن تخصص مكاناً أو زماناً للعبادات الشرعية هذا لا أصل له في الدين، وهو يكون بدعة إضافية؛ لأنك أضفت إلى العبادة المشروعة شيئاً من البدعة.

وسواء كانت البدعة أصلية، أو كانت إضافية، فإنها مردودة على صاحبها، ويجب التحذير منها ومن أصحابها.

جاء أبو موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وكان أميراً على الكوفة-، جاء إلى ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان هو المفتي في الكوفة والقاضي، فقال: «يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنِّي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢/٢٨)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (١٧٦/١)، وابن قانع في معجم الصحابة (٣١٦/٢)، من حديث غُضَيْفِ بْنِ الْحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ آيَةً أَمَرًا أَنْكَرْتُهُ وَلَمْ أَرَ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - إِلَّا خَيْرًا. قَالَ: فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: إِنَّ عِشْتَ فَسْتَرَاهُ. قَالَ: رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَوْمًا حَلَقًا جُلُوسًا يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ فِي كُلِّ حَلَقَةٍ رَجُلٌ، وَفِي أَيْدِيهِمْ حَصَا، يَقُولُ: كَبَرُوا مِائَةً، فَيَكْبَرُونَ مِائَةً، يَقُولُ: هَلَّلُوا مِائَةً، فَيَهْلَلُونَ مِائَةً، وَيَقُولُ: سَبَّحُوا مِائَةً، فَيَسَبِّحُونَ مِائَةً، قَالَ: فَمَاذَا قُلْتُمْ لَهُمْ؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَهُمْ شَيْئًا أَنْتَظَرُ رَأْيَكَ أَوْ أَنْتَظَرُ أَمْرَكَ. قَالَ: أَفَلَا أَمَرْتُهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ، وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ. ثُمَّ مَضَى وَمَضَيْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَى حَلَقَةً مِنْ تِلْكَ الْحَلَقِ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي أَرَأَكُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَصَا نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ. قَالَ: فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ، فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ وَيُحْكَمَ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، مَا أَسْرَعَ هَلَكَتِكُمْ هَؤُلَاءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَوَافِرُونَ، وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَمْ تَبَلْ، وَأَنْيَتُهُ لَمْ تُكْسَرْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ لَعَلَى مَلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مَلَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ مُفْتَسِحُوا بَابِ ضَلَالَةٍ. قَالُوا: وَاللَّهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مَا أَرَدْنَا إِلَّا الْخَيْرَ. قَالَ: وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ^(١)، ثُمَّ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْعَمَلُ.

التسبيح والتهليل والتكبير مطلوب، لكن بدون هذه الصفة، بدون هذا الاجتماع، وبدون عدد محدد، إلا بدليل، التهليلات والتسبيحات والتكبيرات لا تحدد إلا بدليل من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فأنكر عليهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه الصفة التي أحدثوها، هي البدعة، لم ينكر عليهم الذكر، ولكن

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٢٨٦/١ - ٢٨٧)، وفي مسنده (١٢٠/١)، والقرطبي في تفسيره (١٤٠/٧).

أنكر عليهم هذه الصفات المحدثه، وغلظ عليهم في ذلك، وأنكر عليهم، وفرّقهم. قال الراوي: «رَأَيْنَا عَامَّةً أُولَئِكَ الْحَلَقِ يُطَاعُونَنَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الْخَوَارِجِ»، بدعتهم تحولت بهم إلى مذهب الخوارج؛ حيث قاتلوا أهل السنة في وقعة النهروان، التي كانت بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبين الخوارج، صاروا مع الخوارج، هذا مآل البدعة -والعياذ بالله- وكيف تذهب بصاحبها.

فمن طريقة أهل السنة، هجران أهل البدعة؛ حتى يتردعوا عن بدعتهم؛ لأن في عدم هجرتهم تشجيعاً لهم، وإقراراً لهم، وتغريراً بالناس -أيضاً-؛ أن يندفعوا بهم، فإذا هجرهم أهل العلم والقدوة، فالناس يتركونهم، وهم -أيضاً- ينجحون أمام الناس، ولهذا كانت البدع مغمورة في عهد الصحابة والقرون المفضلة، وإنما ظهرت بعد القرن الرابع، بعد مضي القرون المفضلة ظهرت البدع في الناس.

ولا يقال ما يقوله بعض الجهال الآن: (إن المبتدع تذكر حسناته، ويبين ما عنده من البدع)، وما يسمونه الموازنات، فهذا فيه ترويج للبدع، نحن لم نؤمر بعدد الحسنات، هذا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم ما الذي يدرينا عن حسناتهم، وأنها حسنات عند الله؟ ما الذي يدرينا عنها؟ لم نؤمر بهذا، وإنما أمرنا أن ننبه على الخطأ؛ ليجتنبه الناس، وليتوب المخطئ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، إذا أراد الله به خيراً، أما أن تذكر حسناته ومزاياه، فهذا يهون البدعة عند الناس.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَمُبَايَنَتُهُمْ)، ومباينتهم يعني: مفارقتهم وعدم مصاحبتهم ومجالستهم؛ من أجل أن يحذرهم الناس، ومن أجل أن ينجلوا هم، ويكونوا

ضعفاء في المجتمع؛ كما كان ذلك في عهد القرون المفضلة، كان المبتدعة مغمورين، لا قيمة لهم، ولا يؤبه بهم، وإنما ظهوروا بعد مضي القرون المفضلة.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَتَرَكُ الْجِدَالِ وَالْخُصُومَاتِ فِي الدِّينِ)، كذلك من السنة ترك الخصومات في الدين، الدين - والله الحمد - واضح، بينه الله ورسوله، والواجب علينا الامتثال والعمل، ولا نتخاصم في أمور العبادات وأمور الدين، ونناقش لماذا شرع الله كذا؟ ولماذا أمر الله بكذا؟ وما هي الفائدة في كذا؟ كما يفعل بعض الناس، يمضون وقتهم في هذه الأمور: لماذا كذا؟ ولماذا كذا، ما الحكمة في كذا؟ كأنه عنده شك، فالواجب الامتثال، إذا صح الدليل عن الله وعن رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فواجبك الامتثال وترك الجدل والخصومة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، إن عرفت الحكمة، فالحمد لله، وإن لم تعرفها، فلست بمكلف بالبحث عن الحكمة، أنت مكلف بمعرفة الدليل، وما دام قد عرفت الدليل، وجب عليك الامتثال، ولا يتوقف امتثالك على معرفة الحكمة.

هذا سبيل المؤمنين، أما سبيل أهل الشك وأهل الضلال، فهو الجدل والخصومات والنقاش مع أوامر الله وأوامر رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإضاعة الوقت في هذه الأمور، وتنقص الأوامر والنواهي عندهم، فهذا من عمل الشيطان - والعياذ بالله -، فهذا في الجدل الذي لا فائدة من ورائه، أما الجدل الذي فيه فائدة في إظهار الدين ورد الشبه، فهذا واجب، قال تعالى لنبيه:

﴿وَجَدِلْهُمْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فالجدال إذا كان المقصود منه إظهار الحق، وقمع الباطل، ورد الشبه، فهذا جدال محمود؛ لأنه لبيان الحق وحماية الدين، أما الجدال الذي يقصد منه التعسف والتكلف وإظهار الشخصية عند الناس، فهذا لا يجوز؛ لأنه لا فائدة من ورائه، بل يوغر الصدور، ويوقع العداوة بين الناس.

فالجدال الذي لا فائدة من ورائه هذا منهي عنه.

في عهد عمر ظهر رجل يقال له: صبيغ، كان يجادل في بعض الأمور، يسأل عن متشابه القرآن، فاستدعاه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضربه، ثم أجلاه من المدينة، حتى تاب إلى الله عَزَّجَلَّ، ورجع عما هو عليه.

هذا دليل على أن الذي ليس له هم إلا الجدال والمناقشات في أمور العبادات والتشكيك في أمور الدين؛ أن هذا رجل سوء، ينبغي أن يؤدب، ويمنع من هذه الأمور والتظاهر بها أمام الناس.

ويدخل في ذلك ما يعمله بعض الجهال الآن من التشكيك في الأحاديث وتضعيفها، ويثنون هذا بين الناس والعوام، العوام ما مصلحتهم في هذا؟ هذا يشكك الناس في أمور الدين، ويشككهم في السنة، لا يُظهر هذا أمام الناس وأمام الجهال والمبتدئين في طلب العلم، هذا إنما يكون من شؤون العلماء المتخصصين في أمور الجرح والتعديل وأمور الشريعة، ويكون بينهم، ولا يظهر للناس أمام الناس، فيجب الحذر من هذه الطريقة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَتَرَكُ النَّظَرَ فِي كُتُبِ الْمُتَبَدِّعَةِ، وَالْإِضْغَاءِ إِلَى كَلَامِهِمْ)،

هذا عود على ما سبق، فإذا كان الواجب هجر المبتدعة، فإنه يجب هجر كتبهم -أيضاً-؛ لأنهم ربما يكونون قد ماتوا، وليسوا بين أظهرنا، ماتوا ولكن كتبهم بقيت، وكثير من كتب المبتدعة باقية، فلا يجوز للإنسان المبتدئ الذي ليس عنده أهلية أن يطلع على هذه الكتب؛ لأنه يغتر بها فيها، وتروج عليه، أما الإنسان المتمكن في العلم الراسخ في العلم، فإن له أن يطلع على هذه الكتب؛ من أجل أن يرد عليها، ويحذر الناس مما فيها، أما من ليست عنده أهلية علمية، يعرف بها الحق من الباطل والخطأ من الصواب، فليس له أن يطلع في كتب أهل البدع وكتب الفرق الضالة؛ لئلا تدخل في فكره وفي عقيدته؛ لأنه جاهل، هي قد يكون لها بريق، ولها عبارات رشيقة، تضر الإنسان الذي ليس عنده بصيرة؛ لأن الغالب أن أهل الجدل يعطون الفصاحة والشقاشق من أجل الفتنة -والعياذ بالله-، قال الله جَلَّوَعَلَا في المنافقين: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]؛ لأنهم يحسنون القول، حتى إن الذي يسمعهم يظن أنهم على صواب، ينمقون الكلام والحجج، ويحسنون صياغة الألفاظ، وهم منافقون في الدرك الأسفل من النار، والشاعر يقول:

فِي زُخْرَفِ الْقَوْلِ تَزْيِينٌ لِبَاطِلِهِ وَالْحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرٍ^(١)

يقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

(١) سبق (ص ٧٤).

فالزخرف أصله التزيين والتنميق، فأصحاب الضلال في الغالب عندهم تزويق للعبارات وتنميق في خطبهم وفي محاضراتهم وفي كتبهم، فإذا سمعها أو قرأها الإنسان الجاهل، انطلت عليه، وتمكنت من القلب، فلذلك يُحذر من مطالعة كتب أهل البدع، والاستماع إليهم في دروسهم أو محاضراتهم أو برامجهم، يحذر الإنسان من الاستماع إليهم، إلا على وجه يريد الإنكار عليهم، وهو يقدر على ذلك، ويعرف الحق من الباطل.

فهذا مقتضى التعامل مع أهل البدع وكتبهم، بعض الناس يقولون: (اطبعوا كتبهم، وروجوها؛ لأجل الثقافة، وهذه آراؤهم، والناس أحرار في آرائهم، وفي أن يبدوا ما عندهم)، نقول لهم: هذا لا يجوز؛ لأنه فتح باب شر على المسلمين، بل يجب أن تصدر كتب أهل البدع وكتب أهل الضلال؛ أن تصدر من أسواق المسلمين ومن مكباتهم ومن متناول أيديهم؛ لأنها سموم؛ مثلما يُحجر على الناس في السموم، وتُمنع السموم من الانتشار، فهذه الكتب أضر -والعياذ بالله-، كذلك كما يحمي الناس ويحجر على المرضى من أجل صحة أبدانهم، فهذا أولى أن يحجر عليه صحياً؛ لأن السم يغير الأبدان، وكتاب الضلال يغير الإيمان والعقول، فهو أخطر وأشد، فيجب الحجر عليه من أجل سلامة الدين والعقيدة.

فلا نتساهل في كتب أهل البدع وكتب أهل الضلال، ونقول: (هذه ثقافة، والإنسان يصبح عنده اتساع فكر وعقل، لا يضيق)، هذا كله من الدعاية للباطل.

فالواجب أن يُحذر من أهل البدع، ويُحذر من سماع كلامهم، ويُحذر من كتبهم، بقاء كتبهم من بعدهم بلية، لا نقول: (إنهم ماتوا، وذهبوا)، هم وإن ماتوا بأبدانهم، إلا أن أفكارهم موجودة في هذه الكتب، ولها باعة وزبائن يروجونها. فيجب الحذر من ذلك غاية الحذر؛ فإنها خطر يهدد المسلمين.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ فِي الدِّينِ بِدْعَةٌ)، لما حذّر من البدع والمبتدعة، أراد أن يبين ما هي البدعة؟ قال: (كُلُّ مُحَدَّثَةٍ فِي الدِّينِ بِدْعَةٌ)؛ لأن الدين لا يقبل البدع، الدين هو ما شرعه الله ورسوله فقط، ولا يُقبل ما شرعه فلان أو قاله فلان، إلا بدليل من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كل محدثة في الدين، فإنها بدعة. أما المحدثات في أمور العادات وأمور المنافع، فالأصل فيها الإباحة -والحمد لله-، حدث أشياء من الصناعات والاختراعات، لم تكن موجودة من قبل، لا نقول: (إن هذه بدع)، بل نقول: هذه مما أباحها الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن هذه ليست من أمور الدين، هذه من أمور العادات وأمور المصالح التي خلقها الله لعباده، فنحن نركب الطائرة والسيارة والباخرة، ونستعمل مكبرات الصوت والمسجلات، كل هذه مخترعات ليست من الدين، إنما هي وسائل نفع للناس، ومن استخدمها في الخير، صارت نعمة وعوناً على طاعة الله، ومن استعملها في الشر، فهذه من سوء تصرفه هو، وإلا فهي مصالح للناس.

فالخاص أن البدع هي ما أحدث في الدين، أما ما أحدث في أمور العادات وأمور الصناعات وأمور الدنيا، فهذه ليست من البدع.

الصحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يجاهدون بالرمح وبالسهم والنبل والسيوف، والآن حدث ما تعلمون من الأسلحة المتطورة؛ الصواريخ والطائرات

والدبابات والقنابل، حدث أشياء لم تكن موجودة من قبل، هل نقول: هذه بدع ولا نريدها؟ لا. يجب علينا أن نأخذ ما يعيننا على قمع عدونا، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾: هذه نكرة في سياق الأمر، فتعم كل قوة، وفي كل وقت بحسبه وإمكانياته. ولو بقينا على الرمح والنبل والسيف مع وجود هذه الأسلحة المدمرة والفتاكة، لما أغنت عنا شيئاً، يمكن أن تدفع شيئاً يسيراً، لكن لا تدفع هجوم العدو وقوة العدو، لا تدفع إلا بمثلها أو أشد منها، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، قال: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، ولم يحدد ﴿مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]؛ لأن الخيل فيها الخير إلى يوم القيامة؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١)، فهي ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، هناك أعداء مندسون بيننا، لا نعلمهم، إذا أعددنا القوة، أغظنا العدو الخارجي والعدو الداخلي، أما إذا لم نعد القوة، فرح العدو الخارجي والعدو الداخلي، فلا بد من القوتين: قوة الحجة، وقوة السلاح، وذلك بإعداد آلات الجهاد المتطورة في كل زمان بحسبه، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، أما المنافقون، فإنهم يجاهدون بالحجة واللسان، وأما الكافرون، فإنهم يجاهدون بالسيف والسنان.

(١) أخرجه مسلم (١٨٧٢)، من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَكُلُّ مُتَسَمٍّ بِغَيْرِ الْإِسْلَامِ وَالسُّنَّةِ مُبْتَدِعٌ؛ كَالرَّافِضَةِ، وَالْجَهْمِيَّةِ،
وَالْخَوَارِجِ، وَالْقَدَرِيَّةِ، وَالْمُرْجِيَّةِ، وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَالْكَرَامِيَّةِ، وَالْكَلَابِيَّةِ، وَنُظَرَائِهِمْ،
فَهَذِهِ فِرْقُ الضَّلَالِ وَطَوَائِفُ الْبِدْعِ^(١)، أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهَا.

(١) قال الشيخ العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في تعريف هذه الطوائف:

الرَّافِضَةُ: وهم الذين يغفلون في آل البيت، ويكفرون من عاداتهم من الصحابة أو يفسقونهم
وهم فرق شتى، فمنهم الغلاة الذين ادَّعوا أن علياً إله، ومنهم دون ذلك، وأول ما
ظهرت بدعتهم في خلافة علي بن أبي طالب حين قال له عبد الله بن سبأ: أنت الإله.
فأمر علي بإحراقهم، وهرب زعيمهم عبد الله بن سبأ، ومذهبهم في الصفات مختلف،
فمنهم المشبهة، ومنهم المعتدل، وسمّوا رافضة لأنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين بن
علي بن أبي طالب حين سأله عن أبي بكر وعمر، فترحم عليهما، فرفضوه، وبعثوا عنه،
وسمّوا أنفسهم شيعة لأنهم يزعمون أنهم يتشيّعون آل البيت ويتصرون لهم، ويطالبون
بحقهم في الإمامة.

الْجَهْمِيَّة: نسبة إلى الجهم بن صفوان الذي قتله سالم أو سلم بن أحوز، سنة ١٢١ هـ
ومذهبهم في الصفات التعطيل والنفي، وفي القدر القول بالجبر، وفي الإيمان القول
بالإرجاء، وهو أن الإيمان مجرد الإقرار بالقلب وليس القول والعمل من الإيمان، ففاعل
الكبيرة عندهم مؤمن كامل الإيمان، فهم معطلة جبرية مرجئة، وهم فرق كثيرة.

الْخَوَارِج: وهم الذين خرجوا لقتال علي بن أبي طالب رَحِمَهُ اللَّهُ بِسَبَبِ التحكيم، مذهبهم
التبرؤ من عثمان وعلي رَحِمَهُمَا اللَّهُ والخروج على الإمام إذا خالف السنة وتكفير فاعل الكبيرة
وتخليده في النار، وهم فرق عديدة:

الْقَدَرِيَّة: وهم الذين يقولون بنفي القدر عن أفعال العبد، وأن للعبد إرادة وقدرة مستقلتين
عن إرادة الله وقدرته، وأول من أظهر القول به معبد الجهني في أواخر عصر الصحابة
تلقاها عن رجل مجوسي في البصرة، وهم فرقتان: غلاة وغير غلاة، فالغلاة ينكرون علم
الله وقدرته وخلقهم لأفعال العبد، وهؤلاء انقرضوا أو كادوا، وغير الغلاة يؤمنون بأن الله
عالم بأفعال العباد؛ لكن ينكرون وقوعها بإرادة الله وقدرته وخلقهم، وهو الذين استقر
عليه مذهبهم.

الْمُرْجِيَّة: وهم الذين يقولون بإرجاء العمل عن الإيمان أي تأخيرها عنه، فليس العمل
عندهم من الإيمان، والإيمان مجرد الإقرار بالقلب، فالفاسق عندهم مؤمن كامل الإيمان، =

الشرح

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَكُلُّ مُتَمَسِّمٍ بِغَيْرِ الْإِسْلَامِ وَالسُّنَّةِ مُبْتَدِعٌ)، ومن البدع -أيضاً-: التسمي بغير الإسلام والسنة، كالذي ينتسب إلى مبدأ، أو إلى مذهب، أو إلى شخص غير رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالانتساب إنما يكون إلى أهل السنة والجماعة، والاتباع لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا هو الانتساب

= وإن فعل ما فعل من المعاصي، أو ترك ما ترك من الطاعات، وإذا حكمنا بكفر من ترك بعض شرائع الدين فذلك لعدم الإقرار بقلبه، لا لترك هذا العمل، وهذا مذهب الجهمية، وهو مع مذهب الخوارج على طرفي نقيض.

المعتزلة: أتباع واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري، وقرر أن الفاسق في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، وهو مخلد في النار، وتابعه في ذلك عمرو بن عبيد، ومذهبهم في الصفات: التعطيل كالجهمية، وفي القدر: قدرية ينكرون تعلق قضاء الله وقدره بأفعال العبد، وفي فاعل الكبيرة: أنه مخلد في النار، وخارج من الإيمان في منزلة بين المنزلتين الإيمان والكفر، وهم عكس الجهمية في هذين الأصلين.

الكرامية: أتباع محمد بن كرام، المتوفى سنة ٢٥٥ هـ، يميلون إلى التشبيه والقول بالإرجاء، وهم طوائف متعددة. اهـ. انظر: شرح اللمعة (ص ١٦١-١٦٣)، ولم يذكر الشيخ الكلابة، وهي الفرقة الثامنة.

الكلابية: أتباع أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري رأس المتكلمين، ومن أهم البدع التي ابتدعها بدعتان: الأولى: القول بالكلام النفسي. والثانية: بدعة نفي الصفات الاختيارية. قال الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: وكان يقول بأن القرآن قائم بالذات بلا قدرة ولا مشيئة، وهذا ما سبق إليه أبداً. اهـ. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية عن الكلابة والأشعرية: الذين يقولون إن القرآن العربي ليس هو كلام الله، وإنما كلامه المعنى القائم بذاته، والقرآن العربي خلق ليدل على ذلك المعنى. اهـ. وقال ابن أبي العز: عارض هؤلاء من الصفاتية ابن كلاب، ومن وافقه، فقالوا: لا يوصف الله بشيء يتعلق بمشيئته وقدرته أصلاً، بل جميع هذه الأمور صفات لازمة لذاته قديمة، فلا يرضى في وقت دون وقت، ولا يغضب في وقت دون وقت. اهـ. وكانت وفاته سنة ٢٤٢ هـ. وانظر لما سبق سير أعلام النبلاء (١١/١٧٤)، والفتاوى (١٢/١٢٠).

الصحيح، أما الانتساب لأهل الفرق والنحل والمذاهب والمبادئ المخالفة للكتاب والسنة، فإن هذا ضلال.

(كَالرَافِضَةِ): الرافضة طائفة من الشيعة، يقال لهم: الرافضة، ويقال لهم: الجعفرية والموسوية، سموا بالرافضة؛ لأنهم جاؤوا إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقالوا له: (تبرأ من أبي بكر وعمر)، قال: (لا أتبرأ منهما، بل هما صاحبا جدي ووزيراه -يعني: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ومستشاراه)، قالوا: (إذا نرفضك)؛ يعني: نتركك، ولا نتبعك. فسموا بالرافضة؛ لأنهم رفضوا زيد بن علي من أئمة أهل البيت^(١).
والذين ينتسبون إلى زيد من الشيعة يقال لهم: الزيدية.

والذين ينتسبون إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين هؤلاء يقال لهم: الجعفرية.

وهؤلاء منتسبون فقط، ليسوا على مذهب جعفر الصادق رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأنه من علماء أهل السنة ومن علماء السلف.

فهم ينتسبون إليه مجرد انتساب، ولا يتبعونه فيما هو عليه من مذهب أهل السنة والجماعة، ويكذبون عليه، كل كتبهم مشحونة بالكذب على أبي عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ.

وعلى كل حال نحن لسنا مأمورين بالانتساب إلى جعفر، أو إلى زيد، أو إلى فلان أو علان، لا نتنسب إلا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا هو الذي نحن مأمورون بالانتساب إليه.

(١) انظر: الفرق بين الفرق (٢٥ / ١)، ودقائق التفسير (٦٤ / ٢)، ومجموع الفتاوى (٣٥ - ٣٦ / ١٣).

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَالْجَهْمِيَّةُ)، هؤلاء أتباع الجهم بن صفوان الترمذي، صاحب الأباطيل والكفريات -والعياذ بالله-، فهو ينفي الأسماء والصفات عن الله عَزَّوَجَلَّ، ويقول بالجبر، وأن العباد مجبورون على أعمالهم، وليس لهم اختيار ولا قدرة، وعنده الإرجاء، وهو أن الإيمان مجرد المعرفة في القلب، ولو لم يصدقه العمل، ولو لم ينطق به اللسان، ولو لم يعمل، ما دام يعرف أن الله ربه، وأن محمداً رسوله، يعرف هذا بقلبه، فهو مؤمن، ولا يُشترط العمل، ولا القول، ولا التصديق، يكفي مجرد المعرفة في القلب. هذا مذهبه في الإرجاء -والعياذ بالله!

فهو جمع بين خبائث: جبر، وإرجاء، وتجهم؛ تجهم في الصفات، وجبر في القدر، وإرجاء في الإيمان، ويقول بخلق القرآن، كلها خبائث -والعياذ بالله-، هذا هو الجهم بن صفوان. وهو تلقى مذهبه عن الجعد بن درهم، والجعد بن درهم تلقاه عن أبان عن طالوت اليهوديين. فمذهبهم منحدر من مذهب اليهود.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَالْخَوَارِجُ)، وهم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الخليفة الراشد، رابع الخلفاء الراشدين، خرجوا عن طاعته، وكفّروه -والعياذ بالله-، وقاتلوه، كانوا في الأول يجاهدون معه، ثم إنه لما تم التحكيم بينه وبين أهل الشام في معركة صفين، وذلك بأنهم هم الذين أُلْحُوا على علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقبول التحكيم، فقبله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مكرهاً، وإلا هو يرى الاستمرار في القتال حتى النهاية، فلما ظهر التحكيم في غير رغبتهم، خطّوا عليه وكفّروه، وقالوا: (أنت حكمت الرجال، والله جَلَّ وَعَلَا يقول:

﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، فخرجوا عليه، وشقوا عصا الطاعة، وتجمعوا والتف بعضهم إلى بعض، فقاتلهم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في معركة النهروان، فقتلهم شر قتلة، ونصره الله عليهم، وأراح المسلمين من شرهم، ولكن هذا المذهب باق، ومن مذهبهم تكفير أصحاب الكبائر من هذه الأمة، يقولون: (إن مرتكب الكبيرة كافر؛ الزاني، والسارق، وشارب الخمر، وغير ذلك من كبائر الذنوب، من فعلها كفر، وخرج من الملة)، وهذا -والعياذ بالله- خلاف الحق، خلاف الكتاب والسنة.

ومذهب أهل السنة: أن مرتكب الكبيرة من المسلمين يكون فاسقاً ناقص الإيمان، ولا يكون كافراً، هذا هو المذهب الحق.

فهم جمعوا بين جريمتين:

الجريمة الأولى: الخروج على ولاة الأمور، واعتبار أن هذا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو المنكر بعينه، وليس هو معروفاً.

والجريمة الثانية: تكفير العصاة من هذه الأمة المحمدية، وبموجب ذلك حكموا على أنفسهم هم بالكفر والخلود في النار؛ لأنهم -أيضاً- لا يسلمون من الكبائر، خروجهم على ولي الأمر أليس هو من الكبائر؟! أيضاً ألا يحصل منهم معاص؟! ألا يحصل منهم مخالفات؟! فمعنى هذا أنهم حكموا على أنفسهم بالكفر والخلود في النار -والعياذ بالله-، هؤلاء هم الخوارج.

فكل من ذهب هذا المذهب، وهو شق العصا والخروج على أئمة المسلمين، أو كفر عصاة المسلمين بالكبائر التي دون الشرك، فإنه من الخوارج في أي زمان وفي أي مكان.

قال رحمه الله: (وَالْقَدَرِيَّةُ)، الإيمان بالقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان، والإيمان بأن الله قدر ما كان وما يكون في الأزل، وأن الله كتب كل شيء في اللوح المحفوظ، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شَاء وأراد كل ما يقع في هذا الكون من خير وشر، وكفر وإيمان، وطاعة ومعصية، وأنه بمشيئة الله وإرادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن تؤمن بأن الله خالق كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، هذا هو الإيمان بالقدر، وأن تعلم وتؤمن أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، هذا هو الإيمان بالقدر، وهذا منهج أهل السنة والجماعة.

هناك فرقتان تخالفان مذهب أهل السنة والجماعة في أمر القدر: **الفرقة الأولى:** غلت في إثبات القدر، ونفت قدرة العبد ومشيئته وإرادته، وقالت: (إنه يعمل بدون مشيئة ولا قدرة ولا إرادة، وإنما هو مجبر على أعماله، ليس له فيها اختيار)، هؤلاء يقال لهم: الجبرية، غلوا في الإثبات، غلوا في إثبات القدر، ونفوا إرادة العبد ومشيئة العبد.

والفرقة الثانية: القدرية النفاة، الذين غلوا في إثبات قدرة العبد واختيار العبد ومشيئة العبد، ونفوا مشيئة الله ونفوا تقدير الله لأفعال العباد وخلقها.

هؤلاء غلوا في جانب، وهؤلاء غلوا في جانب؛ هؤلاء غلوا في إثبات مشيئة الله وإرادته، حتى نفوا مشيئة العبد، وهؤلاء غلوا في إثبات مشيئة العبد، ونفوا مشيئة الله وإرادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهؤلاء هم القدرية بفرقتيها: الغلاة والنفاة.

ومذهب أهل السنة والجماعة معلوم، وهو إثبات القدر، وأن لله مشيئة وإرادة، وأن كل شيء بمشيئة الله وإرادته، وأن للعبد مشيئة، وله إرادة، وله اختيار، يثاب عليه أو يعاقب، هذا مذهب أهل السنة والجماعة، ومن خالفهم يقال لهم: (القدرية)؛ لأنهم خالفوا في القدر.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالْمُرْجِئَةُ)، الإرجاء هو التأخير، تقول: أرجأت الشيء بمعنى: أخرته، ولما استشار فرعون ملاءه في موسى وقومه، ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١]؛ يعني: أخر شأنه إلى أن ننظر وتأني بالسحرة، وتجعلهم يناظرونه أمام الناس؛ لأمر أراحه الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ظنوا أنهم سيتغلبون على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذا جاؤوا بالسحرة الذين عندهم، وموسى ساحر، سيتغلبون عليه، الله عكس هذا، أراد أن يبين أن موسى جاء من عند الله عَزَّجَلَّ، وأن ما معه معجزة من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يقابلها السحر، ولهذا في هذا المشهد العظيم ظهر بطلان السحر، وتاب السحرة، وخروا سجداً لله عَزَّجَلَّ؛ لأنهم عرفوا أن ما مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حق؛ لأنهم أصحاب فن، وأصحاب خبرة، وأصحاب معرفة بالسحر، عرفوا أن ما مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس من صنع البشر، وإنما هو معجزة من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى وآية على صدقه، فآمنوا به، الشاهد من قوله: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١] يعني: أخره؛ حتى تحصل المناظرة، ويريدون إبطال ما معه أمام الناس، هذا هو الإرجاء.

والمراد بالإرجاء هنا: تأخير الأعمال عن الإيمان، يقولون: (إن الأعمال لا تدخل في الإيمان)، فأخروا الأعمال عن حقيقة الإيمان ومسمى الإيمان، فجعلوا الأعمال شيئاً، والإيمان شيئاً آخر، هؤلاء هم المرجئة، وهم فرق أربعة:

الفرقة الأولى: الجهمية، الذين يرون أن الإيمان مجرد المعرفة في القلب، ولو لم يعمل شيئاً، ولو لم يعتقد، ولو لم يصدق، ولو لم يقل شيئاً، فهو مؤمن، ما دام يعرف في قلبه، وعلى هذا يكون فرعون مؤمناً؛ لأنه يعرف أن ما جاء به موسى حق، ولكن يتظاهر بالإنكار من باب العلو والاستكبار - والعياذ بالله -: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، فعلى مذهب الجهم والخبرية يكون فرعون مؤمناً؛ لأنه يعرف بالقلب، إبليس يكون مؤمناً عند هؤلاء؛ لأنه يعرف، بل صرح ونطق: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]، وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ [ص: ٨٢]، أثبت الله العزة، وحلف بها، فيكون إبليس مؤمناً على مذهب هؤلاء؛ لأنه يعرف، ولا يكفر أحد على وجه الأرض بهذه الطريقة، فهذا مذهب باطل، وهذا أقبح الإرجاء.

الفرقة الثانية: الذين يرون أن الإيمان هو مجرد التصديق بالقلب، يقولون: (لا تكفي المعرفة؛ لابد من التصديق بالقلب، ولو لم ينطق بلسانه، ولو لم يعمل بجوارحه، ما دام مصدقاً بقلبه بالله، وبرسوله، وبدينه، فهو مؤمن كامل الإيمان)، وهذا قول الأشاعرة ومن وافقهم من علماء الكلام، فالإيمان عندهم مجرد التصديق بالقلب.

الطائفة الثالثة: الذين يقولون: (إن الإيمان مجرد القول، ولو لم يعتقد بقلبه، إذا نطق بلسانه، فهو مؤمن، ولو لم يعتقد بقلبه)، وهذا قول الكرامية، أتباع محمد بن كرام، الذي سيأتي ذكره.

الفرقة الرابعة من المرجئة: الذين يقولون: (إن الإيمان هو التصديق بالقلب، والنطق باللسان، أما العمل بالجوارح، فهذا ليس من الإيمان، وإنما هو شرط للإيمان، أو مكمل للإيمان، وليس هو من حقيقة الإيمان)، وهؤلاء يقال لهم: مرجئة الفقهاء؛ لأن عليه كثير من الحنفية، هذا مذهبهم: أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب، وأما الأعمال فلا تدخل في حقيقة الإيمان.

إذاً نجد أن المرجئة بجميع فرقهم الأربعة كلهم أخرجوا الأعمال عن مسمى الإيمان، وعندهم أن الإيمان شيء واحد؛ لا يزيد، ولا ينقص، وأن إيمان جبريل مثل إيمان أفسق المسلمين، لا يزيد الإيمان ولا ينقص عندهم، بل بعضهم يقول: (لا يضر مع الإيمان معصية؛ كما لا يضر مع الكفر طاعة)، هذا من فروع مذهبهم الباطل.

أما أهل السنة والجماعة فهم يقولون: (الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، فليس إيمان الناس على حد سواء؛ بعضهم أكمل إيماناً من بعض، وبعضهم أنقص)، هذا هو القول الحق الذي يجمع بين الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَالْمُعْتَزِلَةُ)، هم الذين ينتسبون إلى واصل بن عطاء شيخهم ورئيسهم، وكان في مجلس الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ إمام التابعين، فسئل الحسن عن مرتكب الكبيرة، فقال: (هو مؤمن ناقص الإيمان)، فقال واصل ابن عطاء: (أنا لا أقول: هو مؤمن، ولا أقول: كافر، أقول: هو بمنزلة بين

المنزلتين، وإن مات ولم يتب، فهو كافر مخلد في النار)، واعتزل مجلس الحسن، وانضم إليه طائفة من أتباعه، فسموا بالمعتزلة من ذلك الوقت، ومذهبهم قريب من مذهب الخوارج في الإيمان، يقولون: (إن مرتكب الكبيرة خارج من الإيمان، لكنه لا يدخل في الكفر، بل يكون بمنزلة بين منزلتين، وإن مات ولم يتب، فهو كافر - كما يقوله الخوارج -، وهو مخلد في النار)، هذا مذهب المعتزلة.

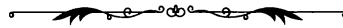
ومذهبهم في الصفات -أيضاً- ينفون الصفات، ويؤولونها إلى غير ذلك من آرائهم الباطلة، هؤلاء هم المعتزلة.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَالْكَرَامِيَّةُ)، أتباع محمد بن كرام، وكان يغلو في إثبات الصفات إلى حد التشبيه والتجسيم.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَالْكَلَابِيَّةُ)، الكلابية: أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب، وهذا عليه غالب الأشاعرة أو كل الأشاعرة اليوم، ينفون غالب الصفات، ولا يشتون إلا الصفات السبع، أو الأربعة عشرة - كما يقولون -؛ لأنها - كما يقولون - دل عليها العقل، وما عداها، لم يدل عليه العقل، وإنما دل عليه السمع فقط. هذا مذهب الكلابية.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَنُظَرَائِهِمْ، فَهَذِهِ فِرْقُ الضَّلَالِ وَطَوَائِفُ الْبِدْعِ)، ونظائر هذه الفرق؛ لأنه إنما جاء بنماذج فقط، وإلا فالفرق كثيرة، وتحدث فرق، وتتفرع؛ كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً

كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً^(١)، قالوا: (هذه أصول الفرق، وإلا فتشعباتها وتفرقاتها أكثر من ثلاثة وسبعين، ولكن هذه أصولها).



(١) هذا حديث الافتراق المشهور، وهو حديث حسن، وله طرق، وورد عن عدد من الصحابة بنحو هذا اللفظ، منهم: معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند أبي داود في السنن (٤٥٩٧)، والطبراني في الكبير (٣٧٧/١٩). وعوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند ابن ماجه (٣٩٩٢)، والطبراني في الكبير (٧٠/١٨). وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند ابن ماجه (٣٩٩٣)، وأحمد في المسند (١٤٥/٣)، وأبي يعلى في مسنده (١٥٥/٧). وانظر تمام تخريجه في السلسلة الصحيحة (ح ٢٠٤).

وَأَمَّا النَّسْبَةُ إِلَى إِمَامٍ فِي فُرُوعِ الدِّينِ كَالطَّوَائِفِ الْأَرْبَعِ، فَلَيْسَ بِمَذْمُومٍ؛ فَإِنَّ الْأَخْتِلَافَ فِي الْفُرُوعِ رَحْمَةٌ، وَالْمُخْتَلِفُونَ فِيهِ مُحْمَدُونَ فِي اخْتِلَافِهِمْ، مُثَابُونَ فِي اجْتِهَادِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ رَحْمَةٌ وَاسِعَةٌ، وَاتِّفَاقُهُمْ حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ.

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَعْصِمَنَا مِنَ الْبِدْعِ وَالْفِتْنَةِ، وَيُحْيِيَنَا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالسُّنَّةِ، وَيَجْعَلَنَا مِنْ تَتَبِعُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَيَاةِ، وَيُخْشِرَنَا فِي زَمَرَتِهِ بَعْدَ الْمَمَاتِ بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ آمِينَ.

وَهَذَا آخِرُ الْمُعْتَقَدِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا.

الشرح

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَأَمَّا النَّسْبَةُ إِلَى إِمَامٍ فِي فُرُوعِ الدِّينِ كَالطَّوَائِفِ الْأَرْبَعِ، فَلَيْسَ بِمَذْمُومٍ)، الانتساب إلى شخص في أصول الدين غير الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا لا يجوز، والمراد بأصول الدين: العقيدة؛ لأن العقيدة توقيفية، لا مجال للاجتهاد فيها، وإنما يتبع فيها الدليل من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا مجال للاختلاف فيها، ولهذا لم يختلف فيها السلف الصالح، ولا من جاء بعدهم ممن تبعهم، لم يختلفوا في العقيدة؛ لأن العقيدة توقيفية، مبناها على التسليم والانقياد، بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالأئمة لم يختلفوا في العقيدة؛ لا أئمة التابعين، ولا أئمة من جاء بعدهم، والأئمة الأربعة رَحْمَةُ اللَّهِ لَمْ يَخْتَلَفُوا فِي الْعَقِيدَةِ.

العقيدة ليست مجالاً للاختلاف ولا للاجتهادات، ومن خالف فيها، فهو ضال، إنما الاختلاف يقع في مسائل الفروع، وهي مسائل الفقه العملية؛ لأن مدارها على الاستنباط والاجتهاد، ونحن مأمورون بالاجتهاد في مسائل الفقه، والنوازل التي تنزل، والحوادث التي تحدث، نحن مأمورون بالاجتهاد فيها، ومعرفة حكمها في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنها لم ينص عليها، أما المنصوص عليها، فهذه ليس فيها كلام؛ تحريم الربا، تحريم الزنا، تحريم الخمر، تحريم المسكرات، تحريم قطيعة الرحم، هذه منصوص عليها، لا تحتاج إلى اجتهاد، مجالها التسليم، هناك نص على حكمها، ليس لنا مجال فيه.

المباحات نص الله عليها، أحل الله البيع، إبيع ليس فيه مجال للاختلاف؛ لأن الله نص على حله، والأصل في الأشياء الإباحة، إلا ما دل الدليل على منعه من الكتاب والسنة، ومجال الفقهاء ومجال المجتهدين في المسائل الفرعية التي لم ينص على حكمها، ولذلك اختلفوا في اجتهاداتهم، وتكونت في ذلك مذاهب، من ذلك المذاهب الأربعة: مذهب أبي حنيفة، ومذهب مالك، ومذهب الشافعي، ومذهب أحمد، بمعنى أن كل واحد من هؤلاء الأئمة له طريقة في الاجتهاد والاستنباط، وكلهم يقصد الحق، ويقصد الدليل، ولا يجوز للعالم أن يقلد غيره، ما دام عنده تمكن من معرفة الدليل بنفسه والبحث عن الحكم، فإنه يجتهد حسب طاقته، ولا يقلد أحداً، وإنما التقليد للعامي والمبتدئ، أما العالم المدرك، فهذا يجب عليه أن يجتهد، وما يتوصل إليه اجتهاده، يعمل به، فإن أصاب، فله أجران: أجر الإصابة، وأجر الاجتهاد، وإن أخطأ، فله أجر واحد، وهو أجر الاجتهاد، ويغفر له الخطأ، ولكن

لا يجوز لنا أن نتبعه على هذا الخطأ، هذا الاجتهاد محمود، والاختلاف فيه ليس مذموماً؛ لأنه نتيجة اجتهاد وطلب للحق، لا نتيجة هوى، أما إذا كان الاختلاف نتيجة هوى وشهوة، فهذا لا يجوز؛ يعني: أن الإنسان لا يأخذ إلا ما يوافق هواه أو رغبته، هذا مذموم، أما إن كان عنده أهلية علمية، وقدرة على البحث والتقصي، فإنه يجب عليه الاجتهاد، ولا يقلد غيره؛ ليعرف الحكم بنفسه أو يقارب، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَدُّوا وَقَارِيُوا»^(١)، التسديد هو الإصابة، والمقاربة هي مقارنة الإصابة، ولو لم يصب، لكن حاول، بذل جهده، وحاول، فهذا الاجتهاد الفقهي الذي دافعه طلب الدليل وطلب الحكم الشرعي، هذا ممدوح، وليس مذموماً.

والانتساب إلى أحد الأئمة - حنبلي، مالكي، شافعي، حنفي - ليس فيه لوم، بشرط ألا يتعصب، فإذا تبين له الدليل، أخذ به، ولو لم يكن من مذهب إمامه، الحنفي إذا تبين له الدليل عند الشافعي، يجب أن يأخذ بقول الشافعي، الحنبلي إذا تبين له الدليل مع مذهب مالك، يجب عليه أن يأخذ بقول مالك؛ لأن الأئمة يوصوننا بذلك، ويقولون: (لا تأخذوا بأقوالنا حتى تعرفوا أدلتها)، الشافعي يقول: «إِذَا صَحَّ الْحَدِيثُ، فَهُوَ مَذْهَبِي، وَإِذَا صَحَّ الْحَدِيثُ فَاضْرِبُوا بِقَوْلِي الْحَائِطَ»^(٢)، والإمام الشافعي - أيضاً - يقول: (أجمع العلماء

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤١)، وأحمد (١١ / ١٢١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٨٤٨) (٥٠٣ / ٢).

(٢) يروى عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ. انظر: إعلام الموقعين (٢ / ٢٠١)، وسير أعلام النبلاء (٨ / ٢٤٨)، ومجموع الفتاوى (٢٠ / ٢١١)، وحلية الأولياء (٩ / ١٠٧)، والقول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد (ص ٥٧).

على أن من استبانت له سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يكن له أن يدعها لقول أحد^(١)، الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: (أَوْكَلَمَا جَاءَنَا رَجُلٌ أَجْدَلُ مِنْ رَجُلٍ تَرَكْنَا مَا جَاءَ بِهِ جَبْرِيلُ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَدِّثِ هَؤُلَاءِ؟)^(٢)، ويقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (ما منا إلا راد ومردود عليه، إلا صاحب هذا القبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)^(٣)؛ يعني: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الإمام أحمد يقول: «عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الْإِسْنَادَ وَصَحَّتْهُ، يَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ. وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ الشَّرْكُ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضُ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكُ»^(٤). هذه أقوال الأئمة رَحِمَهُمُ اللَّهُ، يقولون لنا: (لاتأخذوا من أقوالنا، إلا ما وافق الدليل، وما خالف الدليل، فاتركوه)^(٥)، فليست المسألة مسألة مذاهب، المسألة مسألة اتباع الدليل، لكننا نستفيد من اجتهاد هؤلاء الأئمة؛

(١) انظر: إعلام الموقعين (٢/ ٢٨٢)، ومدارج السالكين (٢/ ٣٣٥).

(٢) انظر: اعتقاد أهل السنة (١/ ١٤٤)، وحلية الأولياء (٦/ ٣٢٤)، وسير أعلام النبلاء (٨/ ٨٩)، وتذكرة الحفاظ (١/ ٢٠٨).

(٣) انظر: الإحكام لابن حزم (٦/ ٣١٧)، ومنهاج السنة النبوية (٣/ ٥٠٣)، والبداية والنهاية (١٤/ ١٤٠)، والآداب الشرعية (٢/ ٢٩٣)، وإعلام الموقعين (٣/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(٤) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (رقم ٩٧)، وانظر: مسائل عبد الله بن أحمد بن حنبل (٣/ ١٣٥٥)، والصارم المسلول على شاتم الرسول (٢/ ١١٦).

(٥) انظر أقوال الأئمة في: إرشاد النقاد للأمير الصنعاني (ص ١٤٢)، وعقد الجيد للدهلوي (ص ٢٢)، والإحكام لابن حزم (٤/ ٥٧٣)، والانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء للقرطبي (ص ١٤٤)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٩/ ٣١٠)، وإعلام الموقعين (٢/ ٢٠١) ومجموع الفتاوى (٢٠/ ٢١١)، والفتاوى الكبرى (٦/ ٣٣٩)، والقول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد (ص ٥٧).

لأنها ثروة علمية نستفيد منها، وعلى ضوءها نستنبط، وعلى ضوءها نبحث، فهي ثروة علمية وآلة بأيدينا.

فيجب علينا طلب الدليل، والأخذ بالدليل من أقوال أئمتنا، ولا حرج على الحنبلي أن يأخذ بقول الشافعي أو العكس، والشافعي يأخذ بقول الحنفي؛ لأنهم كلهم أئمة، وكلهم إخوة، فليست الحنفية فرقة، والحنابلة فرقة، والشافعية فرقة، والمالكية فرقة -كفرق الخوارج والمعتزلة والمرجئة-، هي فرقة واحدة، كلهم فرقة واحدة على الحق، وقد يخطئ بعضهم في المسائل الاجتهادية، فيترك خطأه، ويأخذ ما أصاب فيه، هذا هو الواجب.

فيجب معرفة هذا الحكم -أيضاً-؛ لأنه مهم جداً، وليس هو من الانتساب المذموم، الذي نبه عليه فيما مضى؛ الانتساب للجهمية، أو للخوارج، أو للمعتزلة، أو للشيعنة، أو للمرجئة...، إلى آخره، ليس هذا منه؛ لأن ذاك اختلاف في الأصول والعقيدة، وهذا اختلاف في الفقه ومسائل الاستنباط، وهذا خير ومجال واسع، والحمد لله!

قال رَحِمَهُ اللهُ: (فَإِنَّ الْأَخْتِلَافَ فِي الْفُرُوعِ رَحْمَةٌ)؛ لأن الله وسع على الناس، وأمرهم أن يجتهدوا في طلب الحق، ولم يضيق عليهم ويكلفهم بالأخذ بقول واحد، بل أمرهم بالاجتهاد، وبذل الوسع في معرفة الحكم الشرعي، والاختلاف في هذا رحمة، إذا لم يخالف دليلاً من الكتاب والسنة، فإن خالف، فهو عذاب، وليس رحمة، وكذلك الاختلاف في العقيدة عذاب، وليس رحمة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالْمُخْتَلِفُونَ فِيهِ مُحْمُودُونَ فِي اخْتِلَافِهِمْ، مُثَابُونَ فِي اجْتِهَادِهِمْ) المختلفون فيه؛ يعني: في هذا النوع، وهو الاختلاف الفقهي، المختلفون فيه محمودون لا مذمومون؛ لأنهم مأذون لهم في الاجتهاد، ولا يمكن للمجتهدين أن يكونوا على وتيرة واحدة؛ فالمدارك تختلف، والعلوم تختلف، والأحوال تختلف.

ومن أراد أن يطلع على ما يشفي في هذا الموضوع، فليطالع رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، ليطالعها وسيعلم الكلام التفصيلي في هذا الموضوع، فنحن لا نجمد على تقليد مذهب معين، ولكننا لا نزهد بما فيه من الخير، وما فيه من الفقه، وما فيه من الأصول التي نستفيد منها.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَاخْتِلَافُهُمْ رَحْمَةً وَاسِعَةً) اختلافهم رحمة؛ يعني: اختلافهم في الفقه والاستنباط رحمة واسعة، وسع الله على الناس، ولم يأمرهم ويضيق عليهم بأن يأخذوا بقول واحد من المجتهدين يخطئ أو يصيب، لا، هذه رحمة من الله عَزَّ وَجَلَّ.

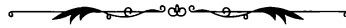
قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَإِتِّفَاقُهُمْ حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ)، لا شك أن الإجماع حجة، وهو أحد أصول الأدلة المتفق عليها:

أولاً: الكتاب، ثانياً: السنة، ثالثاً: الإجماع، هذه الأصول متفق عليها بين الأمة الإسلامية، والرابع: القياس، وهذا محل خلاف، قال به جمهور أهل العلم، وخالف فيه بعض العلماء -كالظاهرية ونحوهم-، وكذلك هناك

أصول مختلف فيها، موضعها كتب أصول الفقه، لكن هذه الثلاثة مجمع عليها: الكتاب والسنة والإجماع، هذه متفق عليها.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَعِصَمَنَا مِنَ الْبِدْعِ وَالْفِتْنَةِ، وَيُحْيِيَنَا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالسُّنَّةِ، وَيَجْعَلَنَا مِمَّنْ يَتَّبِعُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَيَاةِ، وَيُخْشِرَنَا فِي زُمْرَتِهِ بَعْدَ الْمَمَاتِ بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ آمِينَ).

وَهَذَا آخِرُ الْمُعْتَقَدِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا)، جزاه الله خيرًا على ما قدم وأبدى في هذه العقيدة الطيبة، وما بين فيها، ثم ختمها بهذا الدعاء العظيم، الذي نسال الله جَلَّ وَعَلَا أن يتقبل منا ومنه، وأن يثبتنا وإياكم على الحق إلى يوم نلقاه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.



قائمة المراجع

❖ الإبانة عن شريعة الفرقه الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، اسم المؤلف: أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي، دار النشر: دار الراية للنشر - السعودية - ١٤١٨هـ، الطبعة: الثانية، تحقيق: عثمان عبد الله آدم الأثيوبي.

❖ إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر. لشهاب الدين أحمد الدمياطي ط. دار الندوة بيروت.

❖ الإتيقان في علوم القرآن، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤ م، عدد الأجزاء: ٤.

❖ إثبات صفة العلو، المؤلف: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ)، المحقق: أحمد بن عطية بن علي الغامدي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨ م، عدد الأجزاء: ١.

❖ إثبات عذاب القبر، اسم المؤلف: أحمد بن الحسين البيهقي أبو بكر، دار النشر: دار الفرقان - عمان الأردن - ١٤٠٥، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. شرف محمود القضاة.

✽ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ.

✽ الأحاديث المختارة، اسم المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي، دار النشر: مكتبة النهضة الحديثة - مكة المكرمة - ١٤١٠، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش.

✽ أحكام القرآن، المؤلف: أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: ٣٧٠ هـ)، المحقق: محمد صادق القمحاوي - عضو لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، تاريخ الطبع: ١٤٠٥ هـ.

✽ أحكام القرآن، المؤلف: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣ هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلّق عليه: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، عدد الأجزاء: ٤.

✽ الإحكام في أصول الأحكام، المؤلف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦ هـ)، المحقق: الشيخ أحمد محمد شاكر، قدم له: الأستاذ الدكتور إحسان عباس، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت، عدد الأجزاء: ٨.

✽ الآداب الشرعية والمنح المرعية، المؤلف: محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الراميني ثم الصالح الحنبلي (المتوفى: ٧٦٣ هـ)، الناشر: عالم الكتب، عدد الأجزاء: ٣.

✽ إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، أبو إبراهيم، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأخير (المتوفى: ١١٨٢هـ)، المحقق: صلاح الدين مقبول أحمد، الناشر: الدار السلفية - الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥، عدد الأجزاء: ١.

✽ الاستذكار، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ - ٢٠٠٠، عدد الأجزاء: ٩.

✽ الأساء والصفات للبيهقي، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُو جَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي، قدم له: فضيلة الشيخ مقبل بن هادي الوادعي، الناشر: مكتبة السوادبي، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، عدد الأجزاء: ٢.

✽ الإصابة في تمييز الصحابة، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد ابن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ، عدد الأجزاء: ٨.

✽ أصول الفقه، المؤلف: محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الراميني ثم الصالحي الحنبلي (المتوفى: ٧٦٣هـ)، حققه وعلق عليه وقدم له: الدكتور فهد بن محمد السّدْحَان، الناشر:

مكتبة العبيكان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، عدد الأجزاء: ٤ (في ترقيم مسلسل واحد).

✻ أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤١٥ هـ.

✻ الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرَوِجَردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨ هـ)، المحقق: أحمد عصام الكاتب، الناشر: دار الآفاق الجديدة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠١، عدد الأجزاء: ١.

✻ إعلام الموقعين عن رب العالمين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م، عدد الأجزاء: ٤.

✻ أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات، المؤلف: مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي المقدسي الحنبلي (المتوفى: ١٠٣٣ هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦، عدد الأجزاء: ١.

✻ أمالي ابن بشران، المؤلف: أبو القاسم عبد الملك بن محمد بن عبد الله بن بشران بن محمد بن بشران بن مهران البغدادي (المتوفى: ٤٣٠ هـ)، ضبط نصه: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف العزازي، الناشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

✽ الأمثال، المؤلف: أبو عُبيد القاسم بن سَلَّام بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ)، المحقق: الدكتور عبد المجيد قطامش، الناشر: دار المأمون للتراث، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م، عدد الأجزاء: ١.

✽ الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، عدد الأجزاء: ١.

✽ الأنجم الزاهرات على حل ألفاظ الورقات في أصول الفقه، المؤلف: شمس الدين محمد بن عثمان بن علي المارديني الشافعي (المتوفى: ٨٧١هـ)، المحقق: عبد الكريم بن علي محمد بن النملة، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٩ م، عدد الأجزاء: ١.

✽ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، المؤلف: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمي الحنبلي، أبو اليمن، مجير الدين (المتوفى: ٩٢٨هـ)، المحقق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، الناشر: مكتبة دنديس - عمان، عدد الأجزاء: ٢.

✽ إثثار الحق على الخلق في رد الخلافات، محمد بن نصر المرتضى (ابن الوزير)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٧ م.

✽ إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، المؤلف: أبو عبد الله، محمد ابن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين (المتوفى: ٧٣٣هـ)، المحقق: وهبي سليمان غاوجي الألباني، الناشر: دار

السلام للطباعة والنشر - مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م،
عدد الأجزاء: ١.

✻ الإيضاح في علوم البلاغة، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر،
أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق
(المتوفى: ٧٣٩ هـ)، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل
- بيروت، الطبعة: الثالثة، عدد الأجزاء: ٣.

✻ الإيمان الأوسط، المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية
الحراني أبو العباس تقي الدين، المحقق: محمود أبو سن أبو يحيى، الناشر:
دار طيبة، سنة النشر: ١٤٢٤، عدد المجلدات: ١، رقم الطبعة: ١.

✻ الإيمان، المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني
تقي الدين، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي،
سنة النشر: ١٤١٦ - ١٩٩٦، عدد المجلدات: ١، رقم الطبعة: ٥.

✻ البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن
يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥ هـ)، المحقق: صدقي
محمد جميل، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

✻ البدء والتاريخ، المؤلف: المطهر بن طاهر المقدسي (المتوفى: نحو ٣٥٥ هـ)،
الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، عدد الأجزاء: ٦.

✻ البداية والنهاية، لعماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، مكتبة
المعارف، بيروت، الطبعة السادسة ١٤٠٥ هـ.

❖ بدائع الفوائد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، عدد الأجزاء: ٤.

❖ بيان تلبيس الجهمية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم. مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ.

❖ تاج العروس من جواهر القاموس، المؤلف: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.

❖ تاريخ أصبهان، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصبهاني. ❖ تاريخ الإسلام، شمس الدين الذهبي، تحقيق عمر تدمري، طبعة ١٤٠٩هـ.

❖ التاريخ الكبير، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، الطبعة: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الدكن، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان، عدد الأجزاء: ٨.

❖ تاريخ بغداد، اسم المؤلف: أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

❖ تاريخ مدينة دمشق - ابن عساكر - دار الفكر - بيروت.

❖ تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة، تحقيق محمد زهري النجار، دار الجيل، بيروت، طبعة ١٣٩٣هـ.

✽ تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، المؤلف: ثقة الدين، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٤هـ، عدد الأجزاء: ١.

✽ التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ، عدد الأجزاء: ٣٠ (والجزء رقم ٨ في قسمين).

✽ تحفة الأحوزي شرح جامع الترمذي، لمحمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، الطبعة الحجرية، دار الكتاب العربي، بيروت.

✽ تذكرة الحفاظ، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ابن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، عدد الأجزاء: ٤.

✽ التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

✽ التفسير البسيط، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، المحقق: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، الناشر: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ، عدد الأجزاء: ٢٥ (٢٤ وجزء للفهارس).

✽ تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، عدد الأجزاء: ٢٦ مجلد ٢٤ مجلد ومجلدان فهارس.

✽ تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن ابن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ.

✽ تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، عدد الأجزاء: ٨.

✽ تفسير القرآن، المؤلف: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: ٤٨٩هـ)، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض - السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

✽ تفسير الماوردي = النكت والعيون، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)،

المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، عدد الأجزاء: ٦.

✽ تفسير عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ.

✽ تقريب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد، سوريا، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.

✽ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، المؤلف: أبو عمر يوسف ابن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣ هـ)، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، عام النشر: ١٣٨٧ هـ، عدد الأجزاء: ٢٤.

✽ تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار، اسم المؤلف: أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، دار النشر: مطبعة المدني - القاهرة، تحقيق: محمود محمد شاكر.

✽ تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ.

✽ تهذيب الكمال، يوسف أبو الحجاج المزي، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ.

✽ تهذيب اللغة، المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠ هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء

التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١ م، عدد الأجزاء: ٨.

✽ توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم،

المؤلف: أحمد بن إبراهيم بن حمد بن محمد بن حمد بن عبد الله بن عيسى

(المتوفى: ١٣٢٧هـ)، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي

- بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٦، عدد الأجزاء: ٢.

✽ تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبد الله بن محمد بن

عبد الوهاب، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

✽ الثقات، اسم المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي،

دار النشر: دار الفكر - ١٣٩٥ - ١٩٧٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: السيد

شرف الدين أحمد.

✽ ثلاثة الأصول وأدلتها - وشروط الصلاة - والقواعد الأربع، المؤلف:

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي (المتوفى: ١٢٠٦هـ)،

الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة

العربية السعودية، رقم الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ، الصفحات: ٤٨، عدد

الأجزاء: ١.

✽ جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، لابن

رجب الحنبلي، تحقيق: طارق عوض الله، دار ابن الجوزي، الطبعة

الثانية ١٤٢٠هـ.

✽ الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن

أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي

(المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار

الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، عدد الأجزاء: ٢٠ جزءاً (في ١٠ مجلدات).

✽ جمهرة اللغة، المؤلف: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ)، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧ م، عدد الأجزاء: ٣.

✽ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: مطبعة المدني، القاهرة، عدد الأجزاء: ١.

✽ الحجة في القراءات السبع، المؤلف: الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: د. عبد العال سالم مكرم، الأستاذ المساعد بكلية الآداب - جامعة الكويت، الناشر: دار الشروق - بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤٠١ هـ، عدد الأجزاء: ١.

✽ الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، المؤلف: إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، الملقب بقوام السنة (المتوفى: ٥٣٥هـ)، المحقق: محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي، الناشر: دار الراية - السعودية / الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩ م، عدد الأجزاء: ٢.

✽ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤ م، ثم صورتها

عدة دور منها، ١ - دار الكتاب العربي - بيروت. ٢ - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. ٣ - دار الكتب العلمية - بيروت (طبعة ١٤٠٩ هـ بدون تحقيق)، عدد الأجزاء: ١٠.

✽ الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، عالم الكتب، بيروت.
✽ الخلاصة في معرفة الحديث، المؤلف: الحسين بن محمد بن عبد الله، شرف الدين الطيبي (المتوفى: ٧٤٣ هـ)، المحقق: أبو عاصم الشوامي الأثري، الناشر: المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع - الرواد للإعلام والنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، عدد الأجزاء: ١.

✽ خلق أفعال العباد، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦ هـ)، المحقق: د. عبد الرحمن عميرة، الناشر: دار المعارف السعودية - الرياض، عدد الأجزاء: ١.

✽ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، المؤلف: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦ هـ)، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق، عدد الأجزاء: ١١.

✽ الدر المنثور، عبد الرحمن بن جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٩٩٣ م.

✽ درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، دار الكنوز الذهبية، الرياض، طبعة ١٣٩١ هـ.

✽ الدرر السنية في الأجوبة النجدية (مجموعة رسائل ومسائل علماء نجد الأعلام من عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى عصرنا هذا)، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي، الطبعة الخامسة، ١٤١٣ هـ.

❖ دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: د. محمد السيد الجليند، الناشر: مؤسسة علوم القرآن - دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٠٤، عدد الأجزاء: ٦.

❖ دلائل النبوة، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرَوِ جردِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: د. عبد المعطي قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، الطبعة: الأولى - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، عدد الأجزاء: ٧.

❖ ديوان ابن الرومي، المؤلف: علي بن العباس بن جريج ابن الرومي، المحقق: أحمد حسن بسج، الناشر: دار الكتب العلمية، سنة النشر: ١٤٢٣ - ٢٠٠٢، عدد المجلدات: ٣، رقم الطبعة: ٣.

❖ ذم التأويل، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، تحقيق بدر بن عبد الله البدر، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.

❖ ذيل طبقات الحنابلة، اسم المؤلف: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ).

❖ الرد على الجهمية، عثمان بن سعيد الدارمي، تحقيق بدر بن عبد الله البدر، دار ابن الأثير، الكويت، الطبعة الثانية ١٤١٦ هـ.

❖ رسالة في إثبات الاستواء والفوقية، أبو محمد عبد الله بن يوسف الجويني، تحقيق أحمد معاذ بن علون، دار طويق للنشر، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ.

✽ روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، الناشر: دار العاصمة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى ١٤٢٢ - ٢٠٠١ م، عدد الأجزاء: ٢.

✽ روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد ابن حنبل، المؤلف: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجمايلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ)، الناشر: مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م، عدد الأجزاء: ٢.

✽ روضة الناظر، لابن قدامة المقدسي، تحقيق عبد العزيز عبد الرحمن السعيد، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.

✽ زاد المسير في علم التفسير، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.

✽ الزاهر في معاني كلمات الناس، المؤلف: محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري (المتوفى: ٣٢٨هـ)، المحقق: د. حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢، عدد الأجزاء: ٢.

✽ الزهد والرقائق لابن المبارك، المؤلف: أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك ابن واضح الحنظلي، التركي ثم المروزي (المتوفى: ١٨١ هـ)، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، عدد الأجزاء: ١.

✽ الزهد، اسم المؤلف: أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشيباني أبو بكر، دار النشر: دار الريان للتراث - القاهرة - ١٤٠٨، الطبعة: الثانية، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد.

✽ سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠ هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، (لمكتبة المعارف)، عدد الأجزاء: ٦.

✽ سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المؤلف: عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي (المتوفى: ١١١١ هـ)، المحقق: عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، عدد الأجزاء: ٤.

✽ السنة، المؤلف: أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك ابن مخلد الشيباني (المتوفى: ٢٨٧ هـ)، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠، عدد الأجزاء: ٢.

✽ السنة، المؤلف: أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي (المتوفى: ٢٩٠ هـ)، المحقق: د. محمد بن سعيد بن سالم

القحطاني، الناشر: دار ابن القيم - الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، عدد الأجزاء: ٢.

- ✽ سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
- ✽ سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.
- ✽ سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا. مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤ هـ.
- ✽ سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت.
- ✽ سنن الدارقطني، المؤلف: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي ابن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥ هـ)، حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، عدد الأجزاء: ٥.
- ✽ سنن الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ.
- ✽ السنن الصغرى للنسائي (المجتبي)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ.
- ✽ السنن الكبرى للنسائي، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ.
- ✽ سنن سعيد بن منصور، اسم المؤلف: سعيد بن منصور الخراساني، دار النشر: الدار السلفية - الهند - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٢ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.

✽ سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط
ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة
١٤١٣ هـ.

✽ سيرة الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: صالح بن الإمام أحمد بن محمد بن
حنبل الشيباني البغدادي، أبو الفضل (المتوفى: ٢٦٥ هـ)، المحقق: الدكتور
فؤاد عبد المنعم أحمد، الناشر: دار الدعوة - الاسكندرية، الطبعة: الثانية،
١٤٠٤ هـ، عدد الأجزاء: ١.

✽ السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)، المؤلف: أبو الفداء
إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤ هـ)، تحقيق:
مصطفى عبد الواحد، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان، عام النشر: ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦ م.

✽ شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط
ومحمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.

✽ شرح (التبصرة والتذكرة = ألفية العراقي)، المؤلف: أبو الفضل زين الدين
عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي
(المتوفى: ٨٠٦ هـ)، المحقق: عبد اللطيف الهميم - ماهر ياسين فحل،
الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ -
٢٠٠٢ م، عدد الأجزاء: ٢.

✽ شرح أصول اعتقاد أهل السنة؛ لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور
الطبري الرازي اللالكائي (المتوفى: ٤١٨ هـ)، تحقيق أحمد سعد حمدان،
دار طيبة، الرياض، طبعة ١٤٠٢ هـ.

✽ شرح السنة، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٦هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، عدد الأجزاء: ١٥.

✽ شرح العقيدة الطحاوية، المؤلف: صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ ابن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحى الدمشقي (المتوفى: ٧٩٢هـ)، تحقيق: أحمد شاكِر، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ، عدد الأجزاء: ١.

✽ شرح العقيدة الواسطية، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي.

✽ شرح النووي على مسلم = المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢، عدد الأجزاء: ١٨ (في ٩ مجلدات).

✽ شرح لمعة الاعتقاد، محمد بن صالح العثيمين، تحقيق أشرف عبد المقصود، أضواء السلف، طبعة ١٤١٥هـ.

✽ شرح مختصر الروضة، المؤلف: سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري، أبو الربيع، نجم الدين (المتوفى: ٧١٦هـ)، المحقق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، عدد الأجزاء: ٣.

✽ شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي، تحقيق محمد سعيد خطي، دار إحياء السنة، أنقرة.

✽ الشريعة، أبو بكر محمد بن الحسين الأجري، مطابع الأشراف، لاهور.

✽ شعب الإيمان، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ.

✽ الصارم المسلول على شاتم الرسول، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد عبد الله الحلواني ومحمد كبير شودري، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ.

✽ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣ هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، عدد الأجزاء: ٦.

✽ صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ.

✽ صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت.

✽ الصفدية، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق محمد رشاد سالم، الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ.

✽ الضعفاء الكبير، أبو جعفر محمد بن عمر بن موسى العقيلي، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ.

✽ طبقات الشافعية الكبرى، المؤلف: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (المتوفى: ٧٧١هـ)، المحقق: د. محمود محمد الطناحي، د. عبد الفتاح محمد الحلوة، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ، عدد الأجزاء: ١٠.

✽ طبقات فحول الشعراء، المؤلف: محمد بن سلام (بالتشديد) بن عبيد الله الجمحي بالولاء، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٣٢هـ)، المحقق: محمود محمد شاكر، الناشر: دار المدني - جدة، عدد الأجزاء: ٢.

✽ العبر في خبر من غبر، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، عدد الأجزاء: ٤.

✽ العرش وما روي فيه، المؤلف: أبو جعفر محمد بن عثمان بن أبي شيبة العبسي (المتوفى: ٢٩٧هـ)، المحقق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، عدد الأجزاء: ١.

✽ العرش، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ابن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، عدد الأجزاء: ٢.

✽ العظمة، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري المعروف بأبي الشيخ الأصبهاني (المتوفى: ٣٦٩هـ)، المحقق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، الناشر: دار العاصمة - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨، عدد الأجزاء: ٥.

✽ عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد، المؤلف: أحمد بن عبد الرحيم ابن الشهيد وجيه الدين بن معظم بن منصور المعروف بـ «الشاه ولي الله الدهلوي» (المتوفى: ١١٧٦هـ)، المحقق: محب الدين الخطيب، الناشر: المطبعة السلفية - القاهرة، عدد الأجزاء: ١.

✽ العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، الناشر: مكتبة أضواء السلف - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، عدد الأجزاء: ١.

✽ عمدة الأحكام من كلام خير الأنام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المؤلف: عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الجماعيلي الدمشقي الحنبلي، أبو محمد، تقي الدين (المتوفى: ٦٠٠هـ)، دراسة وتحقيق: محمود الأرناؤوط، مراجعة وتقديم: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار الثقافة العربية، دمشق - بيروت، مؤسسة قرطبة، مدينة الأندلس، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، عدد الأجزاء: ١.

- ✽ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، المؤلف: أبو محمد محمود بن أحمد ابن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (المتوفى: ٨٥٥هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، عدد الأجزاء: ٢٥.
- ✽ العين، المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال، عدد الأجزاء: ٨.
- ✽ غريب الحديث، حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، تحقيق عبد الكريم إبراهيم العزباوي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، طبعة ١٤٠٢هـ.
- ✽ غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، تحقيق محمد عبد المعيد خان، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ.
- ✽ غريب القرآن، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، المحقق: أحمد صقر، الناشر: دار الكتب العلمية (لعلها مصورة عن الطبعة المصرية)، السنة: ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.
- ✽ الفتاوى الكبرى لابن تيمية، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، عدد الأجزاء: ٦.
- ✽ فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، المؤلف: محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ (المتوفى: ١٣٨٩هـ)، جمع وترتيب وتحقيق: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، الناشر: مطبعة الحكومة بمكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٣٩٩ هـ، عدد الأجزاء: ١٣.

✽ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني،
عناية محب الدين الخطيب، وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي. دار المعرفة،
بيروت.

✽ فتح القدير، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني
(المتوفى: ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق،
بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ.

✽ الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، المؤلف: عبد القاهر بن طاهر بن
محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الإسفراييني، أبو منصور (المتوفى:
٤٢٩هـ)، الناشر: دار الآفاق الجديدة - بيروت، الطبعة: الثانية،
١٩٧٧م، عدد الأجزاء: ١.

✽ فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: د. وصي الله محمد عباس.
مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ.

✽ فيض القدير، عبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية، مصر، الطبعة الأولى
١٣٥٦ هـ.

✽ القاموس المحيط، المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب
الفيروزآبادي (المتوفى: ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة
الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة
للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ
- ٢٠٠٥م، عدد الأجزاء: ١.

✽ قانون التأويل، المؤلف: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري
الإشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ)، دراسة وتحقيق: محمد السليمان،

الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدّة، مؤسّسة علوم القرآن، بيروت،
الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، عدد الأجزاء: ١.

✽ القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد، المؤلف: محمد بن علي بن محمد
ابن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠ هـ)، المحقق: عبد الرحمن
عبد الخالق، الناشر: دار القلم - الكويت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٦.

✽ الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، شمس الدين محمد بن
أحمد أبو عبد الله الذهبي الدمشقي، تحقيق محمد عوامة، دار القبلة للثقافة،
جدّة، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ.

✽ الكافي في فقه الإمام أحمد، المؤلف: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد
ابن محمد بن قدامة الجعافيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن
قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠ هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة:
الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، عدد الأجزاء: ٤.

✽ الكامل في ضعفاء الرجال، لابن عدي، تحقيق يحيى مختار غزاوي، دار
الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٩ هـ.

✽ كتاب التوحيد (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب،
الجزء الأول)، المؤلف: محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي
النجدي (المتوفى: ١٢٠٦ هـ)، المحقق: عبد العزيز بن عبد الرحمن السعيد
وغیره، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية
السعودية، عدد الأجزاء: ١.

✽ كتاب الفتن، المؤلف: أبو عبد الله نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث
الخزاعي المروزي (المتوفى: ٢٢٨ هـ)، المحقق: سمير أمين الزهيري،

الناشر: مكتبة التوحيد - القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٢، عدد الأجزاء: ٢.

✽ كتاب شرح السنة، اسم المؤلف: الحسن بن علي بن خلف البرهاري أبو محمد، دار النشر: دار ابن القيم - الدمام - ١٤٠٨، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد سعيد سالم القحطاني.

✽ كشف الخفاء ومزيل اللباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني، تحقيق أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ.

✽ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، مصطفى ابن عبد الله أبو طاهر القسطنطيني، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٤١٣هـ.

✽ الكشف والبيان عن تفسير القرآن، المؤلف: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م، عدد الأجزاء: ١٠.

✽ كفاية النبيه في شرح التنبيه، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الأنصاري، أبو العباس، نجم الدين، المعروف بابن الرفعة (المتوفى: ٧١٠هـ)، المحقق: مجدي محمد سرور باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٩ م، عدد الأجزاء: ٢١ (١٩ جزء لتعقبات الإسنوي وجزء للفهارس).

✽ الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، المؤلف: أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)، المحقق: عدنان درويش - محمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، عدد الأجزاء: ١.

✽ لسان العرب، لابن منظور جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري الإفريقي ثم المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

✽ لسان الميزان، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق دائرة المعارف النظامية - الهند، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ.

✽ لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة، المؤلف: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (المتوفى: ٤٧٨هـ)، المحقق: فوقية حسين محمود، الناشر: عالم الكتب - لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، عدد الأجزاء: ١.

✽ لمعة الاعتقاد، المؤلف: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ)، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، عدد الصفحات: ٤٦.

✽ لوائح الأنوار السنية ولوائح الأفكار السنية «شرح قصيدة ابن أبي داود الحائية في عقيدة أهل الآثار السلفية»، المؤلف: محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي.

✽ (المتوفى: ١١٨٨ هـ)، دراسة وتحقيق: عبد الله بن محمد بن سليمان البصري، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م، عدد الأجزاء: ٢.

✽ المبدع في شرح المقنع، المؤلف: إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن مفلح، أبو إسحاق، برهان الدين (المتوفى: ٨٨٤ هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ٨.

✽ المبسوط في القراءات العشر، المؤلف: أحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري، أبو بكر (المتوفى: ٣٨١ هـ)، تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي، الناشر: مجمع اللغة العربية - دمشق، عام النشر: ١٩٨١ م، عدد الأجزاء: ١.

✽ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المؤلف: نصر الله بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب (المتوفى: ٦٣٧ هـ)، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر - بيروت، عام النشر: ١٤٢٠ هـ.

✽ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الريان للتراث، القاهرة، وبيروت.

✽ مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، المحقق: عبد الرحمن بن محمد ابن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م.

✽ مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، طبعة ١٤١٥هـ.

✽ المختصر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: ابن اللحام، علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عباس البعلي الدمشقي الحنبلي (المتوفى: ٨٠٣هـ)، المحقق: د. محمد مظهر بقا، الناشر: جامعة الملك عبد العزيز - مكة المكرمة، عدد الأجزاء: ١.

✽ المخصص، المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسى (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: خليل إبراهيم جفال، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، عدد الأجزاء: ٥.

✽ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، عدد الأجزاء: ٢.

✽ المدخل إلى السنن الكبرى، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُشْرُو جَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، الناشر: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي - الكويت، عدد الأجزاء: ١.

✽ المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن عبد الرحيم بن محمد بدران (المتوفى: ١٣٤٦هـ)، المحقق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠١، عدد الأجزاء: ١.

✽ مذكورة في أصول الفقه، المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الخامسة، ٢٠٠١ م، عدد الأجزاء: ١.

✽ مسائل أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله، المؤلف: عبد الله بن أحمد ابن حنبل، سنة الولادة ٢١٣هـ / سنة الوفاة ٢٩٠هـ، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، سنة النشر: ١٤٠١هـ - ١٩٨١ م - بيروت، عدد الأجزاء: ١.

✽ المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

✽ مسند ابن الجعد، المؤلف: علي بن الجعد بن عبيد الجوهري البغدادي (المتوفى: ٢٣٠هـ)، تحقيق: عامر أحمد حيدر، الناشر: مؤسسة نادر - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠ م.

✽ مسند أبي داود الطيالسي، لسليمان بن داود بن الجارود الطيالسي، دار المعرفة، بيروت.

✽ مسند أبي يعلى، المؤلف: أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى ابن هلال التميمي، الموصلي (المتوفى: ٣٠٧هـ)، المحقق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ - ١٩٨٤، عدد الأجزاء: ١٣.

✽ مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، مصر.

✽ مسند البزار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

✽ مسند الحارث بن أبي أسامة - (زوائد الهيثمي) للحافظ نور الدين الهيثمي، تحقيق: حسين البكري. دار مركز خدمة السنة، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

✽ مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)، المؤلف: أبو محمد عبد الله ابن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (المتوفى: ٢٥٥هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ٤.

✽ مسند الشاميين، أبو القاسم الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

✽ مسند الشهاب، اسم المؤلف: محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٧ - ١٩٨٦، الطبعة: الثانية، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي.

✽ مسند عبد بن حميد، تحقيق صبحي البدري ومحمود محمد خليل، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

✽ المسند، المؤلف: الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان ابن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: ٢٠٤هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، صححت هذه النسخة: على النسخة المطبوعة في مطبعة بولاق الأميرية والنسخة المطبوعة في بلاد الهند، عام النشر: ١٤٠٠هـ.

✽ مشارق الأنوار على صحاح الآثار، للإمام أبو الفضل عياض بن موسى ابن عياض الأندلسي المالكي، المعروف بالقاضي عياض، طبع ونشر المكتبة العتيقة، تونس، دار التراث، القاهرة.

✽ مشكاة المصابيح، المؤلف: محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (المتوفى: ٧٤١هـ)، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥، عدد الأجزاء: ٣.

✽ مشيخة القزويني، المؤلف: عمر بن علي بن عمر القزويني، أبو حفص، سراج الدين (المتوفى: ٧٥٠هـ)، المحقق: الدكتور عامر حسن صبري، الناشر: دار البشائر الإسلامية، الطبعة: الأولى ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، عدد الأجزاء: ١.

✽ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، عدد الأجزاء: ٢ (في مجلد واحد وترقيم مسلسل واحد).

✽ مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

✽ المصنف، المؤلف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ)، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي - الهند، يطلب من: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣، عدد الأجزاء: ١١.

✽ معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ)، المحقق: حقه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ٨.

✽ معاني القراءات للأزهري، المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، الناشر: مركز البحوث في كلية الآداب - جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م، عدد الأجزاء: ٣.

✽ معاني القرآن وإعرابه، المؤلف: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب - بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، عدد الأجزاء: ٥.

✽ المعجم الأوسط، أبو القاسم الطبراني، تحقيق طارق بن عوض الله وعبد المحسن ابن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، طبعة ١٤١٥ هـ.

✽ معجم الصحابة، المؤلف: أبو الحسين عبد الباقي بن قانع بن مرزوق بن واثق الأموي بالولاء البغدادي (المتوفى: ٣٥١هـ)، المحقق: صلاح بن سالم المصري، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٨، عدد الأجزاء: ٣.

✽ معجم الفروق اللغوية، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ابن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، المحقق:

الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ(قم)، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ، عدد الأجزاء: ١.

✽ المعجم الكبير، أبو القاسم الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.

✽ معجم مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، عدد الأجزاء: ٦.

✽ معرفة علوم الحديث، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق السيد معظم حسين، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ.

✽ المغني عن حمل الأسفار للعراقي، مكتبة دار طبرية، طبعة ١٤١٥هـ.

✽ المغني لابن قدامة، المؤلف: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ)، الناشر: مكتبة القاهرة، الطبعة: بدون طبعة، عدد الأجزاء: ١٠، تاريخ النشر: ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

✽ المفردات في غريب القرآن، المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢هـ.

✽ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (المتوفى: ٣٢٤هـ)، عنى بتصحیحه: هلموت ريتز، الناشر: دار فرانز شتاينز، بمدينة فيسبادن (ألمانيا)، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م، عدد الأجزاء: ١.

✽ الملل والنحل، المؤلف: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (المتوفى: ٥٤٨هـ)، المحقق: محمد سيد كيلاني، الناشر: مؤسسة الحلبي، عدد الأجزاء: ٣.

✽ المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، عدد الأجزاء: ١٩.

✽ منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم ابن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، عدد المجلدات: ٩.

✽ المنهل الروي في مختصر علوم الحديث النبوي، المؤلف: أبو عبد الله، محمد ابن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين (المتوفى: ٧٣٣هـ)، المحقق: د. محيي الدين عبد الرحمن رمضان، الناشر: دار الفكر - دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦، عدد الأجزاء: ١.

✽ موطأ الإمام مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، مصر.

✽ ميزان الاعتدال في نقد الرجال، شمس الدين الذهبي، تحقيق علي عوض، وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٥ م.

✽ النبوات، لشيخ الإسلام ابن تيمية، المطبعة السلفية، القاهرة، طبعة ١٣٨٦ هـ.
✽ النجم الوهاج في شرح المنهاج، المؤلف: كمال الدين، محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدّميري أبو البقاء الشافعي (المتوفى: ٨٠٨ هـ)، الناشر: دار المنهاج (جدة)، المحقق: لجنة علمية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م، عدد الأجزاء: ١٠.

✽ نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر (مطبوع ملحقاً بكتاب سبل السلام)، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢ هـ)، المحقق: عصام الصبابطي - عماد السيد، الناشر: دار الحديث - القاهرة، الطبعة: الخامسة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ١.

✽ النَّظْمُ الْمُسْتَعَذَّبُ فِي تَفْسِيرِ غَرِيبِ أَلْفَاظِ الْمَهْدَبِ، المؤلف: محمد بن أحمد ابن محمد بن سليمان بن بطال الركي، أبو عبد الله، المعروف ببطل (المتوفى: ٦٣٣ هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق: د. مصطفى عبد الحفيظ سالم، الناشر: المكتبة التجارية، مكة المكرمة، عام النشر: ١٩٨٨ م (جزء ١)، ١٩٩١ م (جزء ٢)، عدد الأجزاء: ٢.

✽ نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد، على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عَزَّجَلَّ من التوحيد - لأبي سعيد عثمان بن سعيد الدارمي، تحقيق: د. رشيد بن حسن الألمعي. الناشر: مكتبة الرشيد، الرياض، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

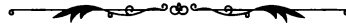
✽ نهاية السؤل شرح منهاج الوصول، المؤلف: عبد الرحيم بن الحسن بن علي الإسنوي الشافعي، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٧٧٢هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ١.

✽ النهاية في غريب الحديث والأثر، المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، عدد الأجزاء: ٥.

✽ الوافي بالوفيات، المؤلف: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ)، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث - بيروت، عام النشر: ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ٢٩.

✽ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المؤلف: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى:

٦٨١هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة:
الجزء: ١ - ١٩٠٠، الجزء: ٢ - ١٩٠٠، الجزء: ٣ - ١٩٠٠، الجزء: ٤ -
الطبعة: ١، ١٩٧١، الجزء: ٥ - الطبعة: ١، ١٩٩٤، الجزء: ٦ - ١٩٠٠،
الجزء: ٧ - الطبعة: ١، ١٩٩٤، عدد الأجزاء: ٧.



فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ

٥.....	مقدمة الناشر
٩.....	مقدمة الشارح
١٢.....	خطبة الكتاب (صاحب المتن)
١٢.....	شرح الخطبة وبيان ما فيها من الفوائد البلاغية
٢٨.....	بيان الأصل الأول عند أهل السنة وهو التسليم للنصوص
٣٢.....	الحكم في ما أشكل من النصوص
٣٣.....	الكلام على الإحكام والتشابه في النصوص
٣٤.....	تعريف المتشابه
٣٨.....	أنواع التأويل
٣٩.....	معاني التأويل الثلاثة
٤٠.....	التأويل عند طوائف المبتدعة
٤٢.....	الرد على دعوى المبتدعة أنهم يستدلون بالقرآن
٤٤.....	ابتغاء تأويل المتشابه علامة على الزيغ
٤٧.....	كلام الأئمة في إثبات الصفات وإمرارها
٤٧.....	كلام الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ
٤٨.....	توضيح المراد بقول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ
٥٨.....	كلام الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ
٦٦.....	كلام ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في لزوم الاتباع
٦٩.....	كلام عمر بن عبد العزيز في لزوم الاتباع

- ٧٣..... كلام الأوزاعي في لزوم الاتباع.
- ٧٥..... كلام الإمام الأدرمي رَحِمَهُ اللهُ وتحقيق نسبته واسمه.
- ٨١..... صفات الوجه واليدين والنفس والمجيء والإتيان.
- ٨٧..... صفة الرضى والغضب والسخط والكره.
- ٩٢..... صفة النزول.
- ٩٥..... صفة العجب.
- ٩٨..... صفة الضحك.
- ١٠٥..... صفة العلو وصفة الاستواء.
- ١٠٧..... تفسير أهل الضلال للاستواء.
- ١١١..... تفسير أدلة العلو.
- ١٢٤..... رد الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ على من سأله عن الاستواء.
- ١٣٠..... فَضْلٌ فِي إِثْبَاتِ صِفَةِ الْكَلَامِ.....
مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ بِكَلَامٍ قَدِيمٍ، يَسْمَعُهُ مِنْهُ مَنْ شَاءَ
مِنْ خَلْقِهِ.....
- ١٣٤.....
- ١٤٢..... حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي إِثْبَاتِ صِفَةِ الْكَلَامِ.
- ١٤٤..... حديث عبد الله بن أنيس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي إِثْبَاتِ صِفَةِ الْكَلَامِ.
- ١٤٨..... فصل: القرآن العظيم من كلام الله تعالى.
- ١٥٤..... مراتب القرآن العظيم.
- ١٦٤..... تحدي القرآن للكفار والرد على أقوالهم.
- ١٧٩..... مذهب أهل السنة في التعامل مع القرآن الكريم.

- كلام أبي بكر وعمر وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في التعامل مع القرآن ١٨٢
- اتفاق المسلمين على عدد سور وآيات القرآن، وحكم من جحد شيئاً من القرآن ١٨٤
- فصل في رؤية الله عَزَّجَلَّ بالأبصار ١٨٥
- مذهب بعض الطوائف المخالفة في الرؤية ١٨٩
- فصل من صفات الله تعالى أنه الفعال لما يريد ١٩٥
- الإيمان بالقضاء والقدر يتضمن أربع مراتب ١٩٦
- الإرادة نوعان؛ كونية وشرعية ١٩٨
- بيان معاني الأدلة من القرآن على القضاء والقدر ١٩٩
- بيان معاني الأدلة من السنة على القضاء والقدر ٢٠٦
- الرد على من يحتج بالقدر في المعاييب وبيان مذهب أهل الحق ٢١٢
- فصل في أن الإيمان قول وعمل ٢١٩
- الإيمان في اللغة ٢١٩
- الإيمان شرعاً ٢١٩
- الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ٢٢٠
- تعريف الإرجاء والمرجئة وبيان فرق المرجئة وأقوالهم ٢٢٤
- بيان بعض الأدلة على أن الإيمان قول واعتقاد وعمل، وأنه يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية ٢٢٨
- فصل في وجوب الإيمان بكل ما أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٢٣٢
- قريش أنكرت الإسراء ولم تنكر المنامات ٢٣٩

- ٢٤٢..... قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ملك الموت
- ٢٤٣..... أشراف الساعة ووجوب الإيمان بها
- ٢٥٠..... عذاب القبر ونعيمه ووجوب الإيمان به
- ٢٥٥..... الْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ حَقٌّ
- ٢٥٨..... الحشر من الأمور التي يجب الإيمان بها
- ٢٦٢..... الكلام على الموازين والدواوين وصفة الميزان يوم القيامة
- ٢٦٧..... خصائص حوض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
- ٢٦٩..... الصراط
- ٢٧١..... إثبات الشفاعة يوم القيامة
- ٢٧٧..... الكلام عن الجنة والنار والموت
- ٢٨٠..... فصل في أن محمداً رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم النبيين والمرسلين
- أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير الأمم، وترتيب أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
- ٢٨٩..... في الفضل
- ٣٠٢..... مذهب أهل السنة في الشهادة بالجنة لمن شهد له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
- ٣٠٦..... لَا تُكْفَرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ، وَلَا تُخْرِجُهُ عَنِ الْإِسْلَامِ بِعَمَلٍ
- ٣٠٩..... الحج والجهاد ماضيان مع طاعة كل إمام برّاً كان أو فاجراً
- ٣١٥..... من السنة تولى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
- ٣٢٢..... مِنَ السُّنَّةِ التَّرَضِّي عَنْ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
- ٣٢٣..... ذكر زوجات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وترتيبهن
- ٣٢٨..... فضائل معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وَفَاجِرِهِمْ	٣٣١
ما تحصل به الولاية الشرعية	٣٣٣
مَنْ السُّنَّةِ هِجْرَانُ أَهْلِ الْبِدْعِ وَمُبَايَنَتُهُمْ	٣٣٤
البدعة تنقسم إلى قسمين	٣٣٦
كلام العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَعْرِيفِ طَوَائِفِ الْمُبْتَدِعَةِ	٣٤٦
الخوارج جمعوا بين جريمتين	٣٥٠
القدرية الغلاة والقدرية النفاة	٣٥١
فرق المرجئة	٣٥٢
الخلافا في الفروع	٣٥٧
آخر المعتقد	٣٦٣
قائمة المراجع	٣٦٥
فهرس الموضوعات	٤٠٣